171 إلى معتبر والحيا

والمستعدد عيد المعالم المستعدد المستعدد



رِجُلِيُّ بِيرِّتُوُرِثِ) إلى مصروالحجاد

الألفاكتابالثاني

الإمتسواف العام و .سمس پر سپرحسائ رئیست مجلست ابلدارة

دشیس۱انتوپیو لمستسعی المطعیسعی

مسديوالتحسريو

أخستدصليت

الأشراف الغنى محسمد قطب

الإخماج الضتى

محسنةعطية

رَجُلَيُّ بِكِرْتُونَ } الى مصروالحبان

الجسزء الأول

تأليف رقشارد ف بيرتون

ترجة وتعليق د ،عيدالزحن عبّدالله الشيخ



nverted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هلم هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

PILGRIMAGE TO AL-MADINA AND MECCAH

by

RICHARD F. BURTON

الفهرش

الصفح	;1
لقدمة الطبعة العربية · · · · · · · · · · · · · · · · · · ·	
لقصل الأول	j
الى الاسكندرية ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
لقصل الثانى	1
مغادرة الاسكندرية ٠٠٠٠٠٠٠	
لقصل الثالث	ij
السفينة النيلية التجارية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٨٣ ٨٣ ٠ ٠ ٠ ٨٣	
لقصل الرايع	ļį
الحياة في الوكالمة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٩٤	
لقصل الخامس	j
شهر رمضان ۰ ۰ ۰ ۰ ۰ ۰ ۰ ۰ ۲۱	
نقصل السادس	[[
المسجـــد ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ١	
قصل السابع	11
الاستعداد لمغادرة القاهرة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
لغصل الثامن	ij
من القاهرة للسويس ٠٠٠٠٠٠٠٠	

الصفحة											وضوع	11
											مل التاسع	ij.
140	•	•	٠	٠	٠	٠	٠	٠	•	•	السويس	
											صل العاش	١١١٠
١٥٣	•	•	٠	٠	٠	٠	•	٠	•	•	سفينة الحج	
			,							عشي	صل المادي د	الق
177	•	•	•	•	•	•	•	•	٠		الى ينبسع	
										نى .	صل الثاتي عث	القد
۱۸۰	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	•	٠	نبع	التوقف في ين	
										ش	مىل الثالث ع	١١٠
197	•	. •	•	•	٠	٠	•	٠	ال	۔ عباس	من ينبع الى بير	
										بر	صل الرابع عث	، الق
710	•	•	•	٠	•		رة)	المنو	ينة (لى المد	من بیر عباس ا	٠

مقدمة الطبعة العربية

هـنه صفحات مفعمة بالحياة لأحوال مصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية في متتصف القرن التاسع عشر ،يزيد من قيمتها ان كاتبها ليس بشخص عادى ، واقما رحالة عالم طبغت شهرته الآفاق هو الأيرلندي رتشارد بيرتون ، وسنتناول جهوده بايجاز في ثنايا هـنه القاسدمة •

لقد قام بیرتون برحلته لمصر فی غضون سنة ۱۸۵۳ أی فی أواخر عهد عباس باشا الأول (۱۸۶۸ ــ ۱۸۵۶) ولا یخفی أن مصر كانت یومئذ تمر بمرحلة انتقال خطیرة فقد فرضت الدول الأوربیة علی محمد علی (۱۸۰۵ ــ ۱۸۶۸) القاء سیاسة الاحتکار ، وكان لهدا اثسره علی اقتصاد مصر ، وسائر مظاهر الحیاة الاجتماعیة فیها ، وحتی یكون للمعلومات المبثونة فی هده الرحلة مذاقها كان لا بد آن تقدم للقاریء جانیا منها فی سیاقه التاریخی ،

الاحتكار: وهدو ببسداطة يعنى د من بين مدا يعنى د التوجيدة الافتصادى للدولة من حيث المعمل على تقليل الواردات وزيادة المصادرات، وتوجيه المسناعة والزراعة بما يخدم هذه السياسة ، وقد تحالفت الدول

الأوربية _ كما هو معروف _ مع الدولة المعثمانية لاحباط سياسة محمد على في هذا المجال ، ورفع القيود عن الواردات الأوربية لمص ، واضعاف جيش محمد على ، عدته في التوسيع ومحدور سياسته التعليمية والاقتصادية ، فعقدت بريطانيا معاهدة (بلطة ليمان) (نسبة لمدينة بهذا الاسم في تركيا) مع الدولة العثمانية سنة ١٨٣٨ لالغاء الاحتكار التجاري في مصر ، وبدأ تنفيذ هذه المعاهدة ١٨٣٩ ، ولما رفضها محمد على فرضتها دول أوروبا في تسوية لمندن ١٨٤٠ ، وبدأت المنتجات الأوربية تغزو مصر ٠ هذه حقائق تاريخية معروفة مطروقة ، ولكن بيرتون يذكر لنه أن المستولين في مصر كانوا في بعض المجالات يتحايلون ضد سياسة المغاء الاحتكار هذه ومن ذلك ابتداع نظام (الدور) في النقل البحرى مما يعطى صاحب السفينة حق فرض الأجرة التي يريدها على المسافرين أو البضائع المنقولة ، لأن هذا النظام يعطيه وحده الحق في أن يكون في الميناء ، ولا يجوز لأى سفينة أخرى أن تشحن بضائع أو تسسمح للركاب بالركوب الا بعد أن يغادر هو الميناء لياتي دور سفينة أخرى تتحسكم هي الأخسري (أو تحتكر) عملية الشحن بالسعر الذي تحدده • وكان عدد كبير من اسرة محمد على وحاشيته من ملاك السفن ٠ (معلومة جديدة تهم المهتمين بتاريخ الاحتكار) •

المفلاح: كان من النتائج الجانبية لالمغاء سياسة الاحتكار الترسع في ملكية الأرض الزراعية (ملكية رقبة لا ملكية انتفاع)، فعرف المفلاح (حقه) في زراعة ما يشاء، و (حقه) في ألا يضرب لكن بيرتون لاحظ أن الفلاح كان يعى حقوقه (بالكلام) ولكن « المخميرة القديمة » على حد تعبير بيرتون عانت لاتزال كامنة في اللاشعور وفي معرض حديثه عن المرق في المشرق يقول لنا بيرتون ان الرقيق في مصر والشرق يعيش حياة افضل كثيرا من حياة الفلاح المصرى (الحر) والمدراك

الرقيق: اكثر محمد على من استقدام الرقيق واستعان بهم في المور شتى من بينها الجيش وفشل في ذلك ورغم أن الرقيق قد منع رسميا بعد ذلك الا أن بيرتون يحدثنا عن تجار رقيق في المقاهرة وعن صفقات بين جدة والاسكندرية وبين جدة والقاهرة والطريف أن بيرتون يقول أن أوروبا تضخم هذا الموضوع فالرقيق في الشرق يحظى بمعاملة كريمة ، لأن الشريعة الاسلامية تحث على ذلك ، ولان مالك الرقيق اكثر ما يكون حرصا عليه لانه يعتبره ملكا له ، ويقارن بين حال الرقيق وحال الفلاح المصرى بما ذكرناه آنفا .

المقجنيد: يذكر بيرتون أنه « حيثما يتجمع الناس في المساجد أو المقاهي سارعت الشرطة فغلقت الأبواب وقبضت عنوة على المقادرين بدنيا » فقد عاصر بيرتون أثناء زيارته لمصر نشوب المصرب المتركية المروسية (١٨٥٣ ـ ١٨٥٣) ودخول مصر فيها الى جانب تركيا طبعا ، فكان اتساع حركة المتجنيد ضروريا .

ولاحظ بيرتون أن الشعب المصرى تنادى بحركة « الجهاد » ضد. روسيا وكان متحمسا تحمسا حقيقيا ٠

القضاء: يقول بيرتون انه في مصر والشرق يفضل كثيرون استخدام « السكين والنبوت » للحصول على حقوقهم للبطء الشديد في اجراءات التقاضي • وكثرة حيله ومساربه • ولابد من المامة تاريخية توضيح لنا ما ذكره بيرتون في رحلته عن المقضاء في مصر في هذه الفترة •

قفى سنة ١٨٤٢ انشا محمد على هيئة قضائية عرفت « بجمعية الحقانية » لمحاكمة كبار الموظفين ، كما انشا « مجلس التجارة » وكان بمثابة محكمة تجارية المفض المنزاع بين المصريين والأجانب ، وبين المصريين. بعضهم وبعضهم الآخر ، وكان فى مجلس التجارة هاذا أعضاء من الأجانب ، واستمرت المحاكم الشرعية تؤدى عملها فى مجال الأحسوال الشخصية ، كما كانت هناك « مجالس الأقاليم » لفض المنسازعات المدنية والتجارية ، وبعد الغاء سياسة الاحتكار تدفق الأجانب على محر ، ولسم يكن محمد على يسمح الا باستقدام الخبراء فى مجالات بعينها ، وقسد الستند هؤلاء الوافدون على الامتيازات الأجنبية التى كانت تعفيهم من الضرائب وتمنحهم الحق فى أن يحاكموا أمام قنصليات بلادهم ، واعتبر بيرتون هذا تجاوزا للحقوق الطبيعية للدولة المحرية ،

ولما كان بيرتون فى مصر (بعد الفاء سياسة الاحتكار) كان عدد الدواوين (الوزارات) قد تقلص ليصبح أربعة فقط هى (الداخلية والحربية والمالية والخارجية) •

القدا المحمى اذا تعامل مع «القواس » أي ضابط الشرطة ، أو دخل مركز الشرطة لأي أمر كان فلابد أن يعطيه المسئول « قفا « Kafa » أي يضربه على قفاه حتى قبل أن تثبت عليه التهمة « انك تمر مع المتهمين الآخرين ليأخذ كل منهم « قفا » فاذا جاء دورك أخذت مثل الذي أخذوا » و « القفا » خاص بالمصرى دون سواه ، فاذا كنت أجنبيا تحرزوا في اعطائك « القفا » وأحالوك الى قنصلية يلاك •

وربما كان ما ذكره بيرتون عن « القفا » في أكثر من فصل من فصول رحلته هو السبب في حساسية المصريين المعاصرين الشديدة من لمس (مجرد لمس) منطقة « القفا » هذه ، فلمس القفا في السودان مثلاً محبة ودعابة ، والضرب عليه مثل المضرب في أي موضع آخسر *

ويحدثنا بيرتون باسهاب عن الضرب بالفلكة أو (الفلقة) وكيف انها من الأمور المعتادة كأحد أساليب العقاب ، ويبدو أن ذلك قد استمر الى وقت متأخر فأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد يحدثنا فى « قصلة حياتى » التى صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة المواجهة) أنه حتى العمد كانوا يضربون بالفلقة أذا تأخر فلاحوهم عن الدفع • وأذا كان العمد يضربون بالفلكة فبأى شيء يضربون فلاحيهم !!

الحجـاب:

كانت المصريات في عهد محمد على محجبات (نساء المدن على الأقل) وفي أو أخر عهد محمد على (بعد الغداء سياسة الاحتكار) تدفق الأجانب على مصر وزاد عددهم تدريجيا ، ومع هذا كانت كل النسوة محجبات حتى عهد عباس الأول بما في ذلك غير المسلمات لدرجة أن بيرتون يذكر بامتنان كبير أن أحد السوريين المسيحيين في مصر سمح له بالمتطلع لوجه زوجته بغير خمار ، ومع كل هذا فان بيرتون يحدثنا درغم الحجاب عن مظاهر الفساد خاصة في الأعياد ويقول : « ويلاحظ المسافر في الشرق دبعجب وجود بعض المسيدات ليس لهن من العفة نصيب سوى المبرقع » ومعنى هذا أن الحجاب وحده لم يمنع ممارسة الرذيلة ، كما أنه ليس دليسلا عليها ،

البرم: بضم الباء وفتح الراء هو الشخص الذى تحصول للاسسلام طمعا فى مكسب مالى أو للقيام بالتجسس • فبعد الغاء سياسة الاحتكار وتدفق الأجانب على مصر ، ادعى عدد منهم الاسلام لا رغبة فيه ولسكن لولوج المحياة الاجتماعية لأهل البلاد ، يقول لنا بيرتون انه أراد أن يزور مصر والحجاز باعتباره مسلما أصيلا بالمولد ، لا مسلما متحولا (برم) • وقد انصرف معنى هذه الكلمة الآن لمعان كثيرة مختلفة ، لكن ما ذكره لنا بيرتون يمثل جدورها التاريخية •

المفرق بين علماء الأزهر والدراويش: كان من الطبيعى بعد اختلاف مدمد على مع الزعامات الشعبية وابعاد عمر مكرم، أن يتضاءل دور الأزهر، ومضت فترة ليست بالقليلة قبل أن يستعيد دوره ـ وهذا الظرف

التاريخى يفسر لنا الأحوال المتدهورة للأزهر من حيث الامكانات المادية والآثار المعنوية عندما زاره بيرتون فوجد مكتباته خاوية ورجاله بؤساء ومقرراته هزيلة وكان من الطبيعى أيضا بعد تدهور أحوال الأزهر الذي قاد رجاله المقاومة ضد الحملة الفرنسية ، وقاد رجاله حركة تولية محمد على أمر مصر رغم أرادة السلطان ان تظهر جماعات أو منظمات أخرى لتسد المفراغ الديني والعلمي ، فحل خريجو المدارس الجديدة وأعضاء البعثات الى حد ما محل علماء الأزهر ، وأن لم يكن لمهم القاعدة الشعبية العريضة المتى كانت لعلماء الأزهر (الزعامات الشعبية)، كما ازدهرت الطرق الصوفية وأساليب الدروشة لتملأ الفراغ وحازت شعبية كبيرة أكثر من ذي قبل .

ورحالتنا بيرتون يصفق لهذا تصفيفا شديدا قائلا انه لا خطر من هؤلاء في مقاومة أى غزو أوروبي مرتقب لمصر وقد اندمج بيرتون عندما كان في الاسكندرية في سئلك الدروشة والطرق الصوفية ، ويبدو أن حظه كان عاثرا أذ وقع على جماعة منهم كانت عوراتهم ظاهرة ويتصرفون بفحش حتى أنه قال أن المرء أذا بقى معهم سيجد نفسه « فدوق الموتد .أو تحت العصا » و والمعنى واضح .

البقشيش : يقول : انها اسوا كلمة سمعتها عندما قدمت لمصر ، وآخر كلمة سيئة سمعتها عند مغادرة مصر ، ولكنه فوجىء بها في الحجاز اليضا فزاد كمده .

الموظف المشرقى: فى هذه المفترة وجد بيرتون أن الموظف فى مصر والشرق لا يمكن التعامل معه الا بالتهديد أو المرشوة أو الالحاح الشديد بكثرة التردد عليه مصحوبا بالمعارف والأصدقاء .

ليس من هدفنا في هذه المقدمة تقديم عرض لمكل ما ورد بها ، لكنني كما ذكرت آنفا أردت ربط بعض ما ذكره بيرتون بالطروف التاريخية حتى يمكن فهمه وتذوقه • وحقيقة الأمر أننا أشرنا مجسره اشسارات لبعض ما أورده بيرتون وهو كثير غساية الكثرة ، عميق غساية العمق سسواء اتفقت معه أم لا • قمن هو بيرتون هذا ؟ ولد هذا الأيرلندي المخلط سنة ١٨٢١ وتذكر الموسوعة البريطانية أنه من أصول انجليزية وأيرلندية وربما

فرنسية ، وهو أول أوروبي يكتشف بحيرة تنجانيقا ، وقد نشر ٤٣ مجلدا: عن رحلاته وترجم الى الانجليرية من العربية والفارسية وغيرها ثلاثين كتابا بما فيها المنص الأصلى لألف ليلة وليلة • أتقن ٢٥ لغة وأربعين لمهجة وبرع بالاضافة للانجليزية في الفرنسية والايطسالية واللاتينية واليونانية بالاضافة لباقة من اللغات الشرقية • المتحق بجامعة أكسفورد وتركها سنة ١٨٤٢ ليعمل ضايطا بالجيش البريطاني في الهند اثناء خوضه المحرب ضد السند (باكستان الآن) • زار مصر وهو في طريقه للحجاز سنة ١٨٥٢ وفي ١٨٥٤ زار هرر ، وخطط مع ثلاثة ضباط بما فيهم المكتشف الشهير سبيك Speke لكشف منابع النيل بالتوغل في شرق افريقيا ، وتوغل مع سبيك بالمفعل في شرق افريقيا ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ووصلا لمبحيرة تنجانيقا ، واندفع سبيك منفردا ليكشف بحيرة فكتوريا كمنبع دائم لملنيل ، مما أحنق بيرتون • وفي ١٨٦٠ ذهب بيرتون للولايات المتحدة ، وقام بعد ذلك برحلات قصيرة متتابعة الى غرب افريقيا ، وكتب عنها خمسة كتب لاقت رواجا واهتماما لدى علماء الأنثروبولوجيا • هذا ما يمكن قوله في هذه العجالة عن هذا الرحالة العظيم الذي نقدم رحلته لمصر في هذا الجزء ونقدم بقية رحلته لمكة المكرمة والمدينة المنورة في الجزءين للثاني والثالث ١ أيقى بعد ذلك شك في أهميتها ؟ وقد أوتى بيرتون أسلوبا شيقا لا يخلو من روح الدعاية ، كمسا أن لمه براعمة في السرد ذي الطسابع الروائي ٠

والعجيب أن بيرتون يسخر من تقليد بعض النظم الغربية ، ويعتبر أن هذا لا جدوى منه ، وأن الأفضل والأنجح هو استيحاء نظم من تراث الشرق لا بأس من تأثرها بحضارة الغرب ، أما استيراد نظم غربية لشعوب شرقية فهو أمر مضحك ، لذلك فهو يعتقد أن جهود الدولة العثمانية في الاصلاح باصدار مجموعة قوانين وتنظيمات مستوحاة من الغرب هي (خط كلخانة) لن يؤتى نتيجة مثمرة ، فالمشرق يحتاج لمحكومة متمدينة قاسمية (حازمة) ويضرب مثلا بقبضة محمد على القوية على الحجاز وكيف أنها قللت كثيرا من اللصوص وقطاع الطرق وفرضت الأمن بعدالة (صارمة) ويسخر في المقابل من الدولة العثمانية التي كانت تستنزف دماءها وتقدم أموالها كرواتب أو (رشاوى) لمشايخ العرب دون جدوى ، قد لا يوافق كثيرون على هذه الاستراتيجية الاصلاحية في بلاد المشرق (ومصر شرق) لكن المؤكد أن كثيرين يوافقون عليها وينادون بها ،

ومما يؤخذ على بيرتون أنه أكثر الحديث عن فراسة الدماغ » أو علم الفراسة بمعنى الحكم على أخلاق شخص ما بتأمل ملامحه (عينيه وشفتيه ٠٠ الخ) أو تأمل تركيبه البدنى ، وهى نظريات شاعت فى القرن التاسع عشر ، ولم يعدد لها أنصار كثيرون الآن ، ولا يميدل لها علماء النفس المددون ٠

كما يؤخذ على بيرتون كراهيته الشديدة للهنود ، فقد انتقد أخسلاقهم انتقادا مريرا ، ولا ندرى مساذا يريد بيرتون من الهنسود غير كراهيتهم للانجليز الذين يستعمرون بلادهم ٠

لغبة الرحبلة:

عرض بيرتون رحلت باساوب صعب المرتقى كثير التلافيف طويل الجمل ، كما اغرق في استعمال الصياغات البالاغية والتشبيهات التي استقاها من ثقافات مختلفة اغريقية وأوروبية معاصرة وعربية قديمة ، وعربية حديثة وهندية وافريقية ، مما يرهق قارئه ، ومترجمه من باب اولى ، وسيجد القارئ في ثنايا هذه الرحلة ما يؤكد ذلك وسيجد في بعض تعليقات ما يبين مدى الجهد والمعاناة والمتعة معا التي لقيتها عند ترجمة هذا النص المهم الذي نقدم للقارئ العربي ترجمته الكاملة للمرة الأولى ، وقد افردت لكل جزء من اجزائه مقدمة أو دراسة مستقلة ، اذ تعرض بيرتون في الجزء الأول محرف في الجزء الأول وتعرض في الجزء المثالث لكة المكرمة ، بالاضافة لاستطرادات وتعرض في كل الأحوال ، والله من وراء القصد ،

د عبد الرحمن عبد الله الشيخ



القصيال الأول

الى الاسكندرية

الجمعية الجغرافية الملكية المبريطانية - الهدف الاساسي للرهلة - عن الربع الخالي - الفروق الفسيولوجية بين سكان شبه جزيرة العرب - بقايا الوننيين في شبه الجزيرة العربية في المقرن ١٩ - المخروج من لندن - سفينة المبنغال - مقارنة بين الرجل الشرقي والرجل الغربي - كيف يشرب الهندي السلم الماء ٢ - راس الملين - الكيف والمزاج عند الشرقيين - شخصية الدرويش - البقشيش - وصف الاسكندرية - ممارسة الطب - الطرق المعوفية .

عرضت خدماتي على الجمعية الجغرافية الملكية بلندن في خسريف سنة ١٨٥٢ ، عن طريق صديقي الصروق الجنرال الراحل مونتيث قاصدا أن أزيل عن الكشوف الحديثة تلك الوصعة التي لحقت بها متمثلة في وجود مساحات واسعة بيضاء (لا معلومات عنها) في خرائطنا ، لا زلنا نشير لها بالمناطق الشرقية والوسطى من شبه جزيرة العرب · وقد شرفنى السييد فريدريك ى · مرشيسون طالعرب · وقد شرفنى السييد فريدريك ع والكولونيل ب يورك York والدكتور شو Shaw المفوضون عن هذه الجمعية الموقرة - بحماسهم المعتاد للكشاوف واستعدادهم لشد ازر المكتشفين ـ بان ايدوا بحرارة ـ في لقاء شخصى مع رئيس مجلس المديرين (في ذلك الوقت) بشركة الهند الشرقية البريطانية المنحلة - طلبي للحصول على اجازة مدتها ثلاث سنوات في مهمة خاصة أغادر فيها الهنـــد الي مسقط · الا أنهم لم يكونوا قادرين على اقناع الراحل جيمس هوج Hogg رئيس مجلس المدراء آنف الذكر ، الذي رفض التصديق على الطلب لأنه تذكر المآسى التي لحقت بجنود ورحالة متعددين في الشرق في الأعسوام المفابرة ، وتدرع بأن رحلتي المقترصة في الغاية من الخطورة ٠٠ وعلى أية حال ، فقد سمح لى _ كتعويض عن خيبة الأمل التي حاقت بي -باجازة لمدة عام لمتابعة دراساتي العربية في بلاد يتيسر لي فيها تعلمها على المضلل تحسو ٠ أ ولم يبق الا أن اثبت _ بالتجــربة العملية _ ان ما كان محفــوفا يالمخاطر بالنسبة لغيرى من الرحالة ، آمن بالنسبة لى ، فوجدت أن زيارة للحجاز هي بمثابة محك تجريبي ، فالحجاز هي اكثر مناطق شبه الجزيرة العربية صعوبة وخطورة في آن واحد ، بالنسبة لملاوروبيين الذين يمكنهـم دخولها ، لقد كنت أنوى _ بعد أن حصلت على الأجازة التي خصصت لي كمنحة _ أن أذهب إلى مسقط ، كنقطة بداية أفضلها ، لأوطن نفسي فيها بهدوء وثقة على اجتياز الصحارى ، الا أنني الآن أود أن أبدا بزيارة الأماكن المقدسة للمسلمين أو بلاد الحرمين (الشريفين) التي يدافع عنها المسلمون بحمية ويمنعون غير المسلمين من دخولها ، واني متعجل لهـــذه الزيارة وفي عز الصيف بعد أن أدت اقامتي لأربع سنين في أوروبا الي تقلت كثير من معارفي عن الشرق من ذاكـرتي ، وبعـد أن مررت بمحنة مصر بالنسبة لي عذابا) فهي بلد تتسـم مصر بالنسبة لي عذابا) فهي بلد تتسـم الشرطة فيه بالتطفل كالشرطة في روما وميلان (١) ،

وعلى أية حال ، فلأن الجمعية الجغرافية الملكية قد زودتنى - بسخاء - بما يتيح لى السفر ، ولأننى سئمت « التقدم » و « الحصارة » فى أوروبا ، ولمنهمى لأن أرى بعينى ما قنع الآخرون بسماعه بآذانهم ، وهو الحياة الداخلية (الحقيقية) للمسلمين فى بلادهم الأصلية (٢) ، ولمرغبتى العارمة فى أن أحث الخطى لمهذه البقاع الغامضة التى لم يقم رحالة مجاز (٣) (فى اجازة) حتى الآن بوصفها وقياسها ورسمها وتصويرها ، فقد عزمت على تقمص شخصيتى القديمة كدرويش فارسى ، وأن أحاول •

لقد كان الهدف الأول الذى راودنى هو عبور الجانب غير المعروف من شبه الجزيرة العربية فى خط مباشر من المدينة (المنورة) الى مسقط ، أو أن أعبرها قطريا بميل من مكة (المكرمة) الى المكلا Makalla على ساحل المحيط الهندى ، أى نحس عائد تنفيذ خططى ؟! سيكتشف القارىء ذلك بين ثنايا هذين الجزءين ، أما أهدافي الثانوية فكانت متعددة ، فقيد

⁽۱) يتحدث بيرتونعن الشرطة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفد تطورت شعارات المشرطة المصرية بعد ذلك تطورا كبيرا واصبح شعارها الآن (الشرطة في خدمة الشعب) • (المترجم) •

⁽٢) في الأصل : بلادهم الحقيقية realy وفضلنا ما اوردناه في المتن لقربه من المعنى المقصود • (المترجم) •

⁽٣) بيرتون شفوف بالباهاة غليس هو أول من زار الحجاز ، غقد زارها قبله غارتيما ، وجوذيف بتس وعلى بك العباسي وبوركهارت (١٨١٨س١٨١٨) بصرف النظر عن الاجازة ، (المترجم)

كنت راغبا في اكتشاف امكانية افتتاح أي سوق للخيول بين وسط شبه الجزيرة العربية والهند ، فقد كان شمة استياء عام من المستوى المتحدني للأفراس سواء أفراس السباق أو آفراس الاستيلاد

كما كان من اهدافي جمع معلومات عن الربع الخالي لندرجها في خرائطنا ، وكذلك البحث في هيدروجرافية الحجاز (علم مصادر المياه ووصفها) من حيث تجمعات المياه الناتجة عن الأمطار ، والمنصدرات الشديدة في المنطقة ، ومعرفة ما اذا كانت هناك سيول دائمة أم لا ، وأخيرا محساولة التيقن _ بالملاحظة الفعلية _ من نظرية الكولمونيل و • سبيكس والتي مؤداها أنه اذا كان ما يتداوله الناس جيلا بعد Sykes جيل صحيحا _ فلابد من وجود فروق فسيولوجية غير قليلة بين ســكان شبه الجزيرة العربية المترامية الأطراف ، مما يحفزنا لملتثبت من القضية التي نهتم بها عن الأصول العامة للعرب (٤) ١٠ما فيما يتعلق بالخيــول فاننى مقتنع انه يمكن عمل شيء ما في منطقة الساحل الشرقي لمشبه الجزيرة العربية ، وليس من شيء يمكننا عمله _ في هذا الصدد _ في الساحل الغربى حيث الخيول ـ رغم اصالتها ـ مجرد كائنات غير صالحة للاستيلاد واسعارها مرتبكة ولا يتيسر الحصول عليها الا مصادفة (٥) ٠ وقد سمعت عن منطقة الربع الخالى بما فيه الكفاية من رواة ثقات ما يفيد أنها منطقة ذات أبعاد مروعة ، وأنها تعج باعداد كبيرة من السكان نصف الجدوعي ، وتسود فيها الوديان والأخاديد والوهاد (أو المسيلات وهي وديان صغيرة ضيقة شديدة الانحدار) _ وهي في مجملها خصبة على نحو ما بفعــل السيول التي تجتاحها بين الحين والحين • ونخلص من هذا الى أن منطقة الربع الخالي منطقة مفتوحة (متاحة) للرحالة المغامرين • واكثر من هذا فاننى مقتنع أن شبه الجزيرة العربية التي تسلسود فيها المجارى المائية الصغيرة المنحدرة من التـــلال ـ على عكس ما ذكره الجغرافيون منـــذ

⁽³⁾ في الأصل The arab family وقد آثرنا ما أوردناه في المتن حتى لا يختلط المعنى (المترجم) . ,

⁽٥) حظى موضوع الخيول العربية بالمتمام بالغ من كل الرحالة الاجانب منذ مطلع التاريخ ، لمغارتيما خصص جانبا من رحلته (١٥٠٣) لمتابعة سلالات الخيل والتدريب عليها ، اما بلى الذي زار شبه الجزيرة العربية في سنة ١٨٦٥ ؛ فقد الهرد ملحقا كاملا عن الخيل بالاضافة لاشاراته المختلفة لها من ثنايا رحلته · ومن المفهوم أن الاهتمام بالخيل يقل لدى رحالة القرن العشرين لتضاؤل قيمتها تدريجيا في الحروب ، وأن كان من الملاحظ أن مشاهير الجواسيس الدين كشف أمرهم في القرن العشرين في منطقتنا كانوا يدمون (هواية) تربية المخيول وذلك ليجدوا جانبا مشتركا أو ارضية مشتركة بيده، وبين العرب الذين لا يزالون و يحبون ، الخيول والصقور · (المترجم) ·

بطليموس (٦) حتى جومارد Jomard ليس بها سيل (٧) (مجرى مائى) دائم واحد يستحق ان نطلق عليه نهرا · كما أن الشحواهد الني ساقها لى أهل البلاد تدفعنى الى الظن أن شبه جزيرة العرب تنحدر حسوب المجنوب (٨) وليس المعكس ، وأنا في ظنى هذا متذق مع هالن Wallin ومخالف لريتر Ritter وآخرين · وأخيرا فقد وجدت الدليل الدنى يجعلنا نعتقد بوجود ثلاثة أجناس محددة في شبه الجزيرة العربية :

ا البيلاد الأصليون ، ويمكن مقارنتهم بجماعات البيل Bhils وغيرهم من الهنود الأصليين ـ ويقطنون في الصحاري الشرقية والجنوبية المتاخمة للمحيط .

لسوريون أو العراقيون القدماء (أهل ميزوپوتاميا) الدين وصف شم Shem وجوكتان Joktan خصائصهم الأساسية ، وقد أزاح هؤلاء السوريون أو العراقيون أهلل البلاد الأصليين من أماكنهم الأثيرة ، ولا يزأل هؤلاء المغزاة (المفاتحون) يستمتعون بما استولوا عليم متمشلا في شعب شبه الجزيرة العربية العظيم (٩) .

٣ ــ العشائر الشامية السورية الخلطة ونحن نمثلها بذرية اسماعيل
 (عليه السلام) وذرية ابنه نبوغث Napagoth وذرية Edom (عيص ابن اسحق Tsaac) الذين سكنوا ــ ولا زالوا ــ شــبه جزيرة ســيناء ٠

وفى معظم الأماكن ، بل وحتى فى قلب مكة المكرمة ذاتها ، تتابلت مع بعض الوثنيين الذين كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد منهم

⁽٦) بطليموس عالم فلك وجغرافيا سطع جنمه في الاسكندرية ١٩٧١ــ١٥١م ، ولا علاقة للبطليموس هذا بالبطالة أو البطالسة الذي حكموا مصر في الفترة ٣٢٣ ــ ٣٠ ق٠م . (المترجم) .

⁽٧) يطلق أهل الجزيرة العربية الآن لفظ « سيل » أو « المسيل » على المجرى المائى سنواء أكان عامرا بالماء بعد هطول المطر أو بعد أن يجف ، فالمجرى (مجرد المجرى) هو سيل أو مسيل ، أما عملية هطول الأمطار وتحولها الى سيل أو مسيلات فيطلق عليها تقس الالفاظ ... ويتم التفريق بين المعانى المقصودة بالسياق • (المترجم) •

⁽٨) أصبح معلوما الآن أن شبه الجزيرة العربية ... بشكل عام ... تنحدر نحو المشرق والشمال الطرقى ، وأصبحت هذه معلومة مؤكدة يدرسها طلاب الجغرافيا في المدارس ، (المترجم) ،

⁽٩) ما يذكره بيرتون هنا مسائل لم تثبت تاريخيا ، وانما لا تتعدى كونها ترجيحات ، انما الثابت أن شبه الجزيرة العربية بعد الاسلام وحتى قبله كانت مركز طرد للهجرات البشرية ، لا مركز استقبال لها · (المترجم) ·

وجودهم أصلا، فهؤلاء الموثنيون لا زالوا كثيسرين (١٠)، وقد ارجعهم المراقبون الجهلاء الى أصول حديثة اعتمادا على الدلة عقلية ·

لقد توصلت الى هذه المقولة أثناء تجوالى صبيفا فى الحجاز وانها روايات شخصية وقد عملت على أن أجعل طبيعة هذه الاحاديث متفقة مع كونها «شخصية » (١١) وان كثيرين قد لا يحدون حدوى وان كان آخرون ربما يكونون شغوفين لمعرفة المعايير التى وضعتها فى اعتبارى لأظهر فجأة كرجل شرقى على مسرح الحياة الشرقية وربما يجد رحالة المستقبل فى سرد ذلك شيئا مفيدا لمهم ولا أقدم اعتذارا عما يشبه الغرور فى روايتى هذه وهؤلاء الذين شعروا بالحاجة الى «صديق صامت » يقدم لهم المنصيحة دون أن يتحتم عليهم طلبها ، سيقدرون ما قد يبدو للعيابين كثيرى النقد مجرد تدفق عقل رجل مصاب بتضخم الذات والنقد مجرد تدفق عقل رجل مصاب بتضخم الذات والمناهدة المناهدة المناهدة الناهدة المناهدة الم

في مساء الثالث من شهر أبريل سنة ١٨٥٣ غادرت لندن الى سوثامبتون Southampton ، وبناء على نصيحة الأخ الضابط الكابتن هنرى جريندلى (كولونيل آلان) في سلاح فرسان البنغال فقد تم تجهيز ملابسي الشـــرقية قبل مغادرة لندن كما تم اعطاء كل حاجياتي طابعا شرقيا تماما (لم يحكن المناصح وهو الكابتن هنرى ولا المنصوح وهو صاحب الرحلة يدركان وقتها مدى قيمة وأهمية هذه النصيحة) ، وفي بكور الصباح التالي استقل الأمير الفارسي (١٢) مصحوبا بالكابتن جريندلي الباخرة الفاخرة ذات الرفاس والموسومة باسم « البنغال » التابعة لشركة شبه الجزيرة والشرق ،

⁽۱۰) ملاحظات بيرتون هنا عن بقاء وثنيين في شبه الجزيرة العربيسة الى وقت. متاخر (القرن التاسع عشر) صحيحة فيما يبدو واكدها رحالة آخرون ومن ذلك ما ذكره ه بلى » في رحلته للرياض ١٨٦٠ (نشر جامعة الملك سعود) صرص ٤٣٠٤ : « ١٠ توجد حتى الآن (١٨٦٠) كهوف منحوتة في جبل طريق ١٠ هي بمثاية معابد لدين قديم ١٠ وظل المل المكان يوقرون هذه المعابد ١٠ ونجد أن آل مرة في الجنوب لم يتحولوا للاسلام الا منذ وقت قريب » لكن بعد ظهور الدعوة السلفية بدأت هذه الجيوب الوثنية ـ التي عمرت طويلا مستغلة اتساع شبه الجزيرة العربية وكثرة شعابها ووهادها ـ تتلاشي تدريجيا ١٠ (المترجم) ١٠

⁽۱۱) من الواضع أن بيرتوني بؤكيم هناها أن ما ذكره من معلومات سابقة ليست مؤكدة وانعا هي معلومات شخصية جمعها دون التنبيت منها • المقصود هنا معلوماته عن اصول سكان شبه الجزيرة العربية • (المترجم) •

⁽۱۲) يقصد نفسه ، (المترجم) ،

لقد قضيت أربع عشرة ليلة مفيدة في التالف مع العادات الشرقية ، لان ما قاله السيد شستر فيلد Chesterfield المهذب عن الاختسلاف بين المشخص ونقيضه يمكن أن ينطبق بشكل ملحوظ على أحوال الرجل المشرقى من ناحية والرجل الغربي من ناحية أخرى ، فقد يؤدى كلا الرجلين العمل نفسه أو يوديا المدور نفسه في الحياة ، لكن طريقة أداء كل منهما تختلف اختلافا واضحا جدا ٠ انظس _ على سبيل المثال للمسلم الهندى وهسو يشرب كتوب ماء ٠ ان شرب كوب ماء بالنسبة لنا في أوروبا مسالة بسيطة في الغاية من البساطة ، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسلم الهندي ، انها عملية بالنسبة له تشتمل على ما لا يقل عن خمسة أمور غير مألوفة لنا • فبادىء ذى بدء نجده يقبض على كوبه قبضاً غليظا كما لو كان يقبض على رقبة عدوه ، ثم يقول بقوة : « بسم الله المرحمن المرحيم » قبل أن يبلل شفتيه، ثم يشرب الماء مبتلعا اياه ولا يرشفه رشفا كما ينبغى أن يكون الشرب ، ثم ينهى شربه بأن يتجشأ تجشؤ (١٣) الرضى ، ثم انه قبل أن يضع الكوب يتنهد قائلا: « المحمد لله » ، وعليك أن تدرك أن لهذه الكلمات معنى عميقا في المصحراء ، وخامسا فانه يجيب صديقه الذي يقول له : « هنينًا » بقوله : « هناك الله » كما أنه _ أى شارب الماء _ يكون حريصا على تجنب الأمور التى حرمها الشرع عند الشرب فهو لا يشرب واقفا الا عند الاستثناءات التى حددها الشرع وهي شرب ماء زمزم ، والشرب من ماء الصدقة ، وشرب الماء المتبقى من الوضوء (١٤) ، وأكثر من هذا فان اليدين (اليمين والشمال) .تستخدمان في أوروبا دون تمييز ، أما في العالم الاسسلامي فيجب أن يستعمل الانسان يده اليمني في الامساك بالمسباح وشرب الماء ، وقد ينسى الأوربي وهو يتقمص دور الرجل الشرقي فيسيء استعمال الكرسي ، فالرجل الشرقى القح يضم ساقيه بعد ثنيهما ، ويبدو دائما مرتاحا مى جلسته . هذه كانه بمان على ظهر حصان يجرى خببا ، ويمد اصابعه للامام وينظس نظرة رزيئة ، وعادة ما ينطق فجاة بعبارات دينية •

ان رحلتنا فوق و بحر الصيف » كانت بلا جدوى ، ففى سفينة بخارية حمولتها الفان أو ثلاثة آلاف طن تكتشف أن ما كان مرهوبا قد غدا تأفها مالوفا فلم يكن امامن سوى الأمواج الماتية ، ولم يكن امامى من انجساز سوى أن أجلس جلسة مزعجة متمثلا قول الشاعر :

⁽١٣) استخدم بيرترن لفظ grunt بيمير المقرير (القباع) وقد الشرناء عن المنزير (القباع) وقد الشرناء عن المنزيد (المترجم) •

⁽١٤) هذه « عادات » وليست بالممرورة من الشرع أما البسملة في البداية و « الحمد » في النهاية فمن السنة المحمومة • (المترجم) •

There we lay

All the day

in the Bay of Biscay

فهناك نتمدد ، طوال النهار ، عند خليج بسكاى

فمنظر الطرف الأغر ذي الروعة لا يثير أيا من المشاعر العاطفية التي جرت العادة أن تكون (أي هذه المشاعر) مفرجا يفرجنا من حسالة الرتابة التي يسببها الابحار الممل • فريما كانت هذه المنطقة معروفة لك بفضل ثيوفيل جوتير Gautier واليوت واربيرتون سفينتك تحت الصخرة التي تتسع بالمكاد لجلوسك وتناولك الافطار ١٠ امسا اذا أبحرت الى مالطة وجدتها هي الأخرى ترتدى وجها مالوفا (ليس فيه ما يثير) مما يجعلك تأمر باحضار الغداء وتشرف على تبريد الخمسر (الذي يمثل بداية البربرية الشرقية) ، فهذا الفضل من العدو على ظهر حمار في جو لاهب في ذكرى القـــديس بول وفرسان الصليب الأبيض • ورغم أن رحلتنا البحرية كانت مملة ، فلم يكن هناك ما يدعدو للشكوى فقد كانت السفينة مريحة على أية حال ، وكان الطباخ جيدا ومن الغريب أن يقال ذلك ، واستمرت الرحلة فترة طويلة لكنها لم تكن ممعنسة في طولها • وفي مساء اليوم الثـالث عشر من بداية رحلتنا قام مرشد السفينة ذو السروال الواسع والذى كان خفيف الظل رغم تشوه منظسره _ من وجهة نظر اوربية _ قام بواجبه ، ورست السفينة « البنغــال » ذات الرقاص في مرسى رأس الطين (١٥) ٠

ولأننى كنت مدعوا كى أبدأ من منزل صديق رقيق هسو جون و الاركنج Larking فقد هبطت معه من السفينة وابتهجت ابتهاجا شديدا أن أرى اننى بيفضل الملحية والرأس المحليق سقد نجحت نجاح لمورد جيش Geesh في ابعاد تطفل العامة عنى وقد سسمعت أحد المسلمين يهمس قائلا: « الحمد لله »عند نزوله من السفينة ، وعند قطيع المقتشين المختلفين الذين مررنا أمامهم للتفتيش في المرفأ سسمعنا مسلما يتمتم قائلا: « الحمد لله » وراح الصبية يستعطفونني باغراقي بالمديح الذي عادة ما يوجهونه لذوى القبعات ، وعندما استنتج ولد صغير أن الفرصة قسد جانت ابسط اليد بالكرم تطلع في وجهى وهتف قائلا: « بقشيش » فالقمته

⁽١٥) المقصود رأس التين وما ذكره بيرتون mud هو الاسم الأصلى ، ثم حرفه الناس و الى رأس التين » ريما تيمنا (المترجم) .

الرد قائلا: « مفيش » مما أقنع الذين سمعوا الحوار أن فرو الخسروف قد غطى خروفا حقيقيا (١٦) ، ثم ركبنا بعد ذلك عربة وشققنا طريقنا بين الحمير ، فوجدنا أنفسنا في غضون نصف الساعة والشيبوك (الشيشة) في أفواهنا ، وفناجين القهوة في أيدينا ، ونحن جلوس في ديوان منزل صديقي المضياف لارنج ،

ما أعجب هذا التناقض بين السفينة التي أقلتنا الى رأس الطين ، وتلك الفيلا على ترعة المحمودية ؟! ففي هذه الفيلا تتمثل النقلة الفجائية بين الحياة ذات الايقاع السريع ، والحياة ذات الايقاع البطيء ، ففي ثلاثة عشر يوما انتقلنا من ضباب بارد رمادي دبق هو مناخ الصاناعة الذي يجعلنا على شفا جزيرة الكائن الحي (نحيا بالكاد) ، الى أفضل هاو يزفه لنا البحر المتوسط بزرقته الرائعة وضبابه الرقيق الأرجواني اللذي ينشر فتنته وجماله حتى على الملامح الشمطاء للشمال الافريقي ، وها نحن الآن نجلس صامتين بلا حراك نستمع الى الحان الشرق الرتيبة ، ونسائم الليل الرقيقة الباردة تمر عبر سماوات متلائلة بالنجوم وعبر اشجار مورقة فتحدث حفيفا يثير الأشجان ،

هذا هو المزاج (الكيف) Kayf العربي · الرائحة المنبعثـــة من الحيوانات ، والسعادة الحقيقية في المعانى المجردة ، والكسل المصحوب بالسرور ، والسكون الحالم وبناء القلاع في الهواء (أحلام اليقظة) ، كل هذا يغنى في آسيا عن الحياة الخصبة المتاججة في أوروبا • وذلك نتيجة طبيعة المشرق الحيوية والهائجة ونتيجة الأعصاب المرهفة ، مما يؤدى الى القدرة على ابهاج الحواس ، ومثل ذلك لا تعرفه المناطق الشمالية حيث السعادة هي استثمار القوى الفعلية والحسية وحيث « الرزين هو الحي Ernst ist das leben » وحيث الأرض غير المعطاءة تتطلب كدها دائم العرق وحيث الهواء البارد الذي يبعث على القشعريرة ، فكل ذلك يبعث على العمل والتغيير والمغامرة والانفاق ، ابتغاء الوصول لما هو افضل . وفى الشرق لا يبتغى الشخص سوى الراحة والظل عند مجرى جــدول رقراق أو تحت عريشة ذات ظل ظليل لشجرة مزهــرة ، يدخن الشيشة أو يرتشف فنجانا من القهوة أو يشرب كوبا من « الشربات » ، والأهم من كل ذلك أن يريح بدنه ويعطل عقله بقدر الامكان • فما تسليبه المناقشات من ازعاج ، واعمال الذاكرة لتذكر ما هو غير سار ، وارهاق العقل بالتفكير كل هذا من اكثر الأمور التي تعكر مزاج الشرقي وتفسد كيفه his kayf .

⁽١٦) المقصود أن تنكره قد نجح ، (المترجم) ،

فلا عجب اذن أن مصطلح (الكيف) لا يمكن ترجمته الى ننتنا الانجليزية ! دعني استشهد بهذا القول اللاتيني ·

Laudabunt alii Claram Rhoden our Mytelenen.

ثم دع الآخرين يصفون لك الاسكندرية التي كانت ذات يوم عاصسمة مصر المشهورة انها مدينة «مقلوب كيانها» (١٧) فصخورها التي يفترض انها جافة دائما مبتلة ، ونافوراتها التي يفترض انها عامرة بالمياه دائمسا جافة ، ومسلة كليوباترا لا هي مسلة ، ولا علاقة لها بكليوباترا وعمسود بمباي لا علاقة له البتة بمدينة بمباي ، وحمسامات كليسوباترا مكان لا حمامات فيه على الاطلاق وفقا لما يقوله الرحالة الثقات ، حتى بالنسبة للحي الليبي على أيامنا وهو مكان رائع فهو رغم روعته يعد مركزا حضاريا مقاما على قاعدة بربرية (غيسر متحضرة) وها هي أوزوريس جالسة جنبا الي جنب مع Typhon عدوها اللدود القديم • فلا زال قولا صحيحا ذلك الذي مؤداه : « الأيام حبلي بالمفاجآت » • والاسكندرية التي كانت موضوعا مبتذلا على أيام برؤس Bruce لا زالت حتى الأن سببب تغيراتها الدائمة سموضوعا مناسبا لوصف جديد ،

كانت أفضل طريقة لكف عيون الخدم والزوار المتطفلة ، هو ما قام به صديقى لاركنج Larking ان أسكننى فى مبنى ملحق بغيلته حتى اتمكن من المتصرف بحرية كاملة وفق أسلوب حياتى وعاداتى ورغم أن أحد المرشدين الأرمن ـ وهو جاسوس لا يهمد ولا يكل كسائر أبناء جنسه ـ كان فى المناسبات بلاحظنى قائلا :

« مذا رجل يتمتع بحرية كاملة » Voila un person diablement dégagé

فليس من احد ادرك اية فكرة عن الدور الذي كذت المعبه خلا الذين كانوا مطلعين على السر من البداية ، فالخدم وهم من المسلمين الاتقيساء كانوا يسمونني « العجمي » ، والعجم اتباع احد المذاهب الاسلامية لا ينظر لهم اهل السنة كمسلمين على السراط المستقيم كنظرتهم لأنفسهم ، لكن هذا بالنسبة لي على اية حال الفضل من لا شيء ، ولم أضع وقتا فسعيت لتامين مساعدة احد الشيوخ وشرعت مرة أخرى في الدخول في تفاصيل العقيدة والشريعة فانعشت ذاكرتي بمعلومات عن الطهارة والوضوء ، وقرات القرآن

⁽۱۷) النص The City of Misnomers أى المدينة ذات الاسماء المغلوطة ووجدنا أن التعبير الذي أوردناه في المتن يؤدى المعنى أكثر (المترجم)

(الكريم) وأصبحت خبيرا بمواضع السجود • وكنت أقضى أوقات فراغى في التردد على الحمامات والمقاهى والأسواق لشراء ما أحتاجه •

وعملية الشراء في هذا البلد تحتاج الى صبر فهى تعنى الجالوس على دكه المتاجر والتدخين واحتساء المقهوة ، وامرار حبات السبحة - نى كل هذه الأثناء - بين أصابعك لتظهر أنك لست عبدا ، والحقيقة أنك تفعل ذلك لتدفن صبرك وتبارى به صبر عدوك (البائع) وكان لدى من الوقت ما يسمح بالمقيام برحلات قصيرة للريف على ضفاف ترعة المحمودية ولما أهمل رؤية النحل عندما تتاح الفرص ، فقد تنقضى بضعة أشهر قبل أن تسعد عيناى برؤية هذا المنظر الممتم مرة أخرى .

« Delicias Videam, ùile Jocose, tuas !

ولحرصى على الاهتمام بالأمور الجادة فقد ترددت على المسلمون وزرت الأولياء الذين تكثر مزاراتهم بالاسكندرية والحجاج المسلمون هنا يزورون قبر النبى دانيال Daniel الذي تم اكتشافه فوق بقعة رأى السلطان الراحل محمود في منامه رجلا من عصور قديمة يصلى فيها، والاسكندر الرومي وهو الاسكندر الأكبر المسلم بطبيعة الحال قد دفنت عظامه في الموضع الذي يعرف باسمه (١٨)، أو كما لابد قد حدث فانهم وجدوا عظاما نسبوها اليه و وتتباهي الاسكندرية أنها تضم رفاة وليين مشهورين ، أحدهما هو محمد البصيري صاحب القصيدة المعروفة بالبردة التي يقرؤها المسلمون في المعالم الاسلامي كله و ويقرؤها مسلمو مصر في المتاتم وغيرها من المناسبات الدينية والثاني هو أبو العباس الأندلسي الحكيم وولى الماء الأول (١٤) فالصلاة في قبره مقبولة لا تضيع عبثا (١٩) و

ومن الطبيعى أن ينظر أهل الاسكندرية لمزجاجاتى وصناديقى ذوات الأقسام ، ولعابهم يسيل بغية الحصول على محتوياتها • ولما كان الطبيب الهندى بدعا غير مالوف لديهم ، فهم يحتقرون الإفرنجى الا أذا كان قسد جاب الآفاق (شرق وغرب) • أن شخصية السساحر ، وشخصية الطبيب وشخصية الفقير ، كلا على حدة ينقصها الكثير ، وإن كانت كل منها مثيرة للعجب في حد ذاتها • ألا أن هذه الشخصيات أذا تضسافرت جعلت من صاحبها « طبيبا عظيما » ، فالرجال والنساء والأطفسال حاصروا بابى ،

⁽١٨) يردد بيرتون هنا ما يسمعه من خرافات ، وليس ما يذكره صحيحا بالممرورة وانما يشير للفكر الشعبى السائد ، ولا علاقة لملاسكندر ذى القرنين وهو المقصود منا بالاسكندرية ، لكن الاسكندر الاكبر الاغريقى المعروف هو الذى يرجح المؤرخون دفنه بالاسكندرية ، (المترجم) :

⁽١٩) لا يوافق المسلمون السنة والمثقفون بشكل عام على ذلك ، فالرحال لا تشد الا للمسجد الحرام ومسجد الرسول ، والمسجد الاقصى كما هو معروف (المترجم) ،

فامكننى بذلك أن اتصفح وجوه الناس ، وجها وجها ، خاصة وجوه الجنس اللطيف ، فالأوربيون لا يعرفون - بشكل عام - منها إلا أسوا إلنمانح بل ان المحترمين من أهل البلاد بعد أن شهبوا عملية « المندل » إهmandal أو المراة السحرية مال رأيهم الى أن ذلك الغريب ، ما هو الا ولى من أولياء الله الصالحين ، قد منحه الله قوة خارقة ، فقد أرسل لى أحد كبار السن يعرض على ابنته لأتزوجها ، ولم يشر لمهر يتحتم على دفعه ، ووجدت من الأسلم أن اتنازل عن هذا الشرف • كما أن سيدة متوسطة العمر عرضت على مأنة قرش - وهو مبلغ يساوى حوالى الجنيه الاسترليني - اذا بقيت في الاسكندرية وأشرفت على علاجها لاعادة البصر لعينها اليمني •

ولا يظنن القارىء أننى أمارس « القرابين Carabin » «والسنجراد » عبثاً بغير علم ، فالمقيقة اننى كنت هاويا للدراسات « Sangrado الطبية والدراسات في مجال الغيبيات والتصوف منذ أيام شببابي ٠ وبالاضافة لهذا فعمارسة الطب بين سكان العسروض الحسارة (المناطق الحارة) والشعوب غير المتحضرة ، مسالمة سيهلة نسبيا لأن الأمراض التي تصبيبهم أقل تعقيدا من الأمراض التي تصبيب الدول المتقدمة • واكثر من هذا فان ما يجعل عملية معالجة المريض مسالة هيئة تماما في هذه الأنجاء ... هو الدورة المؤكدة للمرض (التتابع الدورى لطواهره) فكثير من الأمراض في المناخ المدارى - كما يعرف الأطباء جيدا تظهر لها - برضوح - اعراض متقطعة غير معروفة كثيرا في المناطق الأكثر برودة، ويمكننى أن اؤكد _ من منطلق خبرتى الشخصية _ أن ظاهرة الأعراض المتقطعة (غير الستمرة) تتجلى في كل المحالات بدءا من آلام المجسروح حتى الرمد . وظاهرة تقطع الظاهرة المرضية هذه طريق للاعتذار أو السماح (ان فشمل العلاج) • آلذلك فقد وطنت نفسى ان أكون طبيبا محترفا كما لو كنت حاصلا على دبلوما buono per l'estero من بادوا لا أن أكون أكثر رغبة في أحداث جروح غائرة من معظم الجراحين الشبان الذين درسوا الطب دراسة نظامية ، وقد « انتهوا » قبل أن يبدءوا لأنهم صبوا النفسهم في قالب جامد كالعساكر البريطانيين ٠

وبعد شهر من المعمل الشاق في الاستكدارية اتخذت إستعدادي التقمص شخية درويش متجول بعد أن غيرت لقبى من ميرزا Mirza الى الشيخ عبد الله ، فقد ادرجتى احد الرجال المبروكين الذي لم اهتم بتدوين اسمه منذ فترة من طريقته الصوفية وهي المطريقة القادرية مدشنا انضمامي بالكلمة المجليلة « بسم الله ما شاه » (٢٠) وبعد فترة

⁽۲۰) اسقط الآن اصحاب المطرق الصديقية الالفاظ الفارسية من اورادهم وملقوسهم ، لكن المبات بيرتون وغيره لها ، ربما يؤكد تأثيرات شيعية او فارسية على المطرق المدولية لمي العالم العربي ... وهذه مقيقة مهمة لها ابعادها ... (المترجم)

تدقيق واختيار رقائي الى درجة رفيعة في المطريقة (طريقة القادرية) هى درجة المرشد • وبذلك أصبحت عارفا بدرجة كافية بعقائد تهذه الطريقة الشرقية وممارساتها • وليس هناك شخصية في العالم الاسلامي ملائمة تماما للتنكر من شخصية الدرويش ، فهي شخصية تتقمصها كل الطبقات وكل الأعمار وكل المذاهب · يتقمصها الشخص ذو المقام الرفيع الذي يتعرض للخزي في مجالس الحاشية ، ويتقمصها الفلاح الذي وصل مستواه للحضيض ، ويتقمصها (الصايع) الذي أرهقته الحياة ، ويتقمصها المبتلى بمرض بغيض والذين يتسولون رغيف المخبز من باب الى باب ٠ وأكثر من هذا فالدرويش يحل له مالا يحل لغيره ، فمن المسموح له أن يتخطى قواعد الملياقة والأدب باعتباره شخصا لميس من اهل الدني--ا (تخلى عن الدنيا وما فيها) فقد يصلى وقد يمتنع عن الصلاة ، وقد یتزوج او یبقی عزبا کما پشتهی ویهاوی وهو محترم ساواء ارندی ثيابا من صوف غليظ أو ثيابا موشاة بالذهب ، فسلا احسد يسال هدا (المتشرد ذا الحصانة) لم يأتى هذا ؟ أو لم يذهب هناك ؟ وقد يقطـع طريقه وحيدا سائرا على قدميه ، وقد يركب بغلة عربية يتبعها اثنا عشر خادما . وهو يبعث على المرهبة دون أن يحمل سلاحا ، وقد يختال في الطرقات مدججا بالسلاح • فهو أعلى الناس مقاما وأكثرهم اتساءا بالمعدوانية ، وهو يحظى باحترام من المناس أكثر مما يحظى به الاخرون ٠ وهذه المزايا مطلوبة للرحالة ذي المزاج الحاد ، ففي ساعة الخطر الوشيك ما عليه الا أن يصبح ممسوسا (به جنة) فيصبح آمنا ، فالمجنون في بلاد الشرق يشبه الشخصية غريبة الأطوار في بلاد الغرب ، اذ يسمح له أن يقول أو أن يفعمل مما تمليه عليه الأرواح • فاذا أضفت الى شخصية الدرويش قليلا من المعلومات الطبية ومهارة متوسطة في المسحر ، وشهرة بأن همك الوحيد هو قراءة الكتب ، بالاضافة الى رأسمال كاف لينقدك من الموت جوعا ـ فانك بذلك تصبح ذا مزايا خاصة في بلاد الشرق ٠

والخطر الوحيد في الاندماج في سلك الطرق الصوفية هو أن ثياب الدرويش المزقة لا تغطى تماما العورة (٢١) ، فاذا حوصرت في جماعة من مثل هؤلاء د الاخوة » فقد تصبح على كره منك شريكه « تحت المعصا

⁽۲۱) استخدم بيرتون الاسم الشعبى المباشر للعورة Cut-thorut ويعنى حرفيا « الزغيم » (بضم الزاى وتشديدها وفتح الغين وتسكين الياء) وهو طائر احمر صعير ، كما تعنى السفاح • غريب أمر الفكر الشعبى فهو يتشابه في نقاط بعينها في كل مكان ، فهذا الشيء نفسه يسمى في مصر « حمامة » أما في شبه الجزيرة العربية فيسمونه « بلبلا » • أنه طائر في كل الأحوال - (المترجم) •

أو فوق الوتد » (٢٢) لأنه من المعلوم أن الدراويش على نوعين : الدراويش الشرعيون أى الذين ينفذون تعاليم المدين ، والدراويش اللوطيسون للمنز Or Bi-sharai ويشيرون لممارساتهم باشاراة باطنية مؤداها « أننا وهو » مظهر لشيء واحد ، وقد حدث وانضممت اليهم لفترة اسبوع وفي نهاية هذه المدة غادرتهم وأنا في حالة رعب وتقزز وعدت من حيث أتيت .

⁽٢٢) المعنى الدال على الانحراف والهمج من خلال هذه الكناية القوية التي ساتها بيرتون • (المترجم) •



الفصل الثاني

مغادرة الاسكندرية

المتكيف وخواص الرحالة البارع ـ مشاكل الجوازات ـ المقواس ـ الرشوة ـ الرأى في تحصر مصر ـ النشالون ـ الموظف الشرقي ·

اقترح ان تكون خصائص الرحالة البارع ، موضوعا لما يطلق عليه علماء فراسة الدماغ « القدرة على المتآلف » « واكتساب الصفات المحلية » وقد تطورت دراسة هذين الموضوعين معلى نحو سواء مواتسعت و فبعد مسير طويل وشاق نوعا ما ، وبسبب وعثاء السفر ميلتى الرحالة بنفسه في اقرب مكان للراحة ليبدو كواحد من اهل البلاد ويدخن لفترة الشيشة (المغليون المعجمي) بتلذد لا حد له ، وينعم باكثر من قيلولة أثناء النهار ، وينخرط في نوم عميق ليلا وينعم بالغداء في الموقت المحدد له ويعجب للأشياء المخالفة للعقل ، فليس لديه طريق آخر يتسلى به من ثرثرة أو القاصيص أو صحف ولكن سرعان ما تمر نوبة المتاثر فتشتت وطأة السأم ويمر الوقت وثيدا ويفقد المساقر شهيته ويمشي حول غرفته ليلا ويتثاءب المحوار معه ، ويكون تأثير المكتساب عليه كتأثير المخدر و فالرجل (الرحالة) يريد أن يتجول ، ولا بد له من ذلك ، والا فانه سيموت كمدا و (الرحالة) يريد أن يتجول ، ولا بد له من ذلك ، والا فانه سيموت كمدا و

وبعد حوالى شهر قضيته فى الاسكندرية بسعادة فائقة ، أدركت اقتراب العدو (*) فأستسلمت فلا شىء يعوق غدوى ورواحى لقد كان العالم كله أمامى ، وكان ثمة اثارة لذيدة فى أن أغمس يدى فى أعماقه الفاترة وكان شيخى السكندرى ـ الذى وقع ضحية اعجابه « بجبة » جديدة حصل عليها مقابل « زعبوطه » البالى الذى قدمه لى بسبب راتب شهرى كنت أقدمه له رمزا للأخوة فى الله ـ قد اقترح على أن يرسمل زوجته لابيها وأن يصحبنى الى آخر العالم بكل قواه ، كما يفعل القس الخاص (المرافق لشخص ما) وقد قبلت بادب « زعبوطه » لمكن أسبابا عمديدة دفعتنى لرفض معجبته وخدماته ، ففى المقام الأول الله كان يتحدث بلهجة

^(*) يقمد وقت الرحيل غالبا _ (المترجم) .

مصرية بغيضة ، وثانيا أنه عاقل متدبر (١) لدرجة أنه لا يعرف الطريق من القاهرة للسويس ، وثالثا فقد كان « أخى فى الطريقة ذا عينين متحولتين (من مظاهر التقلب) يغلقهما معا (دلالة المكر والدهاء) وله متحولتين (من مظاهر التقلب) يغلقهما معا (دلالة المكر والدهاء) ولمه رأس مسطح من أعلاه ، ولمه شفتان ممتلئتان غير متناسبتين ، وعلامات أخرى أدت بى الى الشك فى أمانته وجديته وشجاعته (٢) ، ان علم فراسة الدماغ وعلم التثريج (الفسيولوجيا) ـ كما هو ملاحظ ـ يخيبان أملك غالبا اذا طبقتها بين الشعوب المتحضرة لأن الطبائع البشرية فى هذه الشعوب المتحضرة قد صقلت تحت ضغط التربية والحدوادث والخبرة والعادات والمحرورة ، الا ان علم فراسة الدماغ وعلم التشريح يشيران بوضوح ويدلان دون خطأ عند تطبيقهما على انسان الشعوب التي لاتزال تعيش على الفطرة أو على الانسان الذي يتحرف باندفاع ، أو الذي تحركه الغريرة أكثر مما يحركه العقل ، أو الذي يكون عي مرحلة تطورية تماثل مرحلة الخادرة (الحشرة في الدور الذي يعقب الميرقانة) .

وعلى اية حال فقد كان على أن اقوم بأعمال كثيرة قبل مغادرتي الاسكندرية ، فأرض الفراعنة تصبح الآن متحضرة ، وهذا مما يؤسف لمه فلا شيء يمكن أن يجلب المقلق سوى وضعها الوسطى هذا ، فهي عوان بين التخلف والتحضر ، فحظر حمل السلاح صارم كما هو في ايطاليا ، وتتم مواجهة « المعنف » بالمعنف بما في ذلك قطيع الرقبة وهو اجراء قاس ، ومعظم المجرائم الشنيعة ـ مثلها في ذلك مثل الاعتراضات السياسية البسيطة ، والتي كانت - الجرائم والاعتراضات - تؤدى أيام المماليك الى البكوية أو وتر القوس ، أصبحت الآن تواجه بعقاب أكبر أضعافا مضاعفة بالترحيل الى فايزوغلو Fayzoghlu • واذا أمرت بضرب فلاحك بالسياط تجمع أصدقاؤه بالمئات مهددين عند بابك ، وعندما تشتم صاحب المقارب الذي استأجرته يشكوك لمقنصل بلادك ، والمرشدون يؤثرون فيك بما يقولونه بشكل فج عن الأمانة ، وأوامر المحكومة تمنعك من استخدام لغة السباب مع أهل البلاد بشكل عام ، والصبية الأشقياء مطلعون على حق الانسان في أن يبقى بعيدا عن الفلكة • ومع هذا فلا زالت المضميرة القديمة كامنة في الملاشعور Still the old leaven remains behind . وهنا ـ كما في كل مكان من « أرض الصـــباع » لا تســـتطيع أن تحصــل على حقك دون استعمال العنف the Voie de fait • ونظام جوازات السفر

⁽١) السخرية وإضحة ٠ (المترجم) ٠

 ⁽٢) الربط بين شكل الدماغ أو الملامع والتكوين الجسمى من ناحية والصفات النفسية والخلقية من ناحية أخرى ، من النظريات التى شاعت فى القرن ١٩ ، ولم تعد هذه النظريات علمية تماما الان • (المترجم) •

الذى ينقرض الآن في أوروبا - يبعث من جديد في مصر ويتم تطبيقه بحماس زائد • ولازلنا لا نملك شيئا سوى النواح على مساوىء هذا النظام فندن ، وأعنى بقولى ندن : الشرقيين الحقيقيين والغرباء حتى الذين اشتعلت لحاهم شيبا - لا ندري شيئا البتة عما لا بد أن يعاني منه أهسل البلاد ذوو الحظ المعاثر ، لذا فاننى أجد اغراء يحفزني على اضافة موجز عن مغامراتي بحثا عن التذكرة أو جواز السفر في الاسكندرية • ورغمم المجهل الذي كلفني كثيرا الا أن « وزن » الصديق لارنج larng مع السلطات المحلية قد حل لي بعض المشاكل ، فقد اهملت أن أحصل في انجلترا على جواز سفر ، ولم يكن من اليسير تعويض ذلك رغم كل محاولات التقمص من لبس الملابس المقذرة جدا وانفاق مصاريف كئيرة والحديث بنجليزية مضعضعة (غير فصيحة) ، وقد حصلت من القنصل البريطاني في الاسكندرية على شهادة تفيد انني من الرعية الهندية البريطانية ، وأن اسمى عبد الله ، وأننى طبيب أبلغ من العمر ثلاثين عاما ، دون صفات مميزة في المعيون والأنف والوجنتين ـ أو على الأقل لم يدون شيء في الخانات الخاصة بالصفات الميزة • وقد دفعت دولارا مقابل هذه الشهادة وهذا دعني أسجل سخطي ، فبريطانيا العظمي سبيدة البحار وحاكهة سدس الجنس البشري • يتحتم أن تحصل خمسة شلنات من كل من يريد الاحتماء تحت جناحها ، فأنا لا أستطيع المحديث باسم حضارتنا الرومانية المحديثة دون أن أضع يدى في جيبي ، بالمقارة مهابتنا! ويالمسغار عظمتنا!

وجواز سفرى لا يجيز لى السفر دون توقيع المضابط المسئول كما قال لى القنصل البريطانى وفى اليوم المتالى ذهبت الى المضابط الذى احالمنى الى مدير (محافظ) الاسكندرية ، وعلى بابه تشرفت بالانتظار ثلاث ساعات على الأقل حتى تفضل كاتب أكثر رحمة باخبارى أن الجهة التى يتعين على مراجعتها هى ديوان الخارجية وهكذا ضاع اليوم التالى عبثا ، وفى صباح اليوم الثالث بدأت حكما وجهونى بالذهاب الى القصر فى رأس الطين (رأس التين) ، انه مبنى ضخم كتوقعة غير مصقولة على شكل متوازى أضلاع يضم كل المكاتب (الاقسام والادارات) فى فوضى هائلة ونظرت الى جدران الباحة الوسطى المطلية بالمطلاء الأبيض ، لقد كان ثمة وشجار قليلة عارية لفحتها الريح ، وتبدو وكانها تكافح لتبقى على قيد الحياة فى هذا الجو المترب دائما والذي يشم نارا بفعل المشمس الحارقة ،

لقد كان « القواس » (٣) وهو ضابط شرطة هو اول شخص تعاملت معه ، وكان ينعم بالبرودة في الظل ، وكان في حسالة « انسجام » تام ، وكيفه » الآسيوى على ما يرام • ولما تقدمت اليه بالشهادة القنصلية التي احملها وعرضت بايجاز طبيعة عملي وشرعت في السحوال عن الطحريق الصحيح الذي يجب أن أسلكه للحصول على التاشيرة حويبدو أنهام في الاسكندرية لا يحترمون الدراويش كثيرا كما ظهر حتى زار « الرجسل المسئول » قائلا : « ما أدرى » دون أن يحرك شيئا الا القدر اليسير من لسانه بما يكفي لاخراج الصوت .

والآن فان هناك ثلاث طرق للتعسامل مع الموظفين الأسيويين وهي الرشوة ، أو التنمر (التهديد) أو بازعاجهم والمتسابرة مثابرة لحوحة بمداومة حضورك مصحوبا بمعارفك · وهذا الأسلوب الأخير يبسرع فيسه الفقراء · وقد اعتزمت لأسباب أخرى أن أكون صحبورا ، فرحت اكرر استفسارى بالكلمات نفسها غالبا فكان الجواب الذى كنت أحصل علبه هو « رح » أو « روح أى انهب » · ، لكن المسئول الذى وجهت اليه السؤال في هذه المرة نهب بعيدا ففتح عينيه عن آخرهما ناظرا بحدة ، ولانذى ظللت واقفا اقلب الورقة في يدى ناظرا اليه بنلة والحاح فقد أتاني الجسواب بصوت عال « رح يا كلب أى انهب » ، فتلاشى الكلام القليل الذي كنت قد أعددته عن الأخوة في الاسلام ، وواجبنا نحصو مساعدة الخواننا في الدين ، فانسحبت عندئذ مبتعدا ببطء وغضب مخافة أن أتعرض المنجليزي لم يألفا ذلك ،

لقد جربت اثنتى عشرة محاولة أخرى مشوشة ، جربت مع رجسال الشرطة وسائقى الخيول والكتبة والصبية الأشقياء والأشخاص التافهين ، بلا جدوى · وأخيرا تحليت بالصبر وقدمت لأحد العساكر حفنات من دخان « تمباك » ووعدته بخمسة مليمات « نصف قرش أو تعسريفة » اذا أنهى المعاملة « الأوراق » الخاصة بى ·

وكان الرجل مشوقا للتمباك ونصف القرش ، فأخذ بيدى واستمهائى برهة وقادنى من مكان الى مكان وصعد معى السلم حتى اوقفنى فى حضرة عباس افندى نائب المدير •

⁽٣) ظل هذا المصطلح مستعملا لفترة طويلة بعد ذلك ويقول أحمد لطفى السيد في «قصة حياتي ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب وسلسلة الواجهة ووقد وقف اثنان من القراسة يحملان الكرباج والمفلقة لضرب العدد الذين يتأخر أهالي قراهم في دفع الإيجار و ، ، و (المترجم) و المناسبة الإيجار ، ، ، والمترجم)

لقد كان عباس افندى تركيا صغير السن ، له وجه كالقشدة ولحية سوداء ، وكان ملتفا ومتكورا في جلسته وفقا للجلسة التقليدية للاتراك ، وكان قابعا فوق ديوان « كذبة » مغطى بقماش الكاليكو - في آخر غرفة عارية من الأثاث ذات نوافد واسعة • ودون أن يتنازل حتى بالايماء يراسه المعلق فوق كتفيه بفتور متعجرف وادعاء للعظمة - فلم يرد على سلامي ودعائي له ، ورمقني بعينين ذابلتين وقذف في وجهي بكلهات واهنة قائلا: « مين انت » أي « من انت » وعندما سمع انذي درويش وطبيب زفر شخيرا راشحا بازدراء ، واردف متعطفا أن اذهب « تحت » - لابد ان يكون هذ التركي الضئيل عثمانيا •

وهذه الكلمة « تحت » غير كافية من الناحية الطبوغرافية لمعسريب مثلى ، وعلى اية حال فقد اكتشف اخيرا العسكري المساحب لي ان الغرفة الكائنة في مصلحة الجمارك تتشرف يحمل اسم (وزارة الخارجية) (٤) ، وعلى هذا فقد ذهبت الى حيث اشــاروا وبعد أن جلست « زوجا » من السناعات على الأقل عند باب مغلق في شمس الظهيــرة اخبروني بفظاظة جعلتني أظن أنني ارتكبت اثما ان الضابط المسئول عن القسم كان ينعم يالراحة منذ الصباح وبالتالي فلا عمل في هلك اليوم ، ووصل الرد الغاضب الأعداد كبيرة من الاناضوليين والقسرميين (من القرم) واتراك الروميللي (البلقان) الذين لا يعرفون الاستسلام ، وكاذوا أقل من الصجم العادى لأقرانهم ، وسيقانهم عارية واكتافهم عريضة واقدامهم مسحاء وقبضاتهم قرنية ، وحواجبهم سوداء ، وكانوا جبليين يدل مظهرهم على الأمانة ، وكانوا يتسكعون حاملين معهم بنادقهم الطويلة ويطغاناتهم (سيوفهم المعقوفة) مثبتة في أحزمتهم العريضة ، وأغطية رؤوسهم تتكون من الطرابيش الضخام ، وقد لفوا حولها شيلان ، لتكون عمائم متناسبة ، ويحمل الواحد منهم رداءين أو ثلاثة من القماش الفاخر فوق كتفه رغيم المحرارة الشديدة في هذا المفصل • وقد كانوا قد انتظروا مثلي عدة ساعات الكنهم لم يكونوا صبورين مثلى ازاء هذه الأحوال المخيبة للآءال فقالوا للموظف الغاضب ذي الحس المتبلد انه ورئيسه لا قيمة لهما ، انهما «زوج» من التافهين • وكانت الشتائم واللعنات التي يقعقع ون بها والمنبعثة من حناجرهم الموعرة ، وهم منفرجو الساقين المام البياب _ كأنها هـدير الوحوش ودمدمتها ، وهكذا ضاع يوم آخر بطريقة شرقية ، وفي اليسوم التالي _ على أية حال _ حصلت على الاذن _ باعتباري الدكتور عبد الله _ بزيارة ما ارغب في زيارته من اماكن مصر وان احتفظ بخنجاري ومسدساتي ٠

⁽٤) مصطلح العصر : ديوان المضارجية • (المترجم) •

والآن يتعين على أن أشرح ما دفعنى لتكبد هذه الصعاب الجمسة للمصول على جواز السفر • فمن الطبيعي أن يتساءل القارىء في بلادى لم لم تسافر باسمك الانجليزي ؟!

يرجع ذلك للسبب التالى • انه في البلاد غير المتحضرة عمدوما ، يتعين عليك اما أن تنهج النهج الذي اتبعه بروس Bruce محتفظا بالمكبرياء الرجولي ، وتنفذ ما تريد من منطلق القوة (وانت ذو يد عليا) أو أن تشدق طريقك متمعجا كاللدودة بحذر وخنوع ، وهذا يعذى في الحقيقة ان تصبح حيوانا تافها خسيسا كاشد ما تكون التفاهة والخسة ، وان تسلم نفسك لتكون عرضية للاهمال والاهانة لكن لكي تمر عبر الأراضي المقدسة فلابد لك اما أن تكون قد ولدت مسلما أو تسلم بالفعال ، وفي الحالة الأولى فان لك أن تحط من قدر نفسك كما تشاء ١٠ ما في الحالة الثانية فالطريق مهيأة لك • لكن روحى لم يكن في مقدورها أن تستسيغ أن أكون واحدا من البرم أو « البرما Burma » (٥) وهو الاسم السدى يطلق على المتحول للاسلام ، فإذا بذلك ساكون موضع شك من كثيرين ، بل وموضعا للاحتقار اذ سيختبرني كثيرون بطريقة السكوال والجكواب، ويتجنبني آخرون وسيتطوع بعضهم بتلقيني الدين أو تعليمي ، واكثر من هذا فان ذلك قد يشكل عائقا يعوق تحقيق اهدافي في الرحلة والتجهول ، فالمتصول للاسلام يراقب دائما بعيون متسائلة ، والناس لا يرحبون بتقديم معلومات لمسلم حديث الاسلام خاصة اذا كان أوروبيا ، فهم يشمكون ان تحوله للاسلام تم تظاهرا أو تحت ضغط فينظرون اليه كجاسوس ولا يدعونه يعرف عن حياتهم الا أقل قدر ممكن • ولأننى بعون من الله كنت قد عقدت العزم على السفر لشبه الجزيرة العربية ، فقد كنت راغبا في اتمام هدده الرحلة التي طال انتظارها على خير وجه بدلا من الاكتفاء بنجاح جازئي او مشكوك فيه ، لذلك لم يكن لدى خيار الا أن أظهر كمسلم بالمولد فهـــذا يعطيني وضعية محترمة ، وهذا هو السبب في تكبدى المتاعب للمصدول على التذكرة Tazkirah (جواز السيفر، باعتباري عبد الله) •

وكان على أن أتزود بضروريات معينة لازمة للطريق · وكانت هده الضروريات متعددة · حقيبة مغطاة بقماش فضى تدوى كيسا به مسواك وقطعة صابون ومشطا خشبيا ـ وليس من العظام أو ظهور السلمدف

⁽٥) لازال هذا المصطلح مستخدما في الفكر الشعبي لوصف الشخص «غير المستقيم» سواء كان ماكرا أو لئيما أو أكثر من ذلك • وبيرتون يوضح لنا هنا أصلها التاريخي واستخدامها الأول « الشخص الذي تحول للاسلام كذبا ورياء » … (المترجم) •

فهما ممنوعان من الناحية الدينية كما يقسال (٦) • وكانت الملابس التي التي اصطحبتها معى بسيطة بساطة الحاجيات الآنف ذكرها فلم تكن تزيد عن بديل أو بديلين (غيار أو غيارين) • انه لمخطأ جسيم ألا تحمل معك ملايس كافية ، والذين يسافرون كشرةيين يجب أن يكون معهم دائما حلة (ثوبا) فاخرة واحدة على الأقل لارتدائها في المناسبات المهمة ، ففي بلاد المشرق ينظرون للشخص الذي يرتدى ملابس سيئة على أنه مسكين (عالة على غيره) اذا لم يكن ينتمى الى جماعة تعطيه الحق في ان يرتدى مثل هذه الملابس ، فينظرون الميه باعتباره وغدا • والشيء الوحيد الضروري من أدوات الشراب والطعام في صندوق المسافر هو الزمزمية وهي قربه صغيرة من جلد الماعز وهي تنضح على محتوياتها من ماء وغيره فتعطيها لون صدا الحديد خاصة ان كانت جديدة • ولا ضرر من ذلك على الصحة ، رغم أنه يعطى مذاقا يستسداغ بالكاد بسبب طعم الجيلاتين المدبوغ • لقد كانت الزمزمية شبيئا ضروريا لأ تمكن من الشرب دون قدح يمكن أن يكون قد شرب منه للتو خنزير شره • وبالنسبة للوازم النوم وغيرها من الأثاث فقد كان لدى بساط عجمى خشن يصلح للاضطجاع واستخدامه كمقعد ومنضدة وسجادة صلاة ، ووسادة مغطاة بقماش قطنى وبطانية تغطيني اذا اشتد البرد وملاءة تقوم مقام المخيمة وستارة تبعد عنى المبعوض في الليالي المارة والمظلة القطنية الضخمة ذات اللون الأصفر غير الداكن والمصنوعة في بلاد الشرق وحبذا لو كانت مكسوة بالقطيفة تعد من الأشياء الأخرى المضرورية ، فليس المظل متوفرا دائما • وكان لدى عيضا علبة لأدوات المحياكة ، وهي من الأشبياء المضرورية وكانت قد أهدتني اياها قريبة لى رقيقة مى الآنسة اليزابيث ستسد ، وكانت عبارة عن لغة من نسسيج غليظ متباعد (كنفا) محكم وزخرفت بالابر والخيوط واستخدم في عملها شمع الاسكافيين والأزرار وما شاكل ذلك ٠ ان هذه الأشياء من أكثر الأشياء فائدة في بلاد قد لا يوجد بها حائكون ، بالاضافة الى أن رتق الشخص لمعطفه وخصفه لنعله ، يعطى انطباعا لن يدونه أنسه أنسان متراضيم ، بالاضافة للخنجر والمحبرة النحاسية وحافظة القلم المفروسة في المحزام، والمسبحة الضخمة جدا والتي يمكن عند الضرورة استخدامها كسلاح هجومي ٠ وبذلك تكون عدتي قد اكتملت ٠ ويجب الا اغفل الطريقة المفضلة لحمل المنقود •

ففى هذه البلاد يجب الا تعول على الصندوق او الحقيبة ، فالكيس القطنى الشائع والذى يحفظ فى جيب الصدر كان يحوى عملات فضيية واخرى صغيرة (لأن مصر الآن مليئة بالنشالين) اما ذهبى الذى كنت قد

⁽١) هذا طبعا غير محرم شرعا .. (المترجم) .

حملت منه خمسا وعشرين جنيها والأوراق فقد أودعتهما في حزام جلدى جيد مصنوع في المغرب، وقد صمم هذا الحرزام ليلف حول الخصر تحت الملابس لمحفظ الأشياء الثمينة واخفائها وفي القرن الماضي كانت هناك طريقة اكثر تحضرا من طريقتنا اذ قام روديريك راندوم Roderic Random ورفاقه بالحياكة فوق نقودهم بين بطانة الثوب وحرزام السروال القحسير ولم يتركوا في متناول أيديهم سوى بعض النقود الفضية (الفكة) لشراء الضروريات أثناء الحريق ، والعيب الواضح للحزام الذي وضعت فيه نهبي وأوراقي أنه تقيل خاصة بعد وضع النقود الذهبية فيه ويسبب حكة وفلقا في الليل (عند النوم) واكثر من هذا فقلما يكون وسيبلة مأمونة ففي الليل (عند المنورة يتخذ المسافرون الحذرون احتباطات أنجع (٧) .

وضم الحرجان Klurjin (مثنى خرج) المعروفان الأهل البلاد، حقائب ملابسى ، ولففت وسادتى ، واشتريت صندوقا ذا لون أخضر فاتح مزين بورود صفراء وحمراء ، الأضع فيه الدويتى وذلك لحمايتها اثنساء سقوطها من فوق الجمل مرتين يوميا .

وكانت الخطوة التالية أن أعرف ميعاد اقلاع الباخرة النيلية الى القاهرة فلجأت الى مكتب السفريات فلم يكن هناك اعلان عن أية سفينة والخيروني أن احضر للسؤال كل مساء حتى اذا ما التيحت سفينة ركبتها ، وأخيرا وقع الحادث السعيد ، فالاقلاع الذي يحسدت مرة كل اسبوع ، سيحدث في اليوم التالى • والشيء بالشيء يذكر فان هذا الاقلاع الذي من المفترض انه يحدث كل اسبوع لا يحسدت في الواقع الا كل اسبوعين ال نحوهما • وقد هرعت الى المكتب ولم أصله الا بعد أن كان الظهر قد ولى ، فوجدت فيه رجلا ضئيلا داكنا ، وقد ارتدى ثيابا واتخذ هيئة تجعله يشسبه كلب الصيد تماما ، وكان يجلس مع رفاقه التافهين على المنضدة - يشرب، وقد وضع السيجار في فمه ورفض - بعد أن امتنع لمفترة عن الرد على تماما - أن يسمح لى بالمرور الى السفينة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر • فسائلته عن ميعاد اقلاع السفينة فأحالني الى اللافتـــة لأنني كنت أحدثه بايطالية مهشمة ، فتظاهرت بعدم قدرتي على القراءة والكتابة ، فصلاح قائلا بالايطالية : في التاسعة ٠٠ في التاسعة ! Alle nove ولما ظللت مظهرا عدم تأكدى جعلته يترك مقعده ليقرأ اللافتة بنفسه ، فلما رفع راسه اليها صب اللعنات وقسرا : في الثامنة • أن المسافر الشرقي البائس اذا ما اعتمد على ما يقال له فسوف يحضر متأخرا عن الميعاد ساعة بالتمام •

⁽٧) وضع الرحالة بوركهارت نقوده داخل تعويدة (حجاب) وخاط عليها • انظن رحلات في شبه جزيرة العرب • بيروت ، دار النفائس (ترجمة د • عبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد العزيز الهلابي) - (المترجم) •

وهكذا انحدرنا الى اسلوب الهنود الشرقيين القديم « الجيد » في الداء الاعمال فالهنددى البريط في يامر كاتبه الاول بتنفيذ بعض المهام ، فيجد هذا المكاتب (السنيور) أن لديه بعض « الاعمال وأنه «مشغول» فيرسل آخر تحت ادارته ، فيجد هذا الأخير أن الجو قائظ ، فيرسل بدلا عنه السناعي (البيون COT) فيقوم الساعي بتكليف البواب بعد تزويده برسالة شفهية ، فيجلس البواب بهدوء في مكانه واثقا من ان القدر سديهييء لم مخرجا من هذه الورطة ولن يتحرك برصة واحدة من مكانه حتى ولسوسقطت الكرة الأرضية • (حتى لو هدمت الدنيا) •

ان القارىء _ كما آمل _ سيعذرنى لهذا الموصف المسهب ، اذ أن هدفى أن يعرف كيف يتم انجاز الأعمال فى هذه المناطق الحارة • كل الأعمال • واذا لم أكن أنا المدرويش عبد المله ، وانما تاجر ثرى من أها المبلاد ، فإن الأمور _ بالنسبة للسرعة والدقة فى انجاز المعاملات _ ستسير على النحو نفسه الذى سبق ووصفته • فكم سمعت من شكاو كثيرة من المعاملة التى واجهت متلها بمناطق مختلفة فى بلاد الشرق ! وليس من سبيل للتحقق من هذه الشكاوى الا بخوض التجاربة الاليمة • وفى المستقبل ، سوف لا أرى أبدا شخصا مهما قل شانه جاثما فوق الأرض ليضيع هباء ست ساعات تحت الشمس الحارقة ينتظر فى صبر حضور مسئول أو انجاز معاملة _ دون أن أتذكر تذكرا عامرا بالتفاصيل موقفى عند مبنى جمارك

واخيرا ففى حوالى نهاية شهر مايو سنة ١٨٥٣ كان كل شيء جاهزا وغادرت غرفتى وانا اشعر بالأسى بين زهور الآس البيضاء وزهور الدفلى الوردية ذات الرائحةاللوزية وقبلت بتباه متواضع يد مضيفى الطيب بحضور خدمه ، وقد كان مضيفى قد اعتراه قلق حزين منذ عهد قريب لأنه بث فى روعى المساعر الشرقية الحقيقية لمن يضرب بالفلكة وودعت مرضاى الذين كان عددهم قد بلغ حوالى المخمسين فصافحونى بامتنسان باعتبارى طبيبهم وباعتبارى أخا لهم فى الدين ، وركبت عربة كالفخ او الشرك تبدو عوانا بين عربة اليد (العربة التي يجرها البائعون الجائلون) والكلبية (العربة التي يجرها عمان أو كلب) ، وكان يجرها بغل كثير الرفس ، عنيد ، عضاض ، وبدات رحلتى فى الباخرة النيلية باصابتى بروو خفيف و



الفصسل التسالث

السفينة النيلية التجارية « اصابتي بربو خفيف »

وصف المناظر على جانبي النيل ب الدرويش لا ياكل اللحم ب وصف شيطيين هنديين ب مهمة لشراء الخيول لملك سردينيا ب عمال الطلاء ب خدايخش ب عزلة الاوربي ب رأى الهنود في الانجليز ب طبيعة كرم الشرقيين ب التجامل على الهنود ب الافضان •

قى ايام بيتس Pitts (١) كانت لنسا عسلاقات دائمة مع المسافرين المصريين السذين كسانوا يترددون على مينهاء رشيد على نهسر النيسل والمتجولون (المسافرون) في أيام بروس (٢) Brucean age كانوا ميالين لتسجيل انطباعاتهم اثناء رحلاتهم عن الأهالي بين الاسكندرية والقاهرة وبعد ذلك بقليل وجدنا كل شخص (رجلا كان أو امراة) يكتب القصائد الشعرية عن « بهبيته » أو سفينته في القناة (المقصود ترجة المحمودية) وبعد ذلك حلت السفينة البخارية محل « الدهبية » ، وبعد الباخرة ، سياتي دور القطار الذي قد يخيب أمل السائح المؤلف ، ولكنه سيكون مبهجا للرجال ذوى الحس الذين يرغبون في قطع مسافات طويلة بأقسل مبهجا للرجال ذوى الحس الذين يرغبون في قطع مسافات طويلة بأقسل مبهجا المرجال ذوى الحس وللآخرين • وسسوف تكون ترعة المحمودية باقبح المترع وأكثرها ازعاجا مخصصة للسفن الحملة بالقطن والقمح، فتتجاهلها المذكرات ، ولا تكتب كعنوان فصل بتاتا •

لقد رأيت هذه الترعة في أسوأ حالاتها عندما كان الماء فيها منخفضا ولم أرها مرة وهي ممتلئة · لقد وصلنا للقاهرة بعد ثلاثة أيام بلياليها ،

⁽۱) رحالة انجليزى زار مصر والحجاز في القرن السابع عشر ٠ بُكر انه كان في مصر على ايامه (١٦٩٨-١٦٩٣) خمسة آلاف او ستة الاف مسجد ، وقد صحح جوزيف بتر كثيرا من معلومات من سبقوه ٠ (تعليق بيرتون ، ص ٩٦) ٠ (المترجم) ٠

⁽٢) بحالة اسبكتلندي ومبل الاسبكندرية ١٧٩٨ ومنها للقاهرة فقنا فالقصير فجدة فالحبشة (١٧٧٠) • شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ، الانجل ، ١٩٨٠ ، حن ٨٤ - (المترجم) •

كانت مضجرة ومملة ، وكان المفروض أن نصلها في ثلاثين ساعة ، وكنا قد رسونا بانتظام مؤلم أربع مرات أو خمس بين شروق الشسمس وغروبها قبل وصولنا • أما المشهد على الشاطئين فان الرسامين والكتاب قسد جعلوك لا تهتم بالنظر اليه فمن عمود بمباي حتى Maison Carré, Kariom ومصانع المفخار بها ، وبركة طيور الليل (٣) وبسطرة والمرات المحفوفة بالأشجار ، بل وحتى عطفة . Atlah ، كل ذلك معروف تماما لنا ، وكان موجودا لسنوات عديدة قبل أن يراه الرحالة فعلا • والنيل المبارك نفسه كان منخفضا في هذا الفصل • انك لا ترى شيئًا سوى المياه المليئة بالطين والشواطيء المتربة ، والضحياب الرملي والسماء ذات اللون الشبيه بالجليب والشمس المحرقة ، وأنت لا تلقى بالا سوى للنسيم الذي يهب حارا كلفحات النار من فرن اعداد الفخار . ويمكنك أن تميز فقط من خلال حجاب الضباب المترب قسرية شبراخيت من قرية كفر الزيات (٤) ، وأن تسافر بعيدا جدا Shibr-Katt Wardan لتتسلى بسيخط رجالها عندما يقسولون من مدينة وردان « هيكل ، يا ابن هيكل » (٥) وتـكاد ترتطم ســفينتك عند البـراج Barrage (٦) ، وأنت بالتاكيب تصفق بشيدة عنيد رؤية فتحساته القليلة الضيقة ذات الطهران القوطى ، وههرما خوفس وخفروع يشمخان براسيهما الجليلين فوق حافة الصحداء ، وهما الملمحان الوحيدان اللذان قد رسما بعناية لذا فانت تستمر بمشاعر رضي حقيقيمة حتى تحاذى بولاق ـ الضاحية القديمة المتدهورة •

⁽٣) البركة Al-Birkah ، مجموعة قرى بهذا الاسم مشهورة بنرحها ذى للطابع المصرى (كذا ١) وهى اثر يعود للعصور الطيبة الاولى ـ بلا شك ـ عدما كان معظم المتدينين يجدون متعة فى الاحتفال بذكرى ايزيس وأوزوريس ٠ (ملخص تعليق بيرتون) ٠

ولا شك أن اشارات بيرتون هذه تحتاج الى تحقيق وتدقيق من قبل المتخصصين ... (المترجم) ·

⁽٤) شبراخيت كما هو معروف من مدن (قرى فى ذلك الوقت) البحيرة ، وكفر الزيات من مدن أو قرى مديرية الفربية • والمقصود أن بيرتون لا يميز المعالم على البر الا بالكاد ... (المترجم) • .

⁽٥) اسم شخص وهدفه بيرتون بالمظرف كان يداعب بعض اهل وردان (عن بيرتون).

⁽١) جسر أو كبرى رضع تخطيطه الاول في أيام المملة الفرنسية على مصر :

وبالنسبة لى فلم يكن المنظر مثيرا ، فقد بدا كمشماهد السند التي الفتها _ نفس الصباح الضبابي ، ونفس وهج الظهيرة ، والرياح الساخنة والغروب الحار وحرارة المساء ، ونفس اعمدة التراب وشياطين الرمال تعوى خالجان فوق السعهل ، ونفس المياه المعكرة والعنوات المائية المسحلة التي تحفها شواطىء رملية ، والجزر ذوات الشكل اللوزى ، ذات المنزلقات الترابية المنهارة المتداعية فوق نوع من الجروف نحرتها المجارى المائية باسنان شرسة ، وعلى الشاطئين ارض ملحية تتاثلاً ويلمع بريقها كالندى المتجمد فوق سطح بارد القت الشمس باشعتها عليه ، وتناثرت هنا وهناك قرى شيدت بالطين ، وأكواخ متفرقة وأبراج حمام أو ابراج زينة من ذلك النوع الذي يشيد في أحد الركان البيت ويختبىء صبية داكنو. اللون خلفه ليقذفوا الأخجال على الطيور التي تصىء بين جريد النخيل الأخضر وأشجار الطرفاء والسنط والذرة والتمباك وقصب السكر، وخلف الشريط الضيق على شاطىء النهر تقبع الصحراء الصفراء المحسرقة بتلالها المنخفضسة ومنحدراتها الرملية محاطة بما لا يحصى من اهرامات صممتها الطبيعة (٧) والقوارب بقيدوماتها (جمع قيدوم وهو مقدم السفينة) المدببة ومؤخراتها غير المعقولة واشرعتها المثلث شحكلها ، تشبه تماما ما في نهر اندوس Indus والفلاحون جلودهم داكنسة كالشبيكولاته وثيابهسم زرقاء ، والنسوة يحملن اطفالهن فوق ظهورهن ، والجرار فوق رءوسبهن ، وينام الرجال في الظل أو يتبعون المحراث الذي يحتمل أن يكون أوزوريس أول من وضع يده عليه • أما الجيوانات سواء الراقية أو الزضيعة فجميعها عجفاء هزيلة : الجمال الجربة والجواميس الملطخة بالطين والحمير البائسة وابن آوى المتسلل ، وكلاب كالثعالب •

وحتى الطيور كانت مالوفة لعينى تماما لل طيور الأوز ، والبجلع ، الكراكى (جمع كركى) العملاقة ، والطيور المائية البرية ،

لقد ركبت السفينة في الدرجة الثالثة أو في المرات على ظهر السفينة، مع رعاع الرحلة الذين كانوا يبدون سخطا وغضبا • فالشمس الحسارقة تخترق الظلة المصنوعة من قماش القنب كما يخترق الماء الساخن قماش الشاش ، أما في الليل فالندى البارد يتساقط بقطرات سميكة لم يتبخر منها شيء كالمضباب الاسكتلندى • أما الطعام فكان بغيضا ، وحالت عظمسة الدرويش ووقاره بيني وبين الجلوس أمام مائدة عليها لحم مع (الكفرة) أو تناول الطعام الذي لوثوه بآثامهم • فقام الحاج بالانتجاء جانبا جالسا

⁽١٠) المقصود : التلال واكورام الرمال ... (المترجم) .

المقرفصاء ، وراح يدخن باستمرار لا يقطعه الا لأداء صلواته في مواقيتها ، وليبث مسهاحه الضخم تسبيحاته ، وقد شرب ماء الترعة المعامرة بالمطين ، من زمزميته الجلدية ولاك خبزه وثومه (٨) مرائيا بالتقشف والتقوى (٩) ، وكان البلغم الخفيف الذي أصابني قد تفاقم ، وكان الجو غاصا بذرات الاتربة بدرجة تعوق الرؤية من موقعي فوق ظهر السفينة ، ولم يكن النظام على السفينة يساعدني على التدقيق في أماكن معيئة ، بالاضافة الى أن المناظر من فوق ظهر السفينة كانت مختلطة الألوان غير واضحة ،

وكان مناك شرطيان منديان يتجاذبان أطراف الحسديث معا ، ومن الطبيعي الا ينخرطا في حديث مع الآخرين ، وكانا يحتسبان شايا من النوع الرديء ، ويدخنان السميجار الانجليزي ، وكان تدخين السيجار قصرا alie Kurd Kawwas عليهما • كلما كانت هناك فرقة من العواسين الاكراد ترافق خزانة تضم أموالا ، وكان يتحلق حب ولهم جماعة من اليونانيين المزعجين ، بفكاهاتهم العملية الفظة التي تتناول أي شيء ، ومع هذا فقسد كانوا مبعث سرور للمسلمين الوقورين الذين كانت اخراجهم (١٠) وما معهم من فرش تتعرض للتلوث كل لحظة من المشروبات الرديثة (المحرمة) ، وماء الشيش الذي مر دخان التبغ عبره • ولم يكن من الجنس اللطيف على ظهر السفينة الا فتاة أسبانية جميلة ، كانت تبدو في موضع غير موضعها ، كزهرة في حقل شوك • وجلس بعض الايطاليين الصامتين مع مترجميه-م الذين احدثوا جلبة - برصانة فوق الدكاك (١١) ، وسرعان ما اكتشفنا ... من خلال ثرثرة مترجميهم ... انهم كانوا في مهمة لشرام الخيول لحكومة سردينيا • لقد تعرضوا لوابل من الأسئلة من تجار فرنسيين عائدين الى المقاهرة ، الا أنهم (أي الايطاليين) تهربوا ، وتجنب وا الاجابة بحدق معكافدللي • وبالاضافة لهؤلاء ، كان هناك الماني يستقبل الصباح بشرب رجاجة من المجعة (البيرة) ويودع النهار بشرب زجاجة من المجعسة في المساء ، وكانه استعار صفات الأمة الألمانية • وثمة تاجر سورى وهو أغنى

⁽٨) في الشرق ... كما هو في الغرب يعتقد الناس في هوائد الثوم الصحية ، وان كان من المستحب الا يتناوله الانسان وهو ذاهب للمسجد بسبب وائحته القوية ، وينطبق هذا على البصل ايضا · ويضص بيرتون الوهابيين أو السلفيين بذلك وهو قول غير صحيح · فكل المسلمين يفعلون ذلك ... (المترجم) ·

⁽٩) يتحدث بيرتون هنا عن نفسه بضمير الغائب • (المترجم) •

⁽٩٠) جمع خرج يغيم الخام ، وعاء من شعر او جيد ذو عدلين يحمل على ظهر الدابة ، توضع به الامتعة ، ومن الواضع انه لم تكن هناك دواب على ظهر السفينة ... (المترجم) ٠

⁽۱۱) جمع (دكة) مقعد مستطيل يجلس عليه اثنان أو أكثر . (لمترجم) .

أهل الاسكندرية وابغضهم • وكان في السفينة ايضا عدد قليل من الرسامين وجرفيى الطلاء ، لطلاء قصر الباشا في شبرا وتزيينه • وكان هسولاء الاجيرون هم اسعد من في رجلتنا واكثرهم بهجة • فهم أطفال حقيقيون من باريس ، فقد كانوا طوال النهار جالسين يثرثرون وكأنهم يغنون ، ثرثرة أو شدوا اختصت بهما أمتهم الحية ، لا يجاريها أحد فيهما • وقسد اطلقوا العنان لانفسهم في ترديد الأمثال ، والحكم الغالية (الفرنسية) مثل :

Von ne vieillit Jamais a table لاتدرك الشيخوخة مطلقا لاعبا وهو يلعب

والآن فانهم يلعبون الورق بغية المحب أو بلا هدف ، ثم يكونون

(ينشئون) de ponches un pen chiques ، ثم ينشدون مغامرات طبقة (فئة) الميرابولانت Mirabolant ، ثم يغنون ، ثم يرقصون ، فينامون ، ويستيقظون ليلعبوا ، وليشربوا ، وليتحدثوا ولميرقصوا ، وليغنوا مرة المدرى .

لقد انشد احسدهم:

« Je n'ai pas Connu mon pére Ce respectable vicillard. Je suis ne trois ans trop tard ...

بينما يجاوبه آخس منشها:

« Qu'est ce que je vois ? Un Canard en rôbe de chambre ! »

ولانهم كانوا من القادمين الجدد الى مجمى ، فقد كانوا متحررين من التزمت الغسربي الذى سسيعا سما كان يصيب الأوربيين المستشرقين (الشرقيين) Oriental Europeans لذا فقد كانوا اشخاصا ظرفاء بالنسبة لى حتى عندما كانوا يرغبون فى الاندماج معى ، أو تجريعى جرعة قوية من حيويتهم ، الا اننى لم اكن محظوظا بدرجة كبيرة مع كل من كسان على ظهر السفينة ، فقد هدد بقال كبير بقطع اصبعى لاننى قربت غليسونى من سرواله ، الا انه عندما رآنى المس خنجري بجسدية ، سرعان ما نسى تهديده رغم أننى لم أحرك غليونى من مكانه ، وكنت قد أخذت على عاتقى الاعتناء بطرد يخص أحد اعضاء البرلمان يدرس اللغة القبطية ، وقسيد أهيدت المطرد له على ظهر السفينة ، ومقابل هذه المحدمة اليسيرة ! لم أعيدت المطرد قبل ذلك . وأحد

الانجليز وجه المنقد المرير لعينى بالأننى لست مرفقه ، وقد أعلى شجيه هذا بطريعه عوان ، فلا هو نحدت بصوت مرتفع ، ولا هو افضى الى باستحاره سرا ، وانما كان كانما يتحدث الى نفسه ، وقد التمسنت له العدر بالمحيات درويشا متسامحا ،

وكان من المقدر أن يلعب اثنان من رفاق الطريق دورا مهما في تمثيليتي الساخرة في العاهرة (١٢) ، فبمجرد أن بدانا الرحلة حددت احداث صفيره امتعتنا بيعض التسلية • فعلى الشاطيء ظهر رجل قصير درى ا الهيئه مقطوع الإنفاس لفرط بدانته ، بذل جهودا مضنية للصعود للسفينة، مما آثار ضحضا • فقد جرى على طول شاطىء الترعه مشتت الاهتمام بين السفينة من ناحية وخرجه الذي يحمله الصبي الحمال ، فتراه الآن يتعثر في حفرة ، ثم ما يلبث أن يجتاز عترات ، تم يفف لاعنا الشمس الحسارقة التي تلهب ظهره ، حتى لقد ظننا جميعا أن أنفاسه قد انقطعت تماما • لكن لا! فلئن يلقى حتفه افضل عنده من أن يفوته ركوب السفينة فتضيع عليه الأجرة ، فكما قال الحكيم ، بالصبر والالحاح تجبر زوجتك على احترامك . وأخيرا تم اركابه السفينة وسرعان ما استلقى ونام • لقد كان يبدو وكأنه هندى ببشرته التى اعتراها السخام ، وشعره الأسود السبط وملامحه التي يبدو فيها كثير من الدهاء beaucoup de finesse أو كما يقال - وقرة من النذالة ، وابتسامة دائم المسنة وعينين غدارتين ، وبحلقه الذهبي (١٢) ، وملابسه ذوات الألوان اللافتة ، ويطنه المكتنز لحما ، وساقيه السمينتين، وظهره الستدير، وطريقته الخاصة في العبــوس أو الغضب والتودد أو اللرضا ، وعندما استيقظ قدم نفسه باعتباره ميان خــدابخش نامدار من مواطنى لاهور Lahore ، وقد كان يدير تجارة احد تجار الشيلان في لندن وياريس طوال عامين مكثهما فيهما ، وبعد أداء فريضة الحج نوى أن يكفر عن الخطايا التي علقت به من جراء اقامته في البلاد المتحضرة (يقصد لندن وياريس) فاستقر في القاهرة • . .

أما صديقى الثاني الحاج والى فسأقدمه للقارىء في فصل قسادم . وقد أشرت اليه مرة أخرى في رحلتي الى مدين Midian (١٤) -

⁽۱۲) يقصد في تقمصه شخصية الدرويش ـ (المترجم) ٠

⁽١٣) يعلق بيرتون على ذلك قائلا : أن الرجال المسلمين التمسكين بدينهم لا يتزينون بالذهب لان الشريعة تنهى عن ذلك ، وهو قول صنحيح ، (ملخص عن بيرتون) ،

The Land of Midian the, Gold Mines of Midian : انظر (۱٤) . Revisted by ; R. F. Burton.

القد خففت المناقشات الضافية بالمفارسية والهندوستانية من الملل الذي المتنف المرحلة ، وعندما وصلنا الى بولاق اصر خدابخش المهدب على آن القيم في بيته ، ولم أكن راغبا في قبول كرم الرجل وكياسته ، لانني كنت أكره تظراته وسحنته ، لكنه قدم حججا مقنعة لتغيير افكارى ، فقد قام خادمه يانزال امتعتى في ادارة الجمارك وبعد دقائق من وصولنا وجدت نقسى في منزله بالقرب من حدائق الأزبكية ارتشف كوبا من عصير التفاح اللذيذ واتا جالس في مشربية مشيدة بشكل رشيق لتطل على حديقته ، وتهب عليها النسائم المنعشة الباردة ،

ولأن الوكالمة كانت غاصة بالحجاج في ذلك الوقت ، فقد مكثت مع خدایخش (۱۰) عشرة ایام أو اثنی عشر یوما ٠ وفی نهایة هذه المدة كدت المجن ، فقد كان مضيفي قد اصبح رجلا متحضرا يجلس على المقاعد وياكل بالشوكة ويراعى قواعد الاتيكيت الأوروبي ، وكان قد تعلم الاعجاب يالحرية ، والأفكار الليبرالية Liberal ideas ان لم يكن قد فهمها ١٠ الم أكن قد هريت (تخلصت) من مثل هذه الأمور ؟ وبالاضافة لذلك ، فإن لنا محت الانجليز صفات وطنية خاصة سرعان ما يفهمها الهنود بما اوتوا من ذكاء ممين ، ويسمونها بكلمات شائنة • فقد الحظوا رغبتنا في الجهوس معهم وتجاذب اطراف الحديث وتناول الشربات ، والتدخين • لذلك فهــم يسموننا « جنجلي Jangli » وتعنى الغجر أو « البراويين » أو « الرجال غير المستأنسين » (١٦) تم اصطيادنا للتو من الغابات ثم جئنا نحكم الهند • من المؤكد الا شيء يلائمنا أقل من الحياة الاجتماعية الدائمة (المجتمعة الدائم) ، فالحاجة المطلقة للعزلة عندما لا يستطيع الشخص أن ينكفيء على ذاته (يخلو لنفسه) مستمتعا بالهدوء الدائم دون أن يساله رفيقه بعض الأسئلة الصبيانية أو أن ينظر في كتاب دون أن يحدق الخادم من فسوق كتفه (١٧) - عندما يتحتم عليك أن تتحدث دائما وتصعفى باستمرار من ساعة استيقاظك حتى تخمد في منامك ويجب أن تقنع نفسك أن تنام في

⁽١٥) « خدا ، بالفارسية تعنى « الله » ويودعك الفارسي بقوله « خدا حافيظ » اي يحفظك الله ... (المترجم) •

⁽١٦) النص الانجليزى Wild men وقد ترجمناها بالغجر أو البراويين وهى كلمة عامية ينطقها المصريون بكسر الباء ويقصدون بها الاشخاش الذين لا يالفون ولا يؤلفون ـ وهذه جميعا هى المعانى المقصودة بكلمة جنجلى كما يقصدها الهنود ـ وقد صمعت منهم هذه الكلمة مرارا بهذه المعانى اثناء القامتي في الكويت ـ (المترجم) ·

⁽۱۷) بالنسبة للانجليز فان بيت الانسان هو قلعته ١٠ اما فى الهند فان نظام الطبقات يقسم السكان الى اسرات كبيرة يعطى لكل شخص من ذات الطبقة الحق فى معرفة كل شيء عن البيرة و أخيه فى الطبقة) ١٠٠ (ملخص عن بيرتون) ٠

حجرة نوم مشتركة وأن تصغى الى غطيط رفاقك فى الغرفة وشسخيرهم وغمغماتهم في منتصف الليل •

وعلى أية حال فان المعنى العميق للكرم الشرقى هو ذلك الأسسلوب العائلى فى الاستقبال الذى لا يكلف مضيفك مالا ، ولا يكبده مشقة ، اننى أتحدث عن أصقاع نادرة فكرم البرابرة القدماء يتلاشى الآن تدريجيا ، فانت تضع قطعة طعام زيادة على صينية طعامه ، وتضع حشية اضسافية فى غرفة النوم ، وعندما تستأذن منصرفا لابد أن تقول ما اذا كنت تود هدية صغيرة لمجرد الذكرى مع مضيفك وإذا قدمت له الهدية بطريقة واضسحة تشير الى أن ذلك تعويض له عن استضافتك ، فأن ذلك قد يضايقه ، كما يضايقه أن تقدم مبالغ بسيطة للخدم ، فأن راعيت ذلك فأنك تلقى ترحابا أينما ذهبت ، وإذا قادتك الظروف لمثل هذا الموقف وهو ما يمكن أن يحدث الك ببساطة كطبيب ، فما عليك فقط الاأن تجعل من نفسك شخصا كريها بقدر ما تستطيع بطلبك فى كل الأحوال أشياء غير ممكنة ، فالخجل ضعف مع شعوب الشرق ، فمضيفك قد يستحى أن يصفك بقلة الحياء ، فقاذون مع شعوب الشرق ، فمضيفك قد يستحى أن يصفك بقلة الحياء ، فقاذون

لكن من بين كل الشرقيين ، فإن الهندي الشرقي هو أكثر الأصدقاء بغضا للرجل الانجليزي كما اعتقد ، فهو كالثعلب في قصص الحيوانات ينافق ويتذلل بطريقة مقررة في البداية ، حتى يصبح بسهولة ـ صديتا ٠٠ ويالفك الفا كريها ويطريقة فجة مما يؤدى الى اثارة روح الأسد البريطاني، ولا شيء يبهج أكثر من أن تتاح له فرصة آمنة ينفس بها عن حقده ازاء المنتصر عليه • فسيجلس في حضور الحاكم أو الضابط صورة طبق الأصل من المخضوع المتذلل المتسم بالمتملق والنفاق ، الا أنه بمجرد مغادرته غرفة الضابط أو الرئيس يتحول للنقيض فيصبح قنصلل في قاعة بعد أن كان عازفا في حفلة موسيقية ، أو كما تتحول شخصية قبطان السفينة وهــو قابع في مؤخرة السفينة حيث يكون عاديا متواضعا ، الى شخصية متألقة عندما يظهر في ناد لتناول الغداء • وسيكتشف هذا الهندي أن الانجليزي ليس شجاعا ولا نشطا ، ولا كريما ولا متحضرا ، ولا يساوى شهيدًا وانه مجرد وغد تافه ، ويرجع ذلك الى أن كل مسئول من مسئوليهم (الانجليز) يتقاضى الرشوة ، وأنهم يتصرفون بعدوانية بالاضافة الى أنهم فئة من الكفار ثم يشرع في ارضياء نفسيه باحتمال ان ياتي يوم بارثولومسو Bartholomew Day في الشرق ، ويتطلع الى يوم يقوم فيه شاب هندى متنور ليطرد الغزام الأغبياء من أرض الهند • ثم يقدم آراءه عادية مكشوفة بانه يجب استرداد الهند بالعنف من الشركة (١٨) وتقديمها للملكة موسيا ، وفي أن تسترد من الملكة وتقدم للفرنسيين ، واذا كان الهندى رحالة أوربيا ، فسيكون أسوأ ما يكون بالنسبة لك فهو يخجلنا He has blushed to own على أية حال فانه يشرح (يفسر) الفتح بالمسموة ، ذلك ان • • • • • • انجليزى قبضوا على • • • • • • • • • • • • • • • مقابل لا شيء • • واستعبدوهم وأنت تعرف أن ذلك قد تم مقابل لا شيء •

ولم يعد في نفسه أي رهبة من الوجه الأبيض وراح يفضي بما يعتمل في نفسه :

« الأرض ان طوقها العدو أو الصديق ، فعلى الانسان أن يتاول ما يريد »

وهو يسير على المنوال نفسه فى البلاد الأخرى حيث يكون الى حدد كبير فى المكان غير المناسب له ، وعقيدته فى الحرية والمساواة يطبقها عليك شخصيا وعمليا فهو لا يهب واقفا اذا دخلت الفرفة ، ولا يغادرها ، وفى المبداية فانك تجد صعوبة فى حثه على المجلوس ـ ولا يعيرك شيشته (أو غليونه) ويدير وجهه بعيدا ان ناديته وغير ذلك من الاهانات الصغيرة التى لا يجيد أحد تنفيذها بتدرج غير محسوس سواه .

يقــول العـرب:(١٩):

« ان كان فى عود الأرز قصوة ففى الهندى رجولة وعسنم »

الما الفرس فيطبقون هذه الحكاية الزاخرة بالمعانى · يقول الأسسد لابن آوى : «يا اخى ، اننى أحتاج الى قليل من بعض شعرك الذى يتساقط منك لأداوى به نفسى ، فأين أجده ؟ » فيجيب ابن آوى : « والله لا أعرف بالضبط ، فنادرا ما أغير معطفى · · اننى أتجول بين التلال ، والله كريم يا أخى ، قالشعر ليس من السهل نزعه ·

⁽١٨) المقصود شركة الهند الشرقية البريطانية _ (المترجم) .

⁽١٩) فيما أعلم: هذا ليس مثلا عربيا ولا شعرا عربيا ، ولكنها طريقة بيرتون كممثل لحضارة مستعمرة ، انه يوقع بين العرب والهنود ، وبين الهنود والافغان ، وبين عرب الجزيرة وأهل مصر _ ولا يفتأ يفتش عن التناقضات _ (المترجم) ،

وا أسفاه على الرجل الانجليزى التعس أو الباشا أو الجندى الخاص الذى يجب عليه أن يخدم سيدا شرقيا • فاذا كان السيد هنديا ، فذلك هـو أسوأ ما يمكن أن يكون ، فالهندى يكـره كل الاوربيين ، كراهية ممزوجة بالفظاظة الشرقية والغدر والاستبداد • وحتى تجربة الاتحاد معهم هى تجربة يصعب تحملها • لكن يمكن استخلاص دلالات مفيدة من هـذه الملاحظات ، وربما كان لدى قليلين تجربة اعظم من تجربتى ، ومع هـذا فاننى أغامر بابداء رأيى بثقة مع أنه قد يكون رأيا غير شـائع أو غير ملائم •

اننى مقتنع أن أهل الهند لا يمكنهم احترام الأوربيين الذين يختلطون بهم بتآلف أو الذين يقلدونهم في عاداتهم وأحوالهم وازيائهم • فالسراويل المحكمة والصوت الآمر وعدم المبالاه واللغة الهندوستانية المفروضة عليهم، كل ذلك قد يؤدى بهم الى التعلم والأمانة ، الا انهم غير شجعان فهم بالنسبة Scythian الذين يواجهسون للسيد (أو الرئيس) ينحذون له كالمعبيد السيف ويفرون من السوط · وهذه الحال ليست لدى الأفغـــال الشجعان مثلاً • ودعنا نقرأ مع هويت بلوم White Plume هندي أمريكا الشمالية : « يشكل المحارب الهندي الأحمر في عين الفتاة الهندية (من هنود أمريكا الشمالية) كل ما يتمثل في الجندي من بني جنسها من حيوية وبطــولة ، فمشيته وزيه وشجاعته تضارع كل ما هو عظيم وانيق في الرجل الأبيض » فليس هناك الا سبب واحد لهذه الظاهرة فالهنود ما زالوا مع استثناءات قليلة شعبا جبانا ذليلا مما يجعلهم يرفعون من مقام انفسهم بالانقاص من قدر الآخرين الذين يفوقونهم في ميزان الخلق ١٠ أما الأفغان والهنود الحمر فلكونهم جنسا يتسم بالشهامة والفسروسية (٢٠) فهم يبالغون في قسوة عدوهم لأنهم بذلك يرفعون من شأن انفسهم •

⁽۲۰) ماذا يريد بيرتون من الهنود غير آن يكرهوا ويحتقروا الانجليز الذين يستعمرون بلادهم • أما مدحه للافنان فلان انجلترا لم يرد استعمارها لتكون منطقة عازلة بين مناطق نفوذ مختلفة • • (المترجم) •

الفصيسل الرابع

الحياة في الوكالة

وصف الوكالة - وكالة خان الخليلى - وكالة الجمالية - بيرتون يتقمص شخصية الأفغانى - محمد شقيع نصاب كبير - مساؤىء الحماية والامتيازات الأجنبية - ممارسة الطب - فكرة « الواجب » عند الشرقيين - وصفة طبية - السم - الرقيق - حال الفلاح المصرى مقارنة بحال العبيد - دكان العطارة •

تتألف الوكالة _ وتسحى في مصر أيضا الضان أو الفندق _ من المرافق وغرف الاسكان والمخزن و والوكالة في القاهرة _ مثلها متحل الوكالة في استانبول (القسطنطينية) _ عبارة عن مبنى ضخم يحيط بصحن (حوش Hosh)) رباعي الزوايا وفي طابقها الأرضى غرف كأنها كهوف لتخزين البضائع ، ودكاكين لمختلف الأغصراض : حائكون ، واسكافيون ، وخبازون ، وبائعو تمباك ، وبائعو فواكه (فكهانية) وغيرهم وتفتح كل غرف الوكالة على ممر مكشوف أو شرفة مغطاه ، يحيط (المر أو الشرفة) بكل الطابق الأول ، وأحيانا بالطابق الشانى وعلى أية حال ، فأن الطابق الثانى عادة ما يكون معرضا للشمس والهواء وتتكون الرحدة السكنية في الوكالة من غرفتين أو ثلاث ، وعادة ما تكون هناك غرفة داخلية وأخرى خارجية ، وتشتمل المغرفة المخارجية على موقد الطبخ ومكان مخصص للاستحمام وغير ذلك من الضروريات وسلم الوكالة مرتفع وضيق وفي الغاية من القدارة ، وهصو مظلم ليلا ، وغالبا السلم الوكالة مرتفع وضيق وفي الغاية من القدارة ، وهصو مظلم ليلا ، وغالبا السلم العوزه الصيانة ، وشمة ماعز أو حمار مربوط على منبسطات السلم ما تعوزه الصيانة ، وشمة ماعز أو حمار مربوط على منبسطات السلم الموزة المسانة السلم المنبود السلم المنبود الصيانة ، وشمة ماعز أو حمار مربوط على منبسطات السلم السلم المنبود المنبود السيالة مرتفع وضيق الغاية ماعز أو حمار مربوط على منبسطات السلم السلم المنبود الصيانة ، وثمة ماعز أو حمار مربوط على منبسطات السلم المنبوذ الصيانة ، وثمة ماعز أو حمار مربوط على منبسطات السلم المنبوء المنابة موند المنبؤ المنبوء المنابة السلم المنبؤ ا

المختلفة ، وتجد هنا وهناك جلودا طرية منشورة معدة للدبغ ، تذكر رائحتها الرحالة المتمرس برائحة المراحيض في الفنادق الفرنسية العتيقة •

والغرفة الداخلية غير مؤثثة ، فحتى المشاجب التى تعسلق عليها الملابس ، قد كسرت لاستخدام خشبها فى التدفئة ، وجدرانها عارية الا من بقع ، ومساكن عنكبوت كثيفة تشكل خيوطا تتسدلى من عوارض السقف الخشبية المسوداء ، اما الأرضية الحجرية للغرفة فعار حتى على اى سجن متحضر ، اما النوافذ ففتحات ضخمة احكم اغلاقها بالخشب أو الحديد، وفى مواضع نادرة ترى بقايا زجاج أو ورق المصق على الهيكل الخارجى ويشترك افقر انواع المسافرين مع دواب التحميسل المربوطة الى أوتاد ، والمتسولين الساخرين والعبيد فى سكنى حوش الوكالة ، حيث ينعمسون والمتسولين الساخرين والعبيد فى سكنى حوش الوكالة ، حيث ينعمسون الشمس ، ويهرشون فوق اكسوام بالات القطن المرتفعة ، وغيسرها من البضسائم •

ان ذلك ليس صورة مغرية للوكالة ، ومع هـــذا فهى اكثر الأماكن توفيرا لمبو التسلية ، ففيها تتتابع المناظر التى قد تبهج عشاق مدرســة الفن الهولندية ، فهى مثل باهر لتنوع المشاهد البشرية والحيوانية الغربية مما يطلق عليه الفنانون مصطلع « المشاهد القذرة التى تستحق التصوير « the dirty picturesque »

وكانت وكالته خان الخليلى العريقة فى القاهرة الوطنية غاصة فلم اجد فيها مكانا لى ، فاضطررت لتحمل النزول فى وكالة الجمالية وهو حى يونانى a Greek quarter يعج بالسيحيين السكارى ، لذا فهو قريب الشبه بشارع اكسفورد أو حديقة كوفنت Covent Garden وحتى بالنسبة لوكالة الجمدالية ، فقد كنت مضطرا لانتظار اسبوع حتى يشغر مكان لى فاسراب الحجيج تغص بها القاهرة ، وليس من أحد ييممون وجوههم شطره سوى حاملى المفاتيح فى الوكالات والفنادق ، وهم قدوم ماكرون وبدونهم لن تفتح أبواب الغرف ، ويرجع مكدرهم لما ساذكره من اسباب كافية ، فعندما تدخل الوكالة فان أول ما يتحتم عليك فعله هدو أن تدفع مبلغا بسيطا يتراوح بين شلنين وخمسة شلنات وحلاوة ، المفتاح المنائن عملوا المنافرين المنافرين الذين تصادنت وجدت نفسى مضطرا للادعاء بانى حاج تركى لأحصل على غرفتين مريحتين، وجدت نفسى مضطرا للادعاء بانى حاج تركى لأحصل على غرفتين مريحتين، الا أننى علمت بعد ذلك أنهما مشهورتان بامراض السافرين الذين تصادنت وقامتهم فيهما وكان يتعين على أن ادفع ثمانية عشر قرشا «حسسلاوة» المفتاح ، وثمانية عشر قرشا اخرى كايجار شهر ، بالإضافة الى خمسسة المفتاح ، وثمانية عشر قرشا «مسسة

قروش للفراش الذى يكنس المكان ويمسحه · وبهذه الطريقة وصل مقدار ما كنت أدفعه طوال شهر ـ أربعة بنسات يوميا ·

لكننى كنت محظوظا بما فيه الكفاية لاختيارى وكالة الجمالية لاننى وجدت صديقا هناك ، فقد رآنى رفيق سفرى على الباخرة حبالسا بمفردى ولأنه لم يكن يشمعر بارتياح ، فقد جلس الى جموارى وفتاح على وابلا حمارا من الاستفسارات في مختلف المجالات ، لقد كان في الخامسة والأربعين ، متوسط الحجم ، له رأس كبير مستدير حليق تماما ، ورقبة ثور ، وأطراف ثابتة كأطراف السكسون ، ولحية دقيقة حمراء ، وملامح طيبة تشع رغبة في عمل الخير ، ونكاته المجافة المغريبة تشع كسيل من السخرية الا أنها هادئة للغاية ووقورة وجذابة ، ان له طريقة ، قلما تستطيع التنبؤ بها قبل أن توثق علاقتك به ،

لقد قال صديقى اكثر من مرة بفيض من الامتنان الظاهر بعسد أن اكتشف مهنتى : « شكرا لمله فان معنا طبيب » ، وقد تأثرت بهتافه التقى « شكرا لله فقد أصبحت ملاحظته حقيقة واقعة بعد انقضساء بضعسة أيسام .

وبعد أن توثقت علاقتنا صبح لى قائلا: « انتم أيها الأطباء ماذا تفعلون ؟! • ان المرء ياتى الدكم شاكيا الرمد فى عينيه نتصفون له مسهلا ونفطة (تشريط الجلد قرب العينين) وقطرة !! فان اشتكى الحمى ! حسنا! فالمعلاج : مسهل • وكينين Quinine (كينا كينا "Kina kina)) ! وان شكا الدوسنتاريا وصفتم له مسهلا وخلاصة الأفيون ! والله اننى طبيب افضل من أفضل طبيب منكم • • » وأضاف وهو يضحك ضحكة عريضة : « حبذا لمو أننى أعرف الدرهم والبرهم وقليلا من أسماء الأمراض باللغة العربية غير الفصيحة » • لقد نصحنى الحاج والى (١) بهذه المناسبة أن العربية غير الفصيحة » • لقد نصحنى الحاج والى (١) بهذه المناسبة أن ووجدت ما قاله صحيحا • وبعد أن عشت أنا وهذا الحاج فى مبنى واحد توثقت صداقتنا ، فخلال النهار كنا نتبادل الزيارات القصيرة باستمرار ، ونتناول غداءنا معا ، ونقضى المساء معا فى أحد المساجد أو أحد أماكن الترفيه العامة ، وقسد بدانا _ على استحياء _ فى تدخين الحشيش

⁽١) يقول بيرتون ان هذا الاسم اختصار لاسم اطول هو (ولى الدين) .

الممنوع (٢) ، لكن حياءنا تلاشى تدريجيا وأصبحنا الكثر وقاحة وجسراة فى تدخينه • وكنا نثرثر - أثناء التدخين - عن العالم الدى رايت حنيرا منه ، وقد كان رفيقى - الشيخ والى - رحالة أيضا يعود لأصل روسى • وكان فى تجواله قد تخلى عن معظم الأحكام المسبقه التى يحتفظ بها الروس • لقد كان يهتف دائما بثبات لا يعرف التراجع : « اننى اشهد الا اله الا الله ، ولا شميئا آخر » •

لقد كان يرفض الاعتقاد في الجن والسحرة ، وكان حقيقة حيعاف حكايات الأعاجيب والخرافات ، وهو في هذا لا يمتلك ذوقا شرقيا ، وعندما دخلت الوكالة نصب نفسه مرشدا لي ليحميني حالي نحو خاص حمن خداع المتجار والحرفيين ، وكانت نصائحه هي السبب في تركي لجبحة الدراويش وسراويلهم الزرقاء الفضفاضة وقمصانهم القصيرة أو بمعني آخر كل ما يتعلق بفارس والفرس ، فقد قال لي المحاج : « اذا اصررت أن تكون عجميا فستجد نفسك في مشاكل ، فسينبذونك في مصر ، وسيضربونك في شبه الجزيرة العربية باعتبارك مخرفا زنديقا ، وستدفع مبلغا مضروبا في ثلاثة للشيء الذي يدفع فيه سائر الحجاج ثلث ما تدفع ، واذا ستطت مريضا فقد تلقى حتفك على قارعة الطريق » وبعد مناقشكات طويلة عن اختيار الأمة التي دعى الانتساب اليها اثناء رحلتي قررت أن أكون واحدا اختيار الأمة التي ادعى الانتساب اليها اثناء رحلتي قررت أن أكون واحدا الهند وتلقى تعليمه في رانجون هذا المجنس تعودوا ارسال أبنائهم المتعرف والطواف حول العالم ، فأبناء هذا المجنس تعودوا ارسال أبنائهم المتعرف

⁽۲) يسميه الهنود بانج (بالباء الثقيلة) ويسميه الفرس بانج (بالباء المخففة) ويسميه الهوتنتوت (أحد الاجناس الافريقية السوداء داكها Hokha ويسميه النربيون فاسوخ Fasukh وحتي في سيبيريا ـ كما يقولون ـ يستخدمون بذوره للنخدير باستنشاق بخارها بعد وضعها على حجر ساخن وقد تفوقت مصر على سائر الامم في تعدد طرق استخدامه (ملخص عن بيرتون) ويستمر بيرتون في التأريخ للحشيش ، فالرجل كان خشاشا ومدمنا المأفيون كما ذكر في أكثر من مكان في رحلته هذه ـ (المترجم)

⁽٣) يقول بيرتون ان الباتان هو الاسم الهندى للأفغان ، وهذا غير صحيح ، ففى باكستان الحالية باتان ، وفى افغانستان الحالية عناصر غير الباتان ، وليس كل افغانى باتانى بالضرورة . فالباتان ، مجموعة عرقية فى باكستان (الهند سابقا) وافغانستان ويظن بيرتون ان كلمة الباتان قد تكون مشتقة من الكلمة العربية « فاتحين » أو كلمة هندية تعنى الغزاة ، ويقول بيرتون ان الباتان عناصر محترمة فى شبه الجزيرة العربية ، على عكس الخرسانيين الذين قد يظن الناس انهم فرس (شيعة) ، ويقول بيرتون ان هناك قبائل افغانية اخرى كقبيلة سليمالى التى تذكره بالمثل « سليمالى حرامى » ، وهكذا لا يكف بيرتون عن التفاقضات ... (المترجم) ،

على العالم في شبابهم الباكر • وقد كنت محصنا جيدا من خطر, أن يتضم أمرى لأحد من رفاق السفر من أهل الباتان ، فلكي أتقن تقمص شحصيتي هذه لابد من معرفة الفارسية والهندوستانية والعربية وكنت أعسرفها جميعا بقدر يكفى لتجاوز أي امتحان • وأي خطأ بسيط أقم فيه قد يرجــم الى اقامتي الطويلة في رانجون Rangoon · القد كانت معرفة هدده اللغات خطوة مهمة فأول سؤال يواجهك عند أى محلل تجارى أو وأنت راكيا جملاً أو في المسجد هو : ما اسمك ؟ أما السوال الثاني فهو : من أي البلاد انت ؟ ولا تبدو - عموما - هذه الأسئلة وقاحة أو تطفلا ، كما لا تبدو اسئلة يقصد بها موجهها الازعاج ، الا انك ـ بوجه عام ـ اذا أحسست بسوء طوية السائل فيمكنك أن تساله بحدة : « ما اسم أمك ؟ » وهو سؤال يماثل سؤالك للانجليكاني Anglice : « في أي كنيسة تزوجت أمك ؟! » ثم تغطى هروبك مما قد ينتج من مشاكل بعاصصفة من الغضب ١ الا أن هـــذا التصرف نادرا ما يكون ضروريا ٠ لقد توشحت بوشاح الأدب وتسربلت بالطباع المرنة لمطبيب هندى ولبست لبوس أفندى صعفير وظللت مع هذا أهيىء نفسى لأكون درويشا وظللت أرتاد باستمرار الماكن لا يعرف فيها احد اسمى ، الأماكن التي يتجمع فيها الدراويش ، وسيالني الحساج والى : « ما عمل هؤلاء الرجسال المبجلين ؟ وما دورهمم السياسي ؟ وأى احصاءات يجمعون ؟ وبعبسارة أخرى ما هي المعلومات التي تجمعونها ؟ • سم نفسك متدينا جوالا أذا رغبت ودع الذين يسالون عن هدف رحلاتك وتجوالك يعرفوا أنك نذرت للرحمن زيارة كل الأماكن الاسلامية المقدسة • ويهذه الطريقة سوف تقنعهم أنك رجل من طبقة تحت السحاب وسوف يعاملك الناس بلطف وكياسة ـ ربما ـ اكثر مما تستحق » وانهى صديقى ملاحظته بضحكة خشنة · وقد تأكدت حصافة هذه الملاحظة ودلالتها على تجربة واسعة لم اجد ما يجعلني آسف عملي الأخدد يها

وقد اصطحب الحساج والى وهو تاجسر سكندرى خدابخش Khudabakhsh الهندى الى القاهرة فى تجسارة وسرعان ما شرح لى أموره ، ولأن حالته توضح بعض الخصائص الشرقية ، فاننى اقدم قليلا من تفاصيلها بعد استئذانه .

لقد كان صديقى مدافعا فى دعوى قضائية رفعت ضده فى المحكمسة القنصلية بالقاهرة ، وكان صاحب الدعوى يدعى محمد شفيع وهسو وغسد من الدرجة الأولى • لقد عاش هذا الرجل معيشة رغدة بادارة الأعمسال في اماكن لا يعرف فيها احد اسمه ، وقد ورط عديم الخبرة بعروض مالية مأكرة وبعد أن نجح فى المحصول على قرض غير محل القامته بعد أن نقسل

معه كل ما طالت يداه • لكن في البالاد غير المتحضرة يعتبس الخداع (النصب) مسالة شخصية فالمقانون يعاقب المدينين غير القادرين بفتارة سبجن قصيرة ، لذلك فان المخدوعين يفضلون استسترداد حقوقهم بالمبوت والسكين • ولهذا فان محمد شفيع بعد سلسلة من الهروب لمفترات قصيرة، اكتشف حيلة ممتازة ، فرغم أنه كان معروفا أنه من بخارا Bokhara وكان يوقع عن نفسه بهذه الصفة وكان مظهره ينبىء عن أصله - الا أنه قرر أن يحمى نفسه تحت مظلة جواز سفر بريطانى • ولا يراعى موظفونا البريطانيون ـ في بعض الأحيان ـ الدقة الكافية في توزيع هـنه الوثاثق (جوازات السفر) وبهذا الاهمال يعرضون انفسهم لمسوء السمعة في المحاكم الشرقية • وظل محمد شفيع يجد بعض الصعوبات في تنفيذ خديعته • وقد ازعم القارىء ان رويت تفاصيل كل خداعه وأفعاله الثعلبية ، لكن يكفى أن اقول انه نجح في أن يثبت أنه غير مدان بفضل توجيه تابعيه في القنصلية ٠٠ وتوجه بجسارة الى جدة على ساحل شبه الجزيرة العربية مسلحا بدفاعه الجديد (جواز السفر) ودخل في شراكة مع الحاج والى الذي وثق به لصلاته وصيامه وحجه ، ففتح معه بابا للتجسسارة في العبيد بارسالهم للاسكندرية للبيع وكتب بوقاحة منقطعة النظير لشريكه أثه سيتمرف في العبيد بشكل شلخصي مخافة فقد جلواز السفر البريطاني والدماية الدريطانية ٠

وسرعان ما تسببت مغامرة غير محظوظة في توريط هذا المرعية البريطانية الفاضل (محمد شفيع) مع فرج يوسف كبير التجار في جدة وكان بدوره تحت حماية انجليزية • فخاف محمد شفيع من خصمه شديد الباس (كبير تجار جدة) وحزم مسروقاته ومنهوباتهوغادر جدة الي مصر • وسرعان ما دخل في نزاع مع شريكه السابق (الحاج والي) ظذا منه انه رجل هين وادعي أن له عنده ١٦٥ جنيها استرلينيا وأيد ادعاءه بوثيقة واربعة شهود زور كانوا مستعدين للقسم بأن الحاج والي قد وقع الايصال وختمه بخاتمه واستلم النقود المشار اليها آنفا ، فقام الحاج والي بتقديم دفاتره ليبين أن حساباته صحيحة واستطاع أن يثبت أن شهود محمد شفيع فقراء معدمون ومن هنا فان شهادتهم غير شرعية كما أن كل واحد منهم قد تلقى دولارين من المدعى (محمد شفيع) ثمنا لشهادة الزور •

والآن فلأن هذه المقضية كانت قد نظرتها المحكمة التركية ، فقد ثبت من طريق ضرب القدمين بعد ربطهما بالفلكة مد ان المصاج والى كان

قاجرا محترما ، اما محمد شفيع فمحتال سيء السمعة ، الا ان محمد شفيع كان من الرعايا البريطانيين مما اثر في مجريات المقضية بشكل ملحوظ وكي يسبب محمد شفيع لمخصمه مزيدا من الازعاج فقد صعد المقضية المقاهرة وبدأ اجراءاته هناك مطالبا باستلام جزء من البلغ الذي يطالب به فبمجرد وصوله للقاهرة مارس بجراة تقديم المرشداوي لكل من سيكون ذا نفع لمه فقد وزع الشيلان (جمع شال) والقروش ببذخ واستعان بمحام قدير ولبس لبوس المتقرى فقضي شهر رمضان صائما ، وضحى بخروف لاطعام المفقد المفتداء .

وفي هذه الأثناء فان الحاج والى وهو رجل بسيط وصادق لم يستطع ابدا أن يكون ساخنا وباردا في الوقت نفسه (لم يستطع اتقان فن الخداع) فحثه خدابخش - الهندى المراوغ - ليذهب للقاهرة ليتابع الأمور واعدا اياه بأن يقدمه لأشدخاص دوي نفود كما وعده أن يستقبله في بيته حتى يدير لنفسه اقامة في الوكالة • لكن محمد شفيع الذي كان شريكا لهذا الهندى المخادع (خدايخش) استطاع بالتوسل مرة وبالتهديد مرة أخرى أن يقنع خدابخش بالانفراد بلقاء الأشخاص ذوى النفوذ • عندئذ ظهر على مسرح الأحداث الحكيم عبد الله خادمكم المتواضع (٤) فالحكيم غيد الله كان قد سافر لبلاد الفرنجة وتعامل مع كثير من رجالهم وراى كثيرا من مدنهم ، وأصبح صديقا وناصحا للحاج والى ، واكتشف الحكيم عبد الله المسارب الشيطانية في حياة محمد شفيع · وقد خجل خدابخش من صنيعه أو بالأحرى خاف ، فجمع أصدقاءه الهدود ونبههم • ورفع المحكيم عبد الله المتماسا الى المسيد والين Walne قنصل بريطانيا باسم التجار المهنود وغيرهم من المقيمين في المقاهرة ـ الخبره فيه عن محمد شفيع وميلاده وشخصيته المحقيقية وعمله وانه تاجر رقيق وقدم البراهين على كل تأكيداته ، وتوسل الى القنصل حفاظا على السمعة الطيبة أن يسحب جواز السفر البريطاني من محمد شفيع ، وختم كل الهدود بأختامهم على هذا الالتماس • وعندئد هدد محمد شفيع بضرب الحاج والى ، ولم يكن الماج والى صنابا وانما كان رجلا ذا ابتسامة هادئة فطلب من الصدقائه أن يبعدوه عنه ٠

⁽٤) أي الدكتور عبد الله وهو بيرتون نفسه الذي يتحدث عن نفسه كثيرا بضمهر الغائب _ (المترجم) •

وقد يفترض الانسان أن مثل هذه الوثيقة قد تثير بعض التساؤلات ولكن الحاج والى كان يتمتع بالمحماية الفارسية وكانت الاتصالات بين القنصلين (البريطانى والفارسي) قبل تقديم الالتماس آنف الذكر و ان الرعايا البريطانيين الزائلين يعتبرون كالرعايا الحقيقيين ويجب حمايتهم والقناصل كالملوك قد يخطئون وان كان يتحتم عليهم غير ذلك وعلى أية حال فلم يلتفت أحد للالتماس المهندى (الذى قدمه الحكيم عبد الله) ولم يجر استجواب عن الأمور المتعلقة بتجارة الرقيق لأنه قد اتضح أن جواز السفر المنوح لحمد شفيع قد صدر من القنصل العام وبالتالى فلا يمكن وفقا للأعراف الرسمية أن يسحبه القنصل .

وهكذا عادت الأمور سيرتها الأولى فقد قدم محمد شفيع مبلغ ٠٠٠٠ قرش لمترجم القنصل الفارسي وقد رفضها بطبيعة الحال ، الا آن أمسور المحاج والى على أية حال بدأت كلها تسير في الطريق غير الصحيح فقد أسيئت ترجمة تقريره وأسيء فهم حساباته ومبرراته وتم تعويق القضية وضاعت في متاهات التأجيل المريب وعندما غادرت القاهرة كان الحاج والى قد ابتعد قرابة الشهرين عن اعماله وأسرته رغم أن الطرفين أظهرا رغبة في حل المنزاع عن طريق التحكيم لأن الموارد المالية للمدعى (محمد شفيع) كانت تتناقص بسرعة وعندما عدت الى القاهرة من شبه الجزيرة العربية كانت الأمور لازالت على حالتها ، وعندما بدأت رحلتي للهنسد في يناير لم تكن اجراءات القضية قد انتهت .

هذا موجز تاریخی ـ لکنه شائع جدا ـ لحالة یجد فیها احد رعایا الدول الشرقیة نفسه یعانی ویکافح ضد المنفوذ البریطانی ، ومما لا شك فیه انه من الشرف ان ندافع عن المتمتعین بحمایتنا ضد المظلم لکن ذلك لابد ان یرتکز علی دعائم من الأمانة والشرف ، ان اسوا ما فی هـنه القضیة ان الطرف المتضرر لم یلق الانصاف فشعار الحماة الطبیعیین للحاصلین علی الحمایة هو انتهاك القانون لارضاء غرور موظف انجلیزی تافه (٥) فبای وجه نستخدم الشعار الوطنی عندما یرید ترکی عاثر الحظ ان یستأنف الدعوی لدی السلطات العلیا ؟ کیف یصل لوزرائنا فبرلماننا ؟ فمن المنادر ان یکون اصحاب الدعاوی من طبقات اجتماعیة علیا او من نوی الثراء حیث تفرض المرتبة الاجتماعیة والثروة ـ الاحترام .

⁽٥) استشهد بيرتون في هذا المدد بهذا النص : Fiat injustitia, ruat Coelum.

وبعد أن دبرت لنفسى اقامة طويلة في الوكالة أصبح مدفى الأول. أن اتجول في العالم (المقصود أن أتجول في القاهرة) ففي أوروبا قد يعلن طبيبك المسافر عن فقد خاتم من الماس أهداه اليه حاكم روسي مستيد أو تشغل أخباره عمودا كاملا في صحيفة ، وريما تقاضي أجرا لجرد التوقيع ويمتلك أطباقا نحاسية كبيرة وعصا غطى مقبضها بالذهب ، ويركب مركبة بعجلات أربع ذات قعقعة رتيبة ويتلقى المدعوات لاكمال عمله ٠ اما هذا (في بلاد الشرق) فليس امام الطبيب هذا الطريق الملكي (المفروش بالورود) لاكتساب السمعة الطيبة اذ يجب عليك أن تبدأ _ كطبيب _ بالجلوس مع البواب ذي العينين « المعمصتين » الدامعتين ، فتقطر له فيهما قطرات من نترات الفضة وأنت تهمس في أذنه بمعلومات سارة وهي انك تعالج الفقراء مجانا • ويشفى البواب فتنتشى اقواله عنك طولا وعرضا فيزدحم بابك بالفقراء • انهم ياتون اليك كما لو كنت خادمهم فاذا شفوا اداروا ظهورهم لمك لللابد • والأطباء الأوربيون يشكون عادة من نكران الجميل من جانب مرضاهم الشرقيين • انه لأمر حقيقي انك اذا انقذت حياة انسان فمن الطبيعي أن يسالك عن وسائل الحفاظ عليها • وأكثر من هذا فليس في لغة أي بلد من البلدان الشرقية التي عرفتها تعبيرات تفيد معنى الامتنان ، كالتعبيرات التي نعرفها في اوروبا باستثناء الألمان الذين لديهم افكار يصعب شرحها بالكلمات • لكن يجب الا ننكر على الشرقي مسلكه هذا دون معرفة السبب، فهو يعتقد أن له حقا فيما يفيض عنك فهو يؤكد لك أن المله قد قسم الخبر اليومي بين الناس « قد قسم الرزق » فهو يأكل رغيفك ويعتبر ذلك حقا له ، وهو يشكر الله على نعمائه وعندما تزجى اليه خدمة فانت لم تفعل سوى ما يتحتم عليك عمله وقد لا يقدم لك ـ لقاء هذا ـ الا مديما بسيطا أو يدعو لك بايجاز بطول العمر . وهو يعبر عن شكره بقوله : « كثر الله خيرك » وأذا كان انانيا قال : « مد الله ظلك » أي. ظلك الذي يحتمي به هو وأتباعه وقد يكون هذا آخر ما تسمعه منه ٠

ان هذا لا يدعو لملارتياح فهذا البرود الميتافيزيقى الذى يصب فى قالب عقلى ، يتناقض بشكل بشع مع دفء الكرم ، وانى أقول انه من الناحية النظرية حوليس العملية حيصب الانسان أن يقابل وده بود مثله ، لكن الشرقيين لا يطبقون فكرة الالمتزام (الواجب) كما نطبقها ، فأى شيء أكثر ازعاجا من أنك عندما تجبر انسانا على توجيه النقد الشهديد لمنفسه بحصولك على شكر اسرته لك ، لتجد نفسك وقد أصبحت سيدا بعد أن كنت صديقا له ، ورجلا عظيما بعد أن كنت ندا له ؟ يجب اذن ألا تكون ودودا مجاملا اذا جعلتك هذه الاعتبارات تحول بينك وبين تقديم المعون لصديق ،

واكثر من هذا فاننى أقول رأيى المتواضع بأنك أن قدمت معسروفا لشخص فعليك أن تبقى خائفا من أحساسه بالامتنان •

وباختصار فعندما ترفعك جماهير الغوغاء الى مرتبة الشهرة فان المرضى من الطبقات الأعلى درجة سيظهرون بيطء على مسرحك ·

وبعد بعض الدلال عن الاتيكيت المتعلق بما اذا كنت أنت الذي ستزورهم أم أنهم هم الذين سيحضرون اليك ، ويقددون عقولهم لرؤية أحدوالك وليحكموا بعيونهم على مدى الثقة فيك ، ومن ناحية أخرى فانك تبدو متيقنا من أنهم ســـيأتون اليك ذات مرة عابرين نهر روبيكون Rubicon « سيعبرون النهر فجــاة طلبا لله » وبتعبير أقل كلاسية فأنهم سيبتلعون ما تقدمه لهم من دواء • واذا زرت منزل أحدهم فعليك بالتركيز على خدم المريض الذين يحضرون اليك ، ويجب أن يقدم لك حمارا لميكون تحت امرتك حتى لو اوصلك للجانب الآخر من الطريق · كما يجب ان تراعى أن يتحتم على تابعك أن يكون مستعدا للاجابة عن خمسين سؤالا من أسئلة البحث والتحرى في صالة الخدم ، كما يجب أن تنزل من فوق « بردعة » الحمار يترُّدة غير الخبير « بالبرادع » والحمير · وعندما تصل السلم ترقاه بوقار، وعند الوصول لغرفة المريض تحيى الحضور بقولك : « السلام عليكم » فياتيك الرد : « وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته » ثم تقول مخالفا المحقيقة : « لا خطر ، ما فيه الا العافية » فيكون الرد : « الله يعطيك العافية » فلكل اشارة أو كلمة هنا رد • ثم تجلس وتعرف الحضور بنفسك بأن تنحني وترفع يدك الى جبهتك وشفتيك فيرد كل واحد من الحضور بايماءة كايماءتك ثم ياتي دور السهوال عن صهمتك ويسهالونك عمها تشرب وقهد تطلب شيئا غير موجود بالمنزل ، الا انك - اخيرا - تطلب طلبا خشنا هـو شيشة وفنجان من القهوة ، ثم تتجه للمريض الذي يمد ذراعه اليك ويسالك عن سى الألم ثم تفحص لسانه ، وتتحسس نيضه وتبدو عليما وتترك المريض يملأ الوقت بالكلام وبعد سماع قائمة طويلة يكل علله تبدأ أنت في اكتشافها وكأنك تسير على طريق ملىء بالمصباء وبذلك ينهال عليك المديح. واثت بذلك تكون قد فعلت كما يفعل المعالم بفراسة الدماغ المتمرس - بشيء من التدريب _ على الاستنتاج • والمرض _ كي يكون جديرا بهذا الاسم _ يجب أن يرتبط باحد الأمزجة الأربعة temperaments أو العناصر الأربعة أو اخلاط أيقراط humours of Hippocrater · أن الشفاء يسير لكنه سيستغرق وقتا وانك (اى الطبيب) يتعين عليك الانتباه فان اى تجاوز بسيط لتعليماتك يمكن أن تقابله بالعقاب بأن تغير حبات الدواء أو المسحوق،

فالمجهل هو شرف المهنة فلن يرضى أحد باغضابك · واذا كان عليك أن تعاليم احد اصحاب المهن من أهل البلاد فيجب أن تنتقل أخيرا لاكتر مراحل الزيارة ازعاجا وهي مرحلة مناقشة الاتعاب • فليس من شيء أكثر مدعاة للشك في قدرة الطبيب من اهماله في المطالبة بأجره • لقد عالجت ذات مرة تاجـرا حضرميا ثريا من الروماتيزم وأهملت طلب أجرى فسرق أحد أقداح الشاى الخاصة بي ، وظل في حالة تعجب مستمر ، بسؤاله : من أي البلاد أتيت؟! لذا فقد طلبت منه خمسة قروش فالقي بها على السجادة وهو يلعن جسع الهنود · وقال صديقى الحاج والى عندما سمع بذلك : « انك سوف تسبب لمه مرضا آخر » والأجرة التي يدفعها مريض محترم هي عشرون قرشا، أما بالنسبة للمريض الثرى فانك تبدأ معه بالمساومة ، فان كان يشكو _ على سبيل المثال _ من الزحار (الدوسنتاريا) وعرق النسا ، فاطلب عشسرة جنبهات استرلينية للزحار وعشرين لعرق النسا • لكنك نادرا ما تأخسد ما تريد ٠ فالشرقي يدفع أجر الطبيب وهو متضرر ٠ واعلم أن مريضك سيوف تتجلى له علامات مؤكدة على نقاهته فيضحك ويظل يسخر طــوال النهار • فاذا ظهرت انت له شرع في التوجع وظهر الاشمئناط على ملاسحه وتظاهر بالشكوى وهو يرحب بك • وفي هذه الحال عليك أن تلقى بعض العبارات التي تحمل ايماءات أو معانى معينة كقولك : «دنيا رميم ما يجرى وراءها الا الكلاب » ثم عليك أن ترفض علاج الأعراض الثانوية أو الآلام الأخرى التى قد تعيد العنيد الى صوبه ، وعلى أية حال فثمة شخر غربى يفيد أن « كل ما يفعله جالينوس هو أنه يدل مريضه على ضرورات الدياة » · ولابد أن يكون ما تصفه من دواء جامدا ملموسا ماديا ، وتحسن فعلا كلما جعلت العلاج يسبب للمريض بعض الألم كأن تشرط جلده أو تحكه بفرشاة تنظيف الخيل (٦) ٠

والشرقيون مثلهم مثل فلاحينا في اوروبا يرغبون في استدعاء الطبيب المعرفوا قيمة نقودهم » ، كما انهم يتصورون ان العلاج القاسى المؤلم يؤدى فلشفاء فقد كان طبيب الملك الفارسي يعالج الحمي بالمضرب «بالفلكة» ، وكان المرضى في بغداد « يخبرون » في الأفران لتحقيق الشفاء ، والمصرى الى الاسكندرية يلجأ الى بعض شيوخ العرب لكيه على ام راسه كعلاج من حمي الدبيع التي تستعصى على اقوى انواع العلاج في اوروبا · وعندما تجهز

⁽٢) حدثنا الرحالة بوركهارت عن الاطباء الأوربيين في الشرق فاسف لأن عددا كبيرا من الاطباء الافاقين تزدحم بهم بلدان الشرق : رحلة بوركهارت في شبه جزيرة العرب • ترجمة د • عبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد العزيز الهلابي •

الدواء ويصبح فى قبضة يدك ، ضع منه ست حبات كبيرة من أقسراص الخبز ، وانقعها فى الصبر (الصبار) أو محلول القرفة منكهة بالمحليب للذى يعد علاجا كافيا لسوء الهضم ـ واذا كان المريض الذى يتناول هذا المعلاج لايقصد الحمية وانما العلاج فلابد أن يقول أثناء تناول الدواء : «بسم الله الرحمن الرحيم» وبعد تجرعه يقول : «الحمد لله الشافى المعافى» وبعد ذلك على الطبيب أن يحضر ورقا وقلما ويكتب « وصفة طبية شافية » كالتالى :

(Y)1

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه اجمعين ، وبعد ذلك دع المريض يتناول عسل النحل والقرفة وزلال البيض album graecum ، نصف جزء من كل منها ، وزنجبيل ، جزء كامل (٨) – ويطحن الزنجبيل ويخلط بعسل النحل ويشكل على هيئة اقراص أو مضغات « بلابيع » يزن كل قرص مثقالا Miskal ، يتناول المريض قرصا على الريق (قبل الافطار) • والحقيقة أن نتائج هذا العلاج مبهرة ويأكل المريض سمكا ولحما وخضروات وحلوى بالاضافة للأطعمة التى تملأ البطن Flatulant food وحمضيات من كل الأصلفة الملك ويستحم المريض ويعيش دون توتر ، وبذلك سيشفى بمساعدة الملك وللشافى ، والسلام » •

ونادرا ما أحتاج للقول ان الحمية لابد أن تكون صارمة ، فلا داعى لمذلك وليس أكثر ازعاجا من أن تفرض نظام العلاج الأوربى على أهل الشرق دون مراعاة لمطرائقهم الخاصة في العلاج ، فالهندى عندما يتناول دواءه ، يكون قد أعد نفسه لتناوله بالحمية والراحة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة وبعد تناول الجرعة يشرع بالمتدريج في العودة لمعاداته المعتادة ، فاذا كسر الحمية أو أفطر بعد صوم (بشره) فان ذلك يؤدى لنتائج سيئة بالتأكيد وكان المصريون القدماء حكما أخبرنا هيرودوت سيخت بالتأكيد عدة أيام من كل شهر لتناول حبوب التغيير alteratives يخصصون عدة أيام من كل شهر لتناول حبوب التغيير وتغيه رودوع رقمد يكون المعنى تنهاول مسهد او شهرية أو تغيه رودوع والمدين المعرودون عدة أيام من كل شهر التناول حبوب التغيير وتغيه والمعرود والمديد والمدين المعرود والمعرود والمعر

⁽٧) هذا الحرف يكتب في راس الوصفة الطبية ، انه الحرف الأول من لفظ الجلالة (اش) أو « الحرف الأول من (الألفباء - أو الهجائية العربية) يستخدم منذ زمن طويل للأشارة لأصل الخليقة ، فالله - سبحائه - هو الأول والآخر ، (بيرتون)

⁽٨) أى بنسبة ٢ الى ١ : نسبة ٢ : للزنجبيل ، ونسبة ١ تمثل العناصر الاخرى ٠ (المترجم) ٠

الطعام (الما الفرس فكانوا يغلقون على انفسهم فى حجرة دافئة بمجرد استيقاظهم (على الريق) ويظلون فى هذه الغرفة عراة مع الحفاظ على انفسهم تماما من البرد ، ويشربون فى هذه الأثناء ماء فاترا ، وعندما يجد الأمراء الأفغان من الضرورة استخدام جذور الجنسنج (أو الجذور الصينية وتسمى ايضا شوشيني المناكل وهى جدور نباتية نات شهرة كبيرة كمطهر ومقو عام ومثير للشهوة الجنسية) فانهم الامراء الأفغان يختارون لذلك فصل الربيع فيذهبون الى أحد البساتين حيث الزهور والأشجار وحيث خرير مياه القنوات والجداول للتهدئة اعصابهم ومشاعرهم ، ويتجنبون المتاعب والمشاكل بمختلف انواعها ، ولا يقرءون حتى خطابا مخافة أن يحدى انباء مزعجة ،

وبعد كتابة الوصفة الطبية عليك أن تختمها بختمك في بدايتها ونهايتها حتى لا يتمكن أحد من حذف شيء أو اضافة شيء وعند ارسال الدواء الى مريض من الأعيان له أعداء ، فلابد أن تأخذ حذرك (على نحو ما أخذت حذرك عند كتابة الوصفة الطبية) مخافة فتح صناديق أو قوارير الدواء ، فان أحد الباشوات الذين عالمجتهم احتفظ بصورة شمسية طبق الأصل من ختمي ليقارنه بالمختم الذي أضعه على قوارير الدواء : وقد كان هذا الباشا مقاتلا شمجاعا أثيرا لدى محمد على ، لذا فقد عزله خليفته والناس لم ينسوا كيف أنه في فترات سابقة عانى الذين تعرضوا للدولة بما هو ضار للولام مفاجئة مميتة في الأمعاء ولذا فان على الطبيب أن يتخذ الحيطة والا فان كل النتائج السيئة يمكن أن تقع على راسه أو يتعرض لانتقام أسرة المصاب و

ورغم أن القاهرة زاخرة بالعاملين في مجال الطب الا أنها يمكن ان تنجب مزيدا منهم . ومع هذا فلكي يزدهس عمل الطبيب ويحظى بالشهرة لابد أن يكون هنديا أو صينيا أو من بلاد المغرب • والمصريون لا يحترمون طرق العلاج الأوربية جملة وتفصيلا كما هو الحال في الهند • والمصريون يجهاون الطب الهندى لذا فهم يقدرونه تقديرا كبيرا ، وربما كان ارتفاع شانه بينهم انه بسيط ويعتمد على الحمية ، بالاضـافة الى ان الهنود يتعاملون بالأحجبة والتعاويذ وهي أمور بدأ الناس يعتقدون في تأثيرها وجدواها في كل مكان حتى في أوربا • والرحالة الذين لا يبهرهم البرق والرعد على ضفاف نهر السين ، كما لا تبهرهم خفقات التنويم المغناطيسي أو المعاب المائدة السمدرية - يرون في التتار المتوحشين وفي أهل الدّبت شيئًا فوق الطبيعة وشيئًا شيطانيا في شيفا Sei-fa of وبعض الأذكياء الذين ينظهر اليهم أصهدقاؤهم the Bokte كفلاسفة يقعون في حبائل تعاويذ سحرة القاهرة ذوى العمائم واللحي ٠ وفى مستعمراتنا بغرب افريقيا يطلق مصطلح « الانتحاء للسواد » أو « النمو الأسود » على الاستعماريين البيض الذين أصبحوا متشبعين تماما بالمضرافات المتعلقة بالأرض (أو المضوف اللاعقلاني من الأرض) بعد فترة مِن الاقامة هناك • والعناصر الهندو أوربية وهم قوم أذكياء قد سجلوا في حكاياتهم وعقائدهم ايمانا راسخا بامور صبيانية يصعب حتى على الهندوس تصديقها • وقد كنتُ استطيع استخدام المغناطيسية الحيوية animal magnetism كالمهنود · وعلى أية حال فقد كنت حريصا ان أعطى العلم مظهرا غيبيا خادعا • وقد أظهر الحاج والى الذي كان من الآخنِين بمبدأ الشبك الايجابي قلقا ونصحني ألا أمارس التنويم المغناطيسي الحقيقي والا أصبحت يقينا « رفيقا للشياطين » . لقد قال لي صديقي : « يجب أن تسمى ما تقوم به سرا هنديا لأنه من الواضيح انك لست من المشايخ ، وسيسال الناس : أين الدواء الذي تقدمه ، وما شائك أنت بالتعاويذ والرقى » ولم تكن هناك فائدة من أن أقول له اننى اتبع خطى هذه الجماعة من المشايخ ، فحتى المرضى قد يعتبرون انفسهم من المريدين لى ومن ثم يبتهجون بتقبيل يدى كصاحب « نفس ه وهو ما يعنى اننى « شيخ في رتبة دون الولى » · وقد كافائي الحاج والى على انقيادى له وطاعتى اياه بأن راح يبالغ في كل مكان واصفا اياى بأننى زينة الأطباء * وكانت أولى نجاحاتي في الوكالة ، فقد كان يسكن قبالتي تاجر رقيق عربي سقطت جوارية الحبشيات مريضا الواحدة تلو الأخرى • انهن من جنس واهن ضعيف ، فقد عانين عند وصولهن الى مصر للمرة الأولى لمتاعب صحية كثيرة خاصسة من السل والزحار (الدوسنتاريا) والدوالي وقد نجحت في علاج الجارية الأولى التي كان ا ثمنها يبلغ خمسة عشر جنيها على الأقل ، وكان عرفان مالكها لفضلي كبيرا ، وكان على أن أقسدم الدواء لست جسوار أخريات لمعاناتهن من الأنيميا والشخير اثناء النوم الأمر الذي يقلل من اثمانهن • وكانت معيشة الجوارى في الغرفة المواجهة لى ورؤيتي لهن طوال ساعات النهار والليل قد أتاحت لى فرصة كبيرة لمدراسة أحوالهن · لقد كن منالا لسسلالة الحبشيات المتأليات (نوات الالية أو العجيزة الكبيرة التي يتراكم فيها الشمم) وكن ذوات أكتاف عريضة ونحيلات الخصور ورقيقات الشفاه , الما الدافهن فمن الحجم المعتبر • وليس الآية واحدة منهن ملامح جميلة ، فالشعر قصير جعد ، يقف في مؤخرة رؤوسيهن مختفيا تحت مناديل الرئس، وان كن لم يعدمن بعض الجمال في حواجبهن وعيونهن والجوانب العليا من انوفهن • ولهن شفاه متدلية عطشي وافكاك ضخمة وافواه بارزة ، الا أن الواحدة منهن - بشكل عام (دون تدقيق في ملمح معين من ملامحها) فيها مزيج من الحرافة والحلاوة · وأسلوبهن في هز الجسم مميز • واذا قلت لاحداهن ولمتكن مريم : « يا لك من جميلة يا مريم • • ما أجمل عينيك !! ما أحسن • • • هقد تجيب : « ألا تشدريني ؟! » عقيدتنا واحدة تحقق السعادة لكلينا لم لا تشتريني ! » فأقول : « صدقيني يا مريم • • مباركان هما القلبان • • » فتقول : « اذن لماذا لا تشتريني ؟! » وهكذا يستمر الحوار مما يعد غصة في حلق كيوبيد تخرس بلاغته • ومع أن رد مريم لم يكن مباشرا صريحا ، فانه غالبا ما يكون من قدرنا في الغرب - كما في الشرق - أن ذرى في العيون البراقة وأن نسمع من الشفاه الوردية تلميحا - ان لم يكن تصريحا - هذه العبارة : « لم لا تشتطيع شرائي ؟! » •

وكان كل ما طلبته مقابل خدماتي لتاجر الرقيق أن يأخذني معه في جولة بالقاهرة وأن يشرح لى اسرار مهنته فعرفت معلومات قد تكون مفدة عندما يحين سياق سردها • ولم يشك الرجل الا قليلا في حقيقة سائله ، وراح من خلال عدم ارتيابه هذا يتناول موضعوع الرقيق الذي يتم اصطياده من مناطق الصومال وزنجبار ، كما راح يتناول كل الموضوعات ذات الأهمية الفائقة بالنسبة لى • وعلى أية حال ، فهو لم يذكر جديدا يستحق أن أسجله عن الوضيع الحالي لوكلاء الرقيق في مصر ٠ لقد عرف الانجلين لتوهم أن العبيد ليسوا بالمضرورة أكثر الناس بؤسا واحدلهم مرتبة · فهناك من لديه الشجاعة الكافية ليخبر الشعب الانجليازي أن الرقيق في بلاد الشرق عامة ، يأكل افضل بكثير من الخدم أو حتى من أفراد الطبقات الدنيا ممن هم ليسوا عبيدا ، وهذا أمر حقيقى · « فالشريعة الاسلامية تلزم المسلمين بمعاملة رقيقهم برقة بالمغة ، والمسلمون _ بشكل عام ـ حريصون على الأخذ بتعاليم نبيهم · فالرقيق يعد فردا من أفسراد الأسرة ، وفي البيوت حيث يوجد الخدم الأحرار ، نادرا ما يقوم الرقيق بأى عمل خلا تعمير الشيشة (حشوها بالتمباك) ، واعداد القهوة ، ومرافقة سيدهم عند خروجه ، وتدليك قدمه عندما يستريح في القيلولة وذب الذباب عنه • وعندما لا يكون العبد راضيا بمعيشته فقى وسعه ان يجبر سيده على بيعه بالطرق المشروعة • والعبد في بلاد الشرق ، لا ينعي هم الطعام أو السكن أو اللباس أو الاستحمام ، كما أنه معفى من دفع الضرائب ، ومعفى من الخدمة العسكرية ومن دفع أي مبالغ لسيده • ورغم عبوديته فهو في الحقيقة اكثر حسرية من الفسلاح المصرى الحسر » • اعتقد أن هذا هو الوضع الحقيقي لملرقيق ، وإن كان هذا بطبيعة الحال ، لا يؤثر مطلقاً في قضية الرق بشكلها المجرد • وقد حققت شهرة خاصةً نتيجة علاجى الناجع للجوارى الحبشيات ، فقد قام صديقى الحاج والى باذاعة خبر ذلك في مختلف انحاء القاهرة ، وقبل انقضاء خمسة عشر يوما ، وجدت نفسى مضطرا الى التخفيف من مهارتى فى العلاج حتى التخفيف من تهديد الشهرة (اتخلص مما تجره على الشهرة فى هدا المضمار من متاعب) وتعتبر مشكلة الخدم من اكثر المشاكل اثارة للمتاعب للانجليز فى مصر ، وعلى نصو خاص بالنسبة للشخص الذى يسافر باعتباره شخصا محترما (ذا مكانة) من أهل البلاد ، اذ يتوقع الجميع أن يصحبه عبيده .

« Berberi وبعد تفكير عميق ، قررت أن يكون بصحبتى « بربرى وعلى هذا فقد دعوت شيخا a Snaykh - اذ يوجد شيخ لكل شيء يدءا من اللصوص في « الشرق » ، وقد عرف هذا الأمر في مصر منذ أيام ديودور الصقلي Diodorus Siculus » ـ وعرفته بطلبي • وفائمة الأشياء الضرورية (الأمور التي لابد منها) Sines qua nons تعد اكثر ضرورة واهمية من القائمة الموسعة (التي تغص بالتفاصيل) وكانت هائمة الطلبات التي قدمتها تشتمل على : الصحة الجيدة ، والاسستعداد للسفر الى اى مكان ، ومهارة بسيطة في الطهي ، والقدرة على الحياكة والغسل ، والاستعداد للدخول في مشاجرات ، وأن يكون متعودا على اداء الصلوات في مواقيتها • وبعد يوم احضر الشبيخ لي رجلا من اختياره عريض الكتفين ، مقوس الساقين ينم عن ملامح كملامح البلدج (وهو كاب جرىء شرس كبير الراس ، قصير الشعر) وهي الملامح المعتادة للبرابرة وبالنسبة لهذا الشخص البربرى الندى أحضره الشسيخ فقد كان يصرك عينيه بشكل مبالغ فيه اذ كان جفناه متدليين ، وكان السبب في هذا التشوه انه وضع في عينيه عصيرا حمضيا ليتهرب من السخرة (أو التجنيد الالزامي Conscription)) وقد أجاب عن كل استلتى بديات • وكان بعض الصبية والرجال المصريين الحمقى يثيرون الضوضاء بالمكان ، فطردهم بحزم هادىء بعد استئذانى * وعندما تناول الايرة والخيط والمنديل ذي الأطراف غير المخاطة - جلس وقبض على حافة المنديل باصبعى قدميه (الاصبع الكبير والذى يليه) ، وأنهى حياكة اطراف المنديل بأسلوب هادىء ومتقن . ولما خرج تسلح بكرباج يستخدمه الآن استخداما رقيقا ، أما مع أي دابة من دواب التحميل فهو يستخدمه بشدة ، سواء أكانت هذه الدابة من ذوات الاثنين أم من ذوات الأربع كما اثبت ذات المهارة في أمور المطبخ ، وبعد أخذ الضمانات الأمنية منه ومعرفة اسمه وتسجيله طرف الشيخ اتفقت معه على دفع ثمانين قرشا شهريا • لكن عليا الربري وأنا كنا نضمر الانتسال فقبل Surat مرور اسبوعين قام بطعن تابعه الخادم - وهو صبى من سورات

كان راغبا في العودة الى بيته ، ليجبره على خدمتى وبسبب هذه الحادثة فقد تلقى ٤٠٠ ضربة على قدميه بأمر من ضابط الشرطة كما عاقبته بالطرد من خدمتي • وبعد هذا الفشل جربت عددا من الخدم من الصعايدة والبرابرة الذين يعبرون عن الشيء ونقيضه بعبارة واحدة Clean and unclean eating بتوصية من شيوخ مختلفين ، فقد كان في كال منهم عياوي خطيرة ، فأحدهم خدعني بطيش ، وآخر سرقني ، والشالث سكير ، اما الرابع فقد كران دوما متهرب من تنفيذ أو امرى (يخرق أو امر يوليوس قيصر) أما الأخير فقد كان نوبيا ذا قدمين طويلتين ، وبعد أن مكث في البيت يومين تخلى عنى يسبب تصميمي على السفر بحرا من السويس الى ينبع • وقد احتفظت برجل واحد شكا أنه كان يعمل حتى الموت • والسبب الثاني ، أنه لم يكن لهم من عمل الا العراك ، والسبب الثالث أنهم تركوني فلم يبق الا أن تخدم نفسى كما قال قديما السيد الوزير Elwes • وأخيرا فقد قررت أن استيقى الولد الهندى فقط في خدمتي لأنني تعبت تماما من الخدم المصريين ، كما أن خادما واحدا كان كافيا .. في الحقيقة .. لخدمتي ، كما انه مناسب لرتبتي (مكانتي الاجتماعية) المفترضة ٠ لقد كان في هذا الولد الهندى كل عيوب أهل الهند ، فبينما كان شجاعا في القاهرة ، كان جبانا بكل ما في الكلمة من معنى في المدينة (المنورة) وكان البدو يحتقرونه احتقارا تاما (يحتقرونه حتى النضاع) لتخنئه خاصحة عندما يبرك جمله للنزول من فوقه ، كما أنه لم يكن يستطيع أن يصون يديه من الاختلاس والسرقة • ومع هذا فان اختياره لم يكن يخلو من مزايا فيشرته الداكنة ، وملامحه الممتلئة جعلت العرب يدعونه عبدا حبشيا ، وكان ذلك لصالح قناعي (لصالح تأكيد شخصيتي التي ادعيتها) • فلم اكن أمتم بتكذيب قولهم ٠ لقد كان يخدمني بشكل جيد ، كما كان سهل الانقياد لنظامى ، كما كان معتمدا على اعتمادا كليا لذا فقد كان اقل رغبة في مراقبتي خاصة فيما يتعلق بالثرثرة عما اتخذه من أعمال واجراءات ٠ وقد قمنا بالحج معا كسيد وتابعه الا أنه بعد عودتي لمصر بعد اتمام الدج تحول الشبيخ نور (الذي أصبح لمقبه الحاج) الى الأسدوا بعد أن وجد نفسه بمثابة صاحب (صديق (Sahib)) لى • فلم يعد يعمل وكرس كل طا قته السرقة الأشبياء الصنفيرة ، وامتد نشاطه هذا بشكل متهور ليشمل أصدقائي ٠

وقد يكون القارىء محبا الاستطلاع المصروفات الضرورية التى يتطلبها العزب المقيم بالقاهدرة • والابد أن تلاجظ على أية حال -

مى هذه القائمة التالية أننى لم أكن مقتصدا حازما ، بالاضافة الى ائنى كنت غريبا فى القاهرة ، فالسكان والمقيمون يمكنهم العيش بمستوى جيد بانفاق أكثر من ثلثى هذا المبلغ .

Faddah	Piasters		•
فضة	قروش		
37	langua (francosa)	ا في الشبهر	ايجار المنزل ١٨ قرش
77	۲		خادم ۸۰ قرشا شهری
٥	Minimum	۱۰ بیضات	افطار لى وللخادم
١٠	Statusformi	قهوة	,
Section Control	١	بطيخة (الآن ٥ قروش)	•
١.	Provinced	لمفتان من الخبر	
۲٠	۲	رطلان من اللحم	غداء
1.	Manustripenshind	لفتان من الخبن	
۲.	20co-in-Français	خضروات	
٥	Mary population of the Control of th	ارز	
No.com/Jought	١	زيت وسىمن	
	١	قربة من ماء النيل	
wat 10***	١	ر (تمباك) (^٩)	نثريات توباكر
۲.	٣	أجرة الحمام	(متفرقات)
-	***********	•	
٥٠	17	الاجمالي	

واجمالي المبلغ يساوى حوالي شلنين وستة بنسات

ومن فى القاهرة ـ فى هذه الأيام ـ لا يتبع شيخا ؟! لقد وجدت من الصواب أن أتمشى مع العادات السائدة · لذلك فبعد أن دبرت لنفسى خادما ، وجهت جهدى للبحث عن معلم متذرعا بأننى كطبيب هندى فلابد لى من قراءة المؤلفات العربية فى مجال الطب ، كما أريد أن أدرب لسانى

⁽٩) فى مصر أربعة أنواع من التعباك الفضلها المسمى لاتاكيا Latakia ويعرف بالجبلى ، والعجمى والحمى (بكسر الحساء وتشديد اليم) والسسورى ٠٠ (عن تعليق بيرتون) ٠

على النطق السليم ، وأن أزداد يقينا بالله تعالى وكانت دراستى الاسلامية في مجال مذهب الامام الشافعي · وقد وقع اختياري على هذا المذهب لسببين : اولهما أنه أيسر المذاهب الأربعة ، وثانيهما أنه أقرب المذاهب السنية الى الهرطقة الشبيعية التي أدى المامي بها ، واتصالى بالمفرس الى تحقيق شمهرة في هذا المجال وعلى أية حال فان اختيارى لمذهب من المذاهب أكد للمحيطين بي أننى زنديق أو من أهل البدع ، وذلك لأن الشسيعي (العجمى) قد تلقن جيدا أن يكف عن مهاجمة المناهب الأخرى على سبيل التقية (١٠) خاصة في البلاد التي يكون فيها التعبير الصريح خطرا، ومن هنا فان الشيعى الذي يزعم في مواقف الخطر أنه شافعي لأن المذهب الشافعي كما قلنا « قريب من الهرطقات الفارسية » (١١) هذا بالاضافة الى خطئى الأساسي بظهوري في الاسكندرية باعتبادي « ميرزا « Mirza في لباس عجمي ، فان ذلك قد سبب لي مضايقات صغيرة كثيرة في القاهرة رغم كل الاحتياطات والتحايلات • وخلال رحلتي في شبه الجزيرة العريبة كنت منبوذا لأن الشهرة السيئة علقت بي كقميص نيوسسوس Nessus _ رغـم اننى كنت اسحب سكينى في كل وقت كاشمارة

ولم يمض وقت طويل حتى اهتديت الى مدرس ممتاز هـو الشيخ محمد العطار ، وكان عطارا بالفعل ، وكان معروفا بالمثراء وكان فى يوم من الأيام خطيبا فى احد مساجد محمد على ، لكن الباشا الراحل طرده من الخطابة ، وزامن طرده من الخطابة حادث سيىء وسلسلة من المتاعب فقد تزوج فى هذا اليوم الأسود وتحدث معها خارج البيت باعتباره سيدا صارما يتعامل مع جارية غير مطيعة وبالنظر الى سحنته فاننى اعتقد انه ــ داخل البيت ايضا ــ من النوع المتسلط ، وكان طرده من وظيفة الخطابة هو السبب لرجوعه الي مهنة العطارة التى تعد ملجا لمن كانوا اثرياء يوما ما رغم ان العطارين يعتبرون الآن حكماء مصر (اطباء مصر) ويقع دكان محمد العطار فى حى الجمالية، وهو دكان صغير لا يتعدى خمسة اقدام

⁽١٠) التقية هي أن يظهر الانسان غير ما يبطن ـ وهي مبدأ خطير جدا خاصه اذا امتدت لسائر مظاهر الحياة الاجتماعية ، وهو ما حدث بالفعل في بعض المناطق • وربعا أدت الظروف السياسية منذ عهد الدولة الأمرية الى استشراء هذا المبدأ الخطير • ولا علاقة للمذهب الشافعي بالشيعة والتشيع كما سيتضح من الحاشية التالية • (المترجم)

⁽۱۱) لا علاقة للمذهب الشافعى اطلاقا بعا يسعيه بيرتون الهرطقات الفارسية فالذهب الشافعى لم يتعرض لاحقية لامام على رضى الله عنه بالخلافة بعد الرسول ، ولا يجمع المصلوات من غير سفر ، ولا يضيف للأذان شيئا وانما كاذان المذاهب السنية الأخرى ، وكتاب « الام » للامام الشافعى لا يوصى « بالتقية » • • النخ ولا ندرى من أين أتى بيرتون بهذا الكلام .. (المترجم) •

عرضا وستة أقدام عمقا مخترقا جدار بعض البيوت وهو مقسوم الي قسمين مستقلين يفصلهما فاصل خشبى رقيق ويتصلان بنوع من العقود (فتحات تتخذ الواحدة منها شكل قوس) في هذا العازل الخشبي ٠ وثمة صندوق في خلفية الدكان بمثابة ردهة تستخدم كمخزن حيث السلال القديمة الفارغة الغارقة في الأتربة متناثرة على ارضية قذرة ، اما في مقدمة الدكان فتم عرض البضائع التي يتاجر فيها : سلال من حصير مليتة بالتمباك العجمى ، وشبيش (جمع شبيشة) من فخار أحمر ومقاطف أو « قفف » بها بن من النوع الردىء وأقماع سكر كبيرة بيضاء مائلة للصفرة ملفوفة في ورق بني اغمق من اللون البني الذي يعترى السكر الأبيض • وعلى الأرفف والأفاريز (جمع افريز وهي الأجزاء الناتئة من جدران الدكان) توجد صفوف من صناديق خشبية قد نعمت لكثرة استخدامها ولمسها ، وقد كتبت عليها محتوياتها باهمال شديد ، فقد كتب « فلفل أسبود » على الصندوق الذي يحوى « الراوند » وكتب « الزرنيخ » على الصندوق الذي يحوى « الطفل » وهو قطع من الفخار تستخدم في حك الجسم عند الاستحمام ، كما كتب « سلفات الحديد » على الصندوق الذى يحوى « ملح النشادر » ويوجد أيضا صندوق مكعب مغلق « بالمضبة » والمفتاح به عملات صنغيرة وبعض المواد مثل العطور « المضرة » وكحل ردىء للعيون ومستحضرات تجميل « ضارة » خاصة تلك التي تستخدم لجعل لون الشفتين أو الوجه أحمر ، ويتدلى من السقف كفتان عتيقتان صدئتان تتأرجمان بوهن ، وبالنسبة للكلاليب (جمع كلاب) أو الخطاطيف في مقدمة الدكان فهي قصبات معلقة للشيش وللشموع المصنوعة من شحم حيواني والشموع النحيلة القذرة واوراق السحائر « البفرة ») وقد علقت هذه المعروضات بدلا من عرضها في واجهات زجاجية • وثمة شبكة مهترئة تمنع دخول الذباب عندما يكون صاحب الدكان موجودا بداخله وتمنع دخول اللصوص عندما يكون خارجه لتلاوة سىورة يس - يوميا - في مسبجد الحسنين ، والمزلاج الخشبي الذي يغلق الدكان ليلا عبارة عن جريدتين في الغاية من القذارة ومليئتين بالبراغيث وقد وضعتا على المصطبة المعدة لمراحة المشترين ، هذا هـو الوصف الكامل لأثاث دكان معلمي ، وعلى المصطبة يجلس معلمي أو بالأحرى يضطجع لأننى حقيقة أعتقد أنه ينام ثلاثة أرباع اليوم وهو رجل عجوز بخيل في حوالى الثامنة والخمسين من العمر ، له ملامح تنبيء أنها كانت وسيمة ومتناسقة ، ولمه وجه شاحب وراس حليق ووجنتان مجعدتان بشدة ، وعينان غائمتان دامعتان يعوزهما الأمل ولمحية شيياء لم تعرف الدهان أو المشط ، أما عمامته فرغم ضخامتها فقد اعتراها الاسوداد والبلي أما معطفه وسائر ملابسه فتزخر بالرقع والثقوب الواسسعة • ويداه

تبدوان دائما غير نظيفة مع أنه من المفترض أنها نظيفة لأنه يغسل يديه باستمرار لقيامه بالموضوء الذى يسبق الصلوات ، وانه لأمر يدعو للدهشة أن تراه في الغاية من الشراسة والفظاظة مع الأولاد الصعفار والبنات الصغيرات الذين يأتون اليه طالبين قدرا قليلا من الفلفل والسكر • ففي مثل هذه المناسبات أجلس متعجبا من رؤيته - عندما يكون منهكا - يتخذ من مكانه محورا ، فيمد يده _ وهو جالس _ ليصل _ بعد أن يمد جسمه الى درج بعيد ، أو ليطول صندوقا وينزله من رفه المعتاد • وانى لأدهش كيف يؤدى صلاته بما فيها من ركوع وسنجود على سنجادة مهترئة لا تزيد على قدمين مربعين لا تكاد تكفى لنوم طفل بريطاني ؟! • وهدو لا يقر بجهله بمهنة العطارة وقلما يجلس احد على المصطبة أمام دكانه (يعنى لا يتردد عليه الزبائن بكثرة) • وتبدو سعادته الكبرى عندما أجلس أنا والحاج والى معه بضع بقائق في المساء ، محضرين معنا شبيشتنا حيث يقوم باعدادها لندخنها ، ويقوم باعداد القهوة التي يقوم بتحليتها من اقماع السكر في دكانه الصغير · ففي هذه المناسبة نجعله يتكلم ويضدك ويستشهد في بعض المناسبات بأسطر قليلة باعثة على الأغراق في الضحك '

لقد كنا نستثيره ليقص علينا حكايات طويلة عن الحب السدى شمله به أيام دراسته الشيخ عبد الرحمن الرجل العظيم ، وعن الكراهية الفطرية التى كان يكنها لمه الشيخ نصر الدين الرجل العظيم والصالح نثم نناقش معه أمور العقيدة ثم نمزح معه بالتعريج على مدى فحولته ثم نمدحه واضعين تقدمه في السن باعتبارنا بعبارات على شاكلة: « الماء من يديك كماء زمزم » أو « سالناك الدعاء ! » • وفي بعض الأحيان نحته على صحبتنا للحمام ، وهناك يصر على دفع أقل مبلغ ويتعارك مع أى شيء وكل شخص ويسبب ازعاجا لآحد له • وبشكل عام فانني والحاج والى زائراه الوحيدان ، فمعارفه فيما يبدو قليلون وليس له أصدقاء ، ولابد أنه كان له في يوم من الأيام أصدقاء عندما كان غنيا أما الآن فقد فر الأصدقاء من العجوز الفقير •

وعندما يجلس الشيخ محمد معى أو أقفز أنا الى دكانه الصغير لتلقى الدرس فيه يكون على راحته بمعنى أنه يقرأ عندما يريد أو يجعلنى أقرأ ، وغالبا ما يبدأ كل درس من دروسه ببعض اللوازم التى لا تفسارقه كقوله: « أيوه ١٠ أيوه ١٠ استعنا بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ويقول المؤلف رحمه الله تعالى القسم الأول من الفصل الثانى عن كيعية الصلاة ١٠٠ وهكذا » .

ويصبح ساخرا عنيفا عندما أختلف معه في الرأى خاصة فيما يتعلق بقواعد النحو أو العقيدة التي ظل يدرسها حتى شابت لحيته ، فيقول: «سبحان الله ٠٠ ما هذا الكلام ٠ ان كنت على حق فكبر عمامتك كالمشايخ من أهل العلم وارم عقاقيرك لأن الأفضل لك أن تنقذ الأرواح بدلا من أن تحطم الأبدان ٠٠٠ يا عبد الله » وهو كالمشرقيين يجد نفسه في تقديم النصائح الطيبة ، كأن يقول! «أنت دائما تكتب يا «جدع » من اى شيطان أتتك هذه العادة ، لابد أنك تعلمت ذلك من بلاد الفرنجة ٠٠٠ استغفر الله » وهو يقول ذلك في المناسبات القليلة عندما أغامر بكتابة ملحوظة مجانا فيقول: «أطباء مصر لا يكتبون ألف باء دون أن يتلقوا على ملحوظة مجانا فيقول: «أطباء مصر لا يكتبون ألف باء دون أن يتلقوا على خلت من تلقى الأجر لله فأله فان عليك اطعامهما ما لماذا تخجل وتصلي خجلت من تلقى الأجر لله فالأفضل لك أن تذهب للجبل أو الصحراء وتصلي حباح مساء » وأخيرا فانه مبذر في الحديث عن مصاريف البيت: «خادمك لم يسبجل جنيهين ثمن اللحم بالأمس ٠٠ ما هذا الكلام ١٠ الم

وهو يبتهج بشكل فظ فيقطع سياق الموضوع الذى نقررؤه عندما يحس بالملل: « والآن ، فان الوضوء على سبعة أنواع وهو ينتج ٠٠٠ هل أنت متزوج ؛ ٠٠٠ لا ٠٠٠ والآن حقيقه ينبغى أن يكون لمديك ثلاث جوار ، يا عزيزى الشباب! بقاؤك بلا زوجة ليس من الصواب فالرجال سيقولون عنك ٠٠٠ استغفر الله ، نستعيذ بالله ونلجأ اليه ٠٠٠ » والحق أن فمه يخوض في أعراض زوجات المسلمين ٠

ولكنه في بعض الأحيان يحتار في بعض الفقرات التي يقراها ، كما رأيته بعيني رأسي ، فيتجاوزها ، أو يقراها أكثر من اثنتي عشر مرة بتكاسل مرح ، أو يركز على أكثر المعاني مدعاة للخجل على نحو ما يفعل صبية المدارس (مبديا ملاحظات ذات مغزى Shot) وعندما يحدث ذلك أفقد طبعى ، وأرفع صوتى ، وأصبيح قائلا : « حقا لا حول ولا قوة الا بالله العظيم » عندئذ ينظر لى ويهمس بخنوع عابر :

« خاف الله يا رجل » •

القصيل الضامس

شــهر رمضــان

الصوم فى جو حار - الكراكونات فى رمضان - مدفع القلعة - مدفع العباسية - أمسيات رمضان - المتسولون - المقاهى - بوابة النصر - القلعة - التكايا - ميرزا والقنصلية الفارسية - حوارى القاهرة القديمة •

يقابل شهر رمضان هذا العام شهر يونية بالتاريخ الميلادى ، والمشكلة الكبيرة أن هذا الشهر الفضيل يجعل المسلمين غلاظ الطباع غير متسمين باللطف ، وذلك بسبب امتناعنا عن الطعام والشراب والتدخين واستنشاق السعوط (النشوق) ، بل وامتناعنا عن ابتلاع ريقنا عمدا طوال ست عشرة ساعة وربع الساعة ، وقد استخدمت كلمة « امتناع » بمعنى أن هذه الأمور « محرمة » على الصائم (١) ، رغم أن الطبقة العليا من الترك وهي الطبقة التي توصف بين عامة الناس بأنها :

« Turco fino Mangica porce e'beve vino ».

قد تخرق هذا المنع الشرعى بشكل شخصى ، فتجاوز أحكام الشريعة أو مخالفتها بشكل علنى لا يمر دون عقاب رادع (٢) · وفى هذه الحال كما فى كل الأمور البشرية ينطبق قول للقائل: المذنب فى السر برىء ·

« Pécher en secret n'est pas pechér

Ce n'est que l'éciat qui fait le crime .. ?

وتراعى الطبقات الدنيا والوسطى شعائر هذا الشهر باخلاص شديد رغم قسوتها ، فلم آجد مريضا واحدا اضطر لياكل حتى لمجرد الحفاظ على

⁽۱) ابتلاع الريق غير محرم على المصائم ، وبيرتون هنا ينقل ما يسمعه من بعض الجهلاء أو العامة ـ (المترجم) ·

⁽٢) يذكر بيرتون في تعليقه أن الشريعة الاسلامية تحث المسلم على الصبر وعلى الرد على الشاغبين بالقول « اللهم أنى صائم » وهذا صحيح ... (المترجم) .

^(*) يقارب ذلك معنى المثل العامى « حرامى بلا بُينه سلطان » - (المترجم) •

حياته رغم المعاذاة الشديدة بسبب هذا الحرمان الشامل (٣) • بل وحنى السفلة والآثمين الذين كاذوا قبل رمضان قد اعتادوا على السكر والعربدة حتى في اوقات الصلاة - قد تركوا ما كانوا فيه من اثم فصاموا بال وصلحال •

والأثر الرئيسي لهذا الشهر الفضيل على المؤمنين الحقيقيين مدو ذلك الحزن الوقور الذي يغلف طباعهم - كما هو الحال في صيام الايطاليين والكاثوليك والانجليز واليونانيين • فاصوات المسلمين الصائمين التي لم تكن أبدا _ قبل رمضان _ من بين أرق الأصوات ، قد اكتسبت _ خاصة في فترة ما بعد الظهيرة - بحة مفزعة ونغمة كنغمة صرير الباب • فالرجال يلعن بعضهم بعضا ، ويضربون النساء اما النسدوة فيلطمن الأطفال ويستن معاملتهم ، أما الأطفال فهم بدورهم يتضرعون ويعاملون القطط والكلاب بقسوة • وقلما تستطيع أن تقضى عشر دقائق في أي حي بالقاهرة دون Karakun أو المخافر مليتة سماع منازعات عنيفة فالكراكونات بالسادة الذين ضربوا نساءهم ضربا مفرطا · كما أنه ملىء بالنسوة اللائي خريشن ازواجهن بل وعضضنهم بل وجرحن ابدانهم والمساجد غاصة بالناس العابسين المتذمرين يتربص كل منهم بالأخسر مع انهم يسيرون في طريق يرضون به الله (*) • ونمي الظل عند الجدران الخارجية للمسجد يسلى الأطفال الذين طردوا من المسجد انفسهم - او يتناسون بؤسهم ـ بانخراطهم في لمعب خال من الروح · وفي الأسواق والشوارع تواجهك وجوه شاحبة زائغة البصر وكانها في محنة كبيرة • وقد يواجه الغريب في هذا الشهر تصرفات فظة ، فعلى سبيل المثال تجد البفال عادة يقول لك في غير رمضان اذا كان عرضك غير مجز : « يفتح الله » أما في رمضان فانه سيتذمر من غشمك وسيقول لك بحدة ألا تقف هكذا مضيعا للوقت • وعلى أية حال فان المكاكين في هذا الشهر اما أن تكون مغلقة أو خالية من الياعة ففي هذا الشهر لا يشتري التجار ولا يدرس الطلاب، وباختصار فان هذا الشهر الفضيل يعد بالنسبة لفئات كثيرة جزءا من اثنى عشر جزءا من السنة لا انتاج فيه ٠

وفيما يلى نذكر ما يحدث فى أحد أيام الصبيام فبعد حوالى نصف ساعة من منتصف الليل ينطلق مدفع السحور منبها المسلمين بوجوب

 ⁽٣) « ليس على المريض حرج » وتصرفات بعض الناس ترجع لهم لا لاحكام الشريعة
 (المترجم) •

⁽大) فى هذا القول مبالغة كبيرة دون شك ، ولكن الكثيرين لا يفطنون للاسف الى المعنى الكريم للصيام من انه مجاهد للنفس ولتدريب لها على الصبر ويظن هؤلاء أن الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب فتسوء أخلاقهم ويعطون هذا الانطباع السيىء عن هذا الشهر الكريم للاجانب ولمن يعرفون هذا الدين القيم لل (المترجم) .

الاستعداد لتناول طعام السحور وهو يمثاية افطار مبكر • وبمجرد سماع المدفع يوقظني خادمي اذا كنت نائما ويحضر لي الماء للوضدوء ويفرش السفرة وهى رداء جلدى ويضع امامى بقايا وجبة المساء (يقصد طعام الافطار الذي تناوله بعد سماع اذان المغرب) . وفي بعض الاحيان يكون ذلك قبل أن تستعد المعدة (لأنها لم تكن قد هضمت الطعام الذي تناولته بعد المغرب) ، لكن التعود هو كل شيء فالشهية وقف على التعود ، ومن دواعى الاحتياط أن يتناول الانسان في سحوره أكبر قدر من الطعام يستطيعه · وبعدئذ نسمع « السلام » ويقصد به ترديد عبارات الصلاة والسدلام على المنبي (صلى الله عليه وسلم) كتوطئة لأذان المفجر (٤) ، وأظل أدخن بوهن وضعف كما لو كنت أودع صديقا حميما حتى ينطلق المدفع الثاني في حوالي المساعة الثانية والنصف معلنا الامساك (٥) . ثم انتظر اذان الفجر الذي يرفع في شهر رمضان مبكرا شيئا ما عن المعتماد • وبعد الافصاح عن نية الصيام آؤدى الصلاة وأستعد للنوم • وفي السابعة صباحا يبدأ عمال النهار من الطبقات العاملة في المجتمع ممارسة اعمالهم ، بينما يقضى الأغنياء الليل في العربدة ويظلون في حالة خمول من الفجر حتى الظهر .

وأول ما يفعله المرء عند الاستيقاظ هو الوضوء الذي لابد أن يتبع النوم في وضع الاستلقاء على الظهر (في غير جنابة) ، وبدون الوضوء لا يجوز للمرء الصلاة ولا يجوز له دخول المسجد ، ولا يجوز له الاقتراب من أحد العلماء (٦) ، ولا يجوز له مس القرآن الكريم ، وعادة يزورني عدد قليل من المرضى والفقراء في هذه الساعة فاتفحصهم بشكل عرضي دون تدقيق في التفاصيل وهذا لا يسعدهم فأتلقى نتيجة ذلك دروسا طازجة ، وفي الساعة التاسعة صباحا يدخل الشيخ محمد ومعه «محاضرة » مكتوبة على جبهته المجعدة ، أو أن أصحبه مباشرة الي المجامع الأزهر ، وبعد ثلاث ساعات من القراءة الجادة لا يتخللها الا قليل من المقاطعة من لدن القراء الذين لا يعون ما يقرءون كالذي يتقرح على حادثة دون المشاركة فيها ، وتعتبر هذه الساعات الثلاث بمثابة

⁽٤) تلاشى ذلك الآن ، ويكتفى المسلمون باقامة الآذان لصلاة الفجر فقط .. (المترجم) .

^(°) مدفع واحد للامساك فقط - هو مايحدث في هذه الايام ، مما يدل على تطور في صالح التبسيط - (المترجم) .

⁽٢) بيرتون مرة اخرى يذكر ما يسمعه من العامة على انه حقائق . فغير المتوضىء يجوز له الاقتراب من العلماء وغيرهم ، فالشريعة لم تحظر عليه ذلك ، وانما حظرت عليه فقط الصلاة ومس المصحف (الا لمضرورة) - (المترجم) .

فسحة طويلة (راحة طويلة) فمعظم الطلاب في هذه الفترة يكونون في بيوتهم ولا ياتون الا بعد سلماع أذان الظهر ، فالاسلام لم يجعل لفترة المصدياح الا القليدل من العبدادات لأنهدا فتدرة العمدل الرئيسية في بلاد الشرق الما في فترة بعد الظهر وفي المساء فالصلوات يتلو بعضها بعضا وتزداد طولا (٧) ، ثم يحين الموقت المناسب لزيارة مرضاي الأثرياء وبعد ذلك أمر علَى محلات بيع الكتب لساعة أو ساعتين أو اتسكع في الشوارع ببساطة ٠ وفي الثالثة عصرا أعود لمنزلي فأصلى العصر واعد نفسى للدراسة • وتلك الفترة هي أصعب فترات النهار • وبشكل عام فان فترات ليالي الصيف وفترات الصباح منه تدعو _ كما يقال _ للمسرة ، أما فترة صدر النهار (من الصياح للظهيرة) فتتسم بكونها رطية جدا ، أما فترة ما بعد الظهر فهي خطيرة Serious فالرياح تحمل الأتربة الناعمة وتنقل من الصحراء حرارة كحرارة التنور فيهبط على القاهرة وابل حرارى ، وليس من سحب أو أبخرة تكسر حدتها ، وليس من وسائل تجب الحرارة وتبعث على الراحة كالحوائل المثقية بالهند ، ولا توجد منازل يفخر اصحابها بوجود نوافذ زجاجية لها الا قلة قليلة من منازل الأثرياء ٠ لذا فالجو داخل غرفتك اشد حرارة واعلى سعيرا مما عليه المحال في الشارع ويزداد الشعور بالمرارة ثلاثة اضعاف الشعور بها في أي وقت آخر لا صيام فيه ٠ وغالبا ما تؤثر المعدة المضطربة في المخ ، فكل دقيقة يحسبها الانسان ليقتطعها من هذا الثبات المضجر ليقترب من ساعة المغرب المباركة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يقع على كاهلهم كم هائل من المعمل الميدوى في مثل هذا الفصل الحار ولا تتاح لهم الا فرص قليلة لنسبيان متاعبهم بالنوم المتقطع في فترة ما بعد الظهير ، الا أن معظم الناس يقضون قيلولتهم بعد الظهيرة مباشرة لقناعتهم بضرر النوم حتى وقت متأخر من النهار ٠

وتبدو القاهرة عند اقتراب المغرب _ (ساعة الافطار) _ ويالبطء حلولها ! _ وكانها أفاقت من غشيتها ، فيطل الناس من النوافذ والشرفات ليرقبوا اقتراب ساعة خلاصهم · وبعض الناس يصلون ويبتهلون واخرون يسبحون بينما آخرون يتجمعون في جماعات أو يتبادلون الزيارات لقتل الوقت حتى يحين ميعاد الافطار ·

⁽V) الاسلام دين عالمى وفترة النهار هى فترة العمل الرئيسية فى كل انحاء العالم · والظهر أربع ركعات وكذلك العصر بينما المغرب ثلاث ركعات ، فتقديرات بيرتون خاطئة ... (المترجم) ·

يا للسعادة! أخيرا انطلق مدفع الافطار من القلعة وفى الحال يجلجل المؤذن بأذانه الجميل داعيا الناس للصلاة وينطلق صوت المدفع الثانى من قصر العباسية وفيصيح الناس « الاقطار! الافطار! » وتعم همهمة الفرح فى أنحاء القاهرة الصامتة ولا تعدم أذناك المرهفتان لحظة انتقال احساس الترقب المبهج للسانك الجاف ومعدتك الخاوية وشفتيك الواهنتين وانك تشرب قلة كاملة من الماء عن آخرها مهما كانت كمية الماء بها وانت تصفق بكفين عجولتين طالمبا الشيشة وتأمر بالقهوة وحالما تنتهى منها تجلس وتنظر بهدوء مباهج المساء و

والفقراء يأكلون وجبتهم ينهم تام ، اما الأغنياء فيفطرون بوجبة خفيفة _ قليل من الخبز والفاكهة سواء طازجة او مجففة _ ولكنهم يفضلون بشكل خاص البطيخ والحلوى او بعض الأطباق سهلة الهضم كالمهلبية وهي عبارة عن حليب خفيف هلامي القوام ونشا ومسحوق ارز ثم يدخنون الشيشة ويشرب الواحد منهم قدح قهوة أو كوب شربات ، ويصلون العشاء ، ويمر الوقت سريعا نظرا للمتع المتاحة في هذه الفترة خاصة المتدخين بعد ست عشرة ساعة من الحرمان وبعد هذا يجلسون لتناول طعام الفطور Future (الافطار) وهو وجبة لأربع وعشرين ساعة ، لذلك فهم يأكلون بنهم اذا أمنوا الأمراض الناتجة عن ذلك .

وثمة طرائق عديدة لقضاء المسيات شهر رمضان · وعند المصريين مثل يماثل المثل الذي عندنا في مدرسة سالميرن Salirniton وهو:

« اتغدا واتمدى ، ولم للحظتين

واتعشى واتمشى ، ولو خطوتين »

بمعنى أن تتمدد بعد تناول غدائك ولو للحظتين وأن تمشى قليلا ولمو خطوتين بعد العشاء ·

وتزدحم الشوارع الآن بحشود من الحواة المعتلين الفكهين (٨) وينخرط كثيرون في المسرات ، بينما يتخذ عدد قليل طريقه للمسجد لأداء صلاة التراويح في جماعة ويمشى الناس مشيا وثيدا حاملين في أيديهم غلايين (ربما أيضا شيش) التدخين المعتادة ويتسوقون ـ فالأسواق

⁽٨) يقصد القرمقوز والمهرجين - (المترجم) ٠

تظل مقتوحة حتى ساعة متأخرة _ أو يجلسون متزاحمين عند مداخل المقامى يدخنون الشيش ويثرثرون ويستمعون لحكايات الرواة والمغنين والوعاظ المتجولين • وتجد هذا المفتيات الصافيات يغذين ويصرخن بتهدج وانفعال ، وقد صاحب غناءهن دقات مزعجة على (الرق) وعزف أجش بالمزامير (جمع مزمار) متنافر بغيض ، وكل هذا العزف والغناء على شرف أحد الأولياء الحمقى ، دفنت جثته داخل احدى الدور الماهولة التي يمتلكها رجل ذو مكانة بعد أن أصر صاحب الدار على ذلك • وهذا المنظر يذكرك بشدة بجماعات السونيرز Sonneurs في بريطانيا والزمبوجناري Zampognari في مرتفعات أبروزيا Abruzzia الذين يعزفون موسيقا مزامير القرب أمام مادونا Madonna · وشمة رجل مغربي طويل وهزيل يعرض على الناس ورقة قذرة مربعة بها عدد من الخطوط والبقع يقترض أنها تمثل رسما للكعبة المشرفة ، ويجمع مقابل ذلك عملات نقدية نحاسية صغيرة ليغطى تكاليف حجه · وتجلس زمر من الذين لا عمل لهم في ضوء القمر خلال الطرق الرئيسية المؤدية لحدائق الأزبكية حيث الحى الأفرنجى ليستمعوا للفرق الموسيقية التركية واليونانية أو ليسعدوا بأكل الكعك وشي المذرة واحتساب المقهوة • والمشروبات المحلاة ، ومشاهدة مباهج ومزاحات المقرة قوز (وهو الشكل المحلى لمشهد بنش وجودى) • والمنظر هذا أقل اتساما بالروح الشرقية مما عليه الحال في داخل القاهرة ، الا أن منظر الملابس الأفرنجية بين الأزياء المشرقية المتباينة تحت ضوء القمر ، بالاضافة للعتمة الخفيفة التي تسببها اشجار الأكاسيا نوات الزهور الصفراء البيضة المنظر والتى يمكن مقارنتها بشكل عام بذقن الباشا القديم - كل ذلك يشكل منظرا جديدا بأن يكون موضوعا للوحة فنية ، ويلاحظ المسافر في الشرق بعجب وجود بعض السيدات ليس لهن من الاحتشام نصيب سوى البرقع the Burka وتراقب المشرطة بعيون متساهلة مظاهر التهتك والأنحلال ، لأن المنحلات والمتهتكات كن الى عهد قريب يدفعن للدولة ضرائب عالية •

واذا عدت لحى المسلمين فانك تصاب بالذهول بسبب اختلاف الأصلوات وتباينها ، فالملكل يتحدث ، وطبقات المصوت أثناء المديث متطرفة فهى اما همسا واما صراخا وجلبة ، ولا يستطيع الغرباء اقناع انفسهم أن المناس هنا يمكنهم أن يتناقشوا دون انفعال ، فكل من فى المشارع يصيح بصوت عال جدا (من طبقة السوبرانو) فها هلو ذا الفلاح يصيح متوسيلا للخفير الذى يقوده لمركز الشرطة : « في عرضك ، والفلاح يصيح متوسيلا للخفير الذى يقوده لمركز الشرطة : « في عرضك ،

فى عرضك ، وكان يتبعهما (المفلاح والخفير) رتل من النسوة يولولن : « ياخراشى يا حسرتى • ! يا ندامتى • • ! » أما الصبية فقد اختاروا احدهم وجعلوه « باشا » وأحاطوا به فى موكب ، وقد حملوا حزم القش لاشعال المشاعل ، وهناك من يسبق الموكب وهم يهتفون ببهجة واندفاع أبناء السنوات العشر ، بينما يصبيح جندى مشاه يركض لاهثا أمام عربة الباشا حاملا مشعلا ضخما :

```
« اوع يمينك ۱۰ ! »

« اوع شمالك ۱۰ ! »

« اوع وشك ۱۰ ! »

« اوع رجلك ۱۰ ! »

« اوع ضهرك ۱۰ ! »

« صل على النبى ووسع الطريق »

قيرد المسلمون الطيبون :

« اللهم صل وسلم عليك يا نبى » ٠
```

وينكمش بعض الناس ملتصقين بالجدران لتجنب الضرب بالعصسا ، وآخرون يندفعون عبر الطريق وكانهم يتعمدون الوقوع فى الخطر ويضرب صبى شقى بغل الجندى بجريدة نخل سميكة ، وهو لا يخشى فى هذا الموقف أن يضرب بالفلكة ، فينهره الجندى بأعلى صوته قائلا : « يا عرص ، ويا قدواد ، يا يهودى ، يا ابن الأعور ، لعند الله عليك ، « ويغنى بائع الحبوب المشوية وهو يهز بضاعته سيئة المذاق لتحدث خشخشة فى سلته : « يا حمص ، ويا بذر (يا لب) » ويصيح السقاؤون وهم يحملون قربا مليئة بالماء : « وسمع الطريق ، وحد الله ، مية حلوة ، انعش روحك ، ايا عصير الليمون ! » أما عن الشيش فان بائعها يضرب أجزاءها النحاسية بعضها ببعض لتحدث صوتا ، فان بائعها يضرب أجزاءها النحاسية بعضها ببعض لتحدث صوتا ، شم يأتى دور المتسولين المنتشرين فى بلاد الشرق : « عشانا عليك يارب (٩) عشانا عليك يا الله ، ، مين قدم شيء بيداه التقاه » ،

⁽٩) يبدو أن الأمور اختلطت عند بيرتون لهذا القول الذي يقوله الشحانون في غير رمضان ، أما في رمضان حيث الصيام فهم يقولون عادة : (فطر أخوك المسلم) أو (سحر المسلم) أو (حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة) أو (شهر الاحسان) ١٠٠ الخ - (المترجم)٠

وأحد الباعة الجائلين الهرمين _ ربما تضم سلاله (جمع سلة) بضائع أكثر من تلك التى تضمها سلال صاحب محل ذى شأن · ينادى على بضاعته ·

ويرد بعض الميونانيين الموقحين على مجرد لمسة من عكاز رجل عجوز قائلين : « يلعن أبوك ٠٠ يا أخو القحبة ٠٠ » (١٠) وتغنى امرأة عمياء وهي تضرب عكازيها أحدهما بالآخر ، برفق : « القبر ضلمة والحسسنة تنوره » أى القبر مظلم ومصباحه الصدقات ، فيقول العابرون : « على الله ٠٠ على لله يا بنتى ٠٠ » وذلك عندما تتشبث « البنت » (١١) اللحوح ذات الستين ربيعا بأيديهم رافضة تركها دون الحصول على عملات نحاسية صغيرة • ويصبح ألمبانى ذو حاجبين مخيفين وشارب طويل ، صيحة اصطلاحية لا يفهم أحد معناها الا استنتاجا : « أحضر الحلويات » ويقصد النار وخذ الكوب « المليان » ويقصد الفارغ ، بينما يكون صاحب المقهى جالسا بين الزبائن وقد دخل معهم في « قافية » تنساب ذكية سريعة من شفاههم • وقد تكون الاجابة على طلب هذا الألباني الراغب في الصدام : « هنيئا » فيجيب : « أنت تشرب شرب عشرة » بدلا من الرد الديني « هناك الله » • ويقول أحدهم في القافية : « أنا المديك وأنت الفرخة » فيرد عليه المتحدث الأول : « لا أنا التخين ، وانت ابره مصدية على الكوم مرمية » ٠٠ وهكذا حتى قالوا تعبيرات غامضة يصعب نقل صوت هذا مرمية » ٠٠ وهكذا حتى قالوا تعبيرات غامضة يصعب نقل معانيها حرفيا للانجليزية ٠

وفى بعض الأحيان يعلو صوت هذا الضجيج والصخب على الصوت الشجى للمؤذن الأعمى منبعثا من شرفة المئذنة «حى على الصلاة ٠٠ حى على الصلاة ٠٠ حى على الفلاح » وفى أذان الفجر تضاف عبارة « الصلاة خير من النوم ٠٠ الصلاة خير من النوم » وعندئذ يهب المسلمون الأتقياء واقفين متمتمين : « لبينا دعوتك يا ربنا » ٠

⁽۱۰) من الواضح ان هذا ليس اسلوبا مصريا في الشتائم فاضافة صفة سيئة للأخت اسلوب شامى ، ويبدو ان هؤلاء اليونانيين عاشوا فترة في الشام ... (المترجم) . (۱۱) في مصر تتوقع المراة ان تناديها بعبارة « يا ست » او « يا حاجة » او « يا عروسة » او « يا بنت » رغم انها قد تكون فوق الخمسين ، اما في سورية وشبه الجزيرة العربية فتناديها بقولك « يا مرة » او « يالمرة » لكنك ان قلت هذه العبارة في بلاد النيل اتاك الرد : « مرة في عينك » اما ان اردت معركة حامية فقل لها : « يا عجوز » ... (بيرتون) •

وفي بعض الأحيان كنت أسير مع صديقي الى القلعة ونجلس فوق سور مرتفع حيث مسجد محمد على - وهو أحد انجازاته المتميزة ، لنستمتع بالمشهد الذى يبدو رائعا بالليل عندما يكون القمر قريبا من التمام في فصل الصيف فيعطى سحرا وفتنة تعجز اللغة في التعبير عنهما • وفي، أحيان اخرى كنت أهرب من جو القاهرة الخاذق فأمر مع صديقى عبر يواية النصر لنصل الى القفر الكائن خلف المقابر لنستنشق هواء الصحراء النقى ونحن جلوس فوق بعض أكوام الخرائب ، وكأنما كنا نستقبل هذا القفر بود شديد عندما يشكل ضوء المنجوم ورذاذ المندى المشهد المنبسط أمامنا والذى تعتريه مرتفعات صغيرة من الأحجار الطباشيرية (أحجار من رواسب رملية) وقد غطتها طبقة رقيقة من رمال راحت تمور كاشفة عن الصخور ، بفعل الرياح التي تهب ساخنة بالنهار • وهناك على مدى ميل غاص بمختلف أنواع الحياة كلها مهجورة لم يندمج فيها انسان ، فأسوار القاهرة تبدو مفتتة يوشك فتاتها على الانهيار ، والعرائش (جمع عريشة) غير مأهولة بالبشر والمرات غير مطروقة ، فالبرية تقبم خلفك وتمتد أمام ناظريك الآن القبور بشواهدها وببياضها الشاحب المروع ، بينما تنتصب خلفها الشباح طويله قاتمة الأبراج السلاطين المماليك تطل براسها من الأرض المنخفضة الخربة وكانها أرواح سلاطين تحرس رعايا من الأشبياح في سلطنة من ظلال • أما الأصوات المنبعثة من هذه المشاهد فلا تقل ايحاء بافكار الموت والفناء عما تراه العين ، فأصوات الضياع ونباح الكلاب البرية ونعيق البوم الذى يطير على ارتفاعات منخفضة _ كل ذلك لا ينسى ٠

وأحيانا كنا نقضى المساء فى أحد التكايا (جمع تكية) التى يفضل تسميتها بالمجلشانى Gulshani بالقرب من مسجد المؤيد خارج بوابة المتولى ذات القداسة (المباركة) وليس من شيء يلفت النظر فى مظهرها ويجب عليك أن تصعد بخطى وئيدة وأن تدخل شرفة منخفضة حيث ضريح مخصص لأحد الأولياء ويضم الطابقان غرفا صغيرة مظلمة يسكن بها الدراويش ، وتفتح أبواب الطابق الأرضى على الشرفة وقلما يعقد الذكر كikrs

⁽۱۲) المقصود الذكر بمعناه الاصطلاحى عند الدراويش وهو ما يسميه الاوربيون « وقص دينى » • انظر « العثمانيون في اوربا » تاليف بول كولز • ترجمة د • عبد الرحمن الشيخ • الالف كتاب الثاني - ۱۲۱ - (المترجم) •

البشر يتكون من متشردين مختارين من مختلف المم الاسلام · وبالاضافة لذلك فانه يجب على الا أصف التكية وما يتم فيها لأن « طريقة » الدراويش ليست سهلة الفهم على أولئك الذين يسارعون بالتجديف او الانكار ·

ومن المثير أن ترى بعض المور الصدقائي الفرس القدامي ، فقد دعيت أنا والحاج والى الى بيت ميرزا حسين Mirza Hussayn الذي كان يعد - بسبب وقاره شهبندر ، وكان هو يسمى نفسه « القنصل العام » اذ كان يعتبر من بين اثنى عشر شخصا من اشباه الدبلوماسيين الصغار بالقاهرة ، وقد علق على بوابة بيته الضخمة شارة الأسد والشمس (وهي شارة فارسية فيها غطرسة) الا أن بعض الرسامين المصريين قد مسخوا الأسد الى مجرد قطة عتابية (رمادية الوبر ومنقطة بالسواد) ممسكة بسيف معقوف مع فتاة شابة مرحة ذات وجه ممتليء وقد عقصت شعرها تماما واستراحت بشغف فوق ظهر حيوانها المدلل ٠ لقد كانت غرفة الاستقبال في الغاية من الفخامة مما يجعلها جديرة أن تكون قاعة • ففى مواجهة الباب توجد كنبات ووسائد مشكلة الصدر او المكان الذي يجلس فيه ذوو المكانة ، وصفوف متوازية من الديوانات في موضع اقل ارتفاعا من الصدر ، ويوجد صف من الموائد العارية ٠ أما اكثر المقاعد انخفاضا فمصفوفة بمحاذاة الجدار الذي به الباب • وفي الوسط ثلاث مناضد صغيرة وثلاث مشكاوات (جمع مشكاه) ضفام تناظر في فخامتها ووقارها فخامة مالكها ووقاره ، وتحوى كل مشكاة ثلاثا من أضحم الشموع العنيرية . Spermaceti Candles

لقد دخلت أنا والحاج والى واتخذنا مجلسنا على الكنبات الجانبية بتواضع ، وتبادلنا التحية مع الرجل العظيم الجالس فى الصدر · وعندما أخذت مراسم الاستقبال حقها نهض الميرزا وئيدا وهب الجميع وقوفا لنهوضه ، بينما كان هو يتخلص من حذائه وبكل وقار اعتلى وسادته · انه رجل قصير ونحيل فى حوالى الخامسة والثلاثين من العمر ، نو ملامح متناسقة وعلى راسه غطاء من فرو خروف وله لحية ، وكلاهما اسود كما (غطاء الراس واللحية) منافيان للفطرة والذوق ، وكلاهما اسود كما أنهما مخروطيان (مستدقان) ويبلغ طول لحيته وغطاء راسه اربعة أقدام على الأقل اذا قسناها من نهايتيهما (المغطاء واللحية) الى بدايتهما على قاعدة نحيلة لوجه اصفر شاحب · وبعد ربع ساعة من التشريفات على قاعدة والانحناءات مع وضع كف اليد اليمنى على الصدر واحاديث المجاملة والانحناءات مع وضع كف اليد اليمنى على الصدر من جهة اليسار قدموا النرجيلة للميرزا أولا نظرا لمقامه الرفيع ـ وربما كان هذا الميرزا فى طهران مجرد مساعد كاتب فى احدى الادارات

المحكومية · وفى الوقت المناسب قدم لنا الخدم النراجيل (الشيش) الفارسية والقهوة ، وكان الخدم ينحنون باحترام انحناءات ملكية كلما مروا بالميرزا · كما أن أكثر من واحد من أتباعه يتمنطقون بالأحرمة ويحملون السيوف المعقوفة يدخلون القاعة لبث الهبية والرعب في نفوسنا ·

وكان حديثنا عن الأمور الشرقية المعتادة ، فمن المعروف انك ترى في بلاد المغربة أمورا تثير دهشتك · وقال الميرزا : « الترحال انتصار » وهو قول دارج مبتذل ومع هذا فقد أكده وتوقف عنده وضغط على مذارجه بطريقة ملكية مهيبة ، فتجيبه قائلا بالطريقة ذاتها :

« اذا غادرنا ديارنا تعلمنا الحياة حتى لمو كانت الرحلة قطعة من جهنم » '

واذا كنت طبيبا فان الرد البديل هو:

« بالمقليل من العلم قد يدمر الأطياء الأبدان » •

أو « بالقليل من العلم قد يحطم الكهان الأرواح »

وقد تجيب اذا أنست في محدثك الماما بالآداب ـ بالسطور المشهورة التالمية :

« حقيقة الأمر أن قدرة ألطبيب فيما يقدمه من دواء ،

وقد يشفى الدواء المريض ان كان أجله لم يحن ،

لمكن قصة ايامنا تروى فى حينها ،

فالطبيب أحمق ودواؤه يضله عن الطريق القويم» ·

وبعد أن جلسنا بوقار كبقية الضيوف استأذنت في الانصراف بعد أن متعت عينى بالأثاث وغيره مما قدم لي مشهدا فارسيا حقيقيا ولا يتقاضي الميرزا راتبا وانما يعيش من الرسوم التي يتقاضاها من رعاياه المذين يفضلون الدفع على فقدانهم للحماية ولأن دليل الميرزا (أو مترجمه) سيبيع مصالحهم دون ادنى خجل مقابل مبلغ معلوم (رسوم مقابلة يتقاضاها من خصومهم) والميرزا في كبريائه كأنه نبيل من حيث دمائه الزرقاء ووقاره المفتعل وفقره وليس من قصاصة ورق تتم كتابتها غي القنصلية الا واخرجها الميرزا في عربة قديمة تجرها خيول تركض بسرعة المقنونة مع اربعة من المرافقين الراكبين منهم المغان يرتديان غطاء راس مرتفعا أمام المعربة ، واثنان يتبعانها ويضحك المصريون من الأعماق

عند رؤية هذا المشهد فقد كان محمد على متعودا على مثل هذه العروض التى تستخدم فيها أزياء غريبة •

وقبل منتصف الليل بحوالى نصف ساعة ينادى المؤذن « بالأبرار » Abrar وهو دعوة للصلاة ، ففى مثل هذا الوقت يعود الناس الذين تعودوا المسهر الى بيوتهم استعدادا للسحور • ولابد أن تكون منتبها لتحية كل خفير (حارس) بقولك : « السلام عليكم » خاصة اذا لم يكن معك « فانوس » اضاءة والا كنت عرضة للمبيت فى مركز الحراس ، ولا وجه للمقارنة بين الحارات هنا والشوارع التى يعرفها الأوربيون المتحضرون فالفارق بينهما كالفارق بين معبد مصرى (فرعونى) ومبنى برلانى حديث •

وثمة مناظر بعينها تفرض نفسها على المذاكرة وتظلل لصيقة يها كما يلتصق منظر السحب الرعادة فوق جبال الألب وليل الظلمة العاصفة في رأس الرجاء الصالح والأعاصير القمعية الأفريقية ، وربما كانت رحلة للصحارى الرملية هي اكثرها جميعا اثارة للرهبة في النفس ·

ومن بين هذه الأمور التي تفرض نفسها على الذاكرة تجول الانسان في شوارع القاهرة القديمة ليلا • فكل الناس يبدون غير نظيفين في ضوء القمر ، ففي العتمة لا ترى شيئا سوى الصور الظلية السلويتية (نسبة الى فن السلويت وهو الرسم بقص الأوراق) • وعلى أية حال فعندما يكون القمر مرتفعا في السماء ، ونجوم الصيف تمطر نورا على ارض الله فليس ثمة منظر يعادل هذا المنظر في بهائه • ونظرة من فوق اطار النافذة ـ الذي لا يزيد عن ثلاثر اذرع ـ على شريط من السماء ذات الزرقة الشاحية ، وفي أماكن كثيرة يكون الفاصل بين كل نافذة وأخرى أقل ، وهنا افاريز (جمع افريز) وهناك ركائز البيوت تبدو متشابكة (مضفرة على شكل مشبكات) ، وقد تم الآن تمييز بعضها عن بعضها الآخس بخطوط لامعة ذوات لون ابيض يصاكى لون الثلج ثم بفيض من اللون الفضى بالغ الروعة بينما تحت الطنفات (الكرانيش) الناتئة والمشربيات المعلقة ذوات الأشكال الخشبية الرائعة تدعمها زوايا حاملة ودعائم عملاقة ، وتحت الشرفات واقواس البوابات الواسعة لمدرجة تسمح بمرور افراس البحر ، توجد بقع كثيفة من الظلمة بسبب انطفاء مصابيح الزيت ، وللأقواس ملامح محببة ففي مواضع ترى القوس مجرد هيكل ، وفي موضع آخر تراه زاخرا بالأحجار المنقوشة والأشكال الزخرفيسة المحفورة على الخشب • ولم تبد الخطوط مستقيمة فجدران المسجد العالمية الصماء تميل على دعائمها الضخمة وتبدو المآذن النحيلة وكأنها على وشك السقوط في طريقك ، والطنف (الكرانيش) تنتأ بشكل معقوف من المنازل بينما تقوم الجمالونات الضخمة بمجرد تدعيم لقوة الالتصاق (١٣) وقد يكون هذا الخط الجمالي غير مطلوب فالانثناء الرشيق الذي تبديه النخلة وسعفها الكائن في قمتها يرتعش في برد الليل ، وأشعة القمر تتلألأ خلال الهضاب الصغيرة أو خلال ظلمة البيوت اللصيقة بالأرض وباختصار فان المنظر برمته في الغاية من الغرابة ، وفي الغاية من الخيال وقي الغاية من الروحانية ، لدرجة أنه يبدو من غير المعقول أن نتخيل أنه في مثل هذه الأماكن يمكن أن يولد بشر مثلنا يعيشون في هذه الدنيا ويتمون دورة الحياة فيتزايدون ويتضاعفون ويموتون .

⁽۱۳) بمعنى أن ثقلها فوق دعائمها دون روابط أخرى هو أساس ثباتها في مواضعها • مواضعها سار المترجم) •



القصل السادس

المستجد

الأثر البيزلطى فى العمارة الإسلامية ـ المسجد النبوى ـ الأروقة فى المسجد ومعابد الحضارات الأخرى ـ المسجد الحرام كنموذج تحتذيه المساجد الأخرى ـ المساجد فى القاهرة القديمة ـ تدهور العمارة المصرية ـ مسجد ابن طولون ـ مسجد السلطان حسن ـ مسجد محمد على ـ الجامع الأزهر ـ مناهج التعليم ونظامه بالأزهر ـ رأى المصريين فى الشعوب الأوربية .

بعد أن حطم البيزنطيون المسيحيون معابد الوثنية اعتزموا اعادة بنائها واعادة تشكيلها الآأن افتقارهم للروح الابداعية ، وجمودهم المفنى فرضا عليهم تلفيق العناصر المعمارية والحضارية التى سلبوها من غيرهم ، وتجميعها بشكل غير متناسق (١) · ولم تكن المواد لتعوز المعماريين فموانىء مصر وسهول سوريا وجبالها تزخر بأعمدة من جراذيت وصخر اسوانى ومرمر نفيس ، كما تزخر بتماثيال فرعونية واغريقية ورومانية ـ عامرة (الاعمدة والتماثيل) بكل التكوينات التشكيلية (٢) ، فالمنزعة التوفيقية Syncretism للمعماريين والتى هى نتاج للصدفة والاندفاع ، والغلو واللامبالاة ـ لاقت أعينا جاهلة غاية الجهل بحيث لا يجرحها أن تقع على كل مخلط هجين يعوزه التناسق ، لقد قام هؤلاء المعماريون بتخليد العناصر المعمارية المتنافرة فيما يسمى بالنمط العربى او الاسلامي Saracenic Style مع أن جميع عناصر هذا النمط منتحلة

⁽١) كما تجلى ذلك في تيجان الاعمدة على سبيل المثال · (بيرتون) ·

⁽۲) يحاول بيرتون في هذا القصل ارجاع كل عناصر العمارة الاسلامية الى حضارات السابقة أو معاصرة – أو على أقل تقدير يحاول اثبات وحدة الفكر المعمارى البشرى من حيث أن الوظيفة أو المحاجة هي التي تؤدى الى ايجاد الوحدة المعمارية أو المبانى ذات الوظائف المختلفة وهو ما يعرف بالوظيفة • وهذا ليس غريبا على بيرتون الذي لا تخلو صفحة من كتابة من استدعاء تشبيهات وأمثلة من حضارة الهند وأوربا وأفريقيا ، واستدعاء تشبيهات وتعثيلات من حضارات قديمة (اغريقية ومصرية مثلا) وحضارات معاصرة • قد تختلف أو تتفق معه ، لكن الحكاره جديرة بالنظر — (المترجم) •

من الأنماط المعمارية البيزنطية (٣) ومكررة معادة في النمط المعماري القوطى الذي هو فرع من النمط الاسلامي (٤) • وهذه الحقيقة تتجلى في الأسلوب القوطى لتعدد عناصره المعمارية المتنافرة ، ولأن هذه المظاهرة في أكثر حقبها كلاسية كانت مرادفة للفوضى المعمارية (عدم الاتساق المعماري) في أوضح صوره • ولم تكن هذه الفوضي (عدم الاتساق المعماري) مقتصرة على المبانى التي تم انشاؤها خلال فترات زمنية طويلة •

ان مثل هذا التدنى المعمارى الذى يستخف بعنصر التنامسة (السيمترية)، والناتج - فيما أعتقد - عن قصور فى الدمج أو الاستيعاب والخصوبة الفنية، قد يجد - بلا شك - من يدافع عنه على أساس الأسباب التى أدت اليه والأثر الناتج عنه فالمعمارة فن قائم على المحاكاة والمزاج لكن الألوف المؤلفة فى كل مكان تبتهج بالتغيير ولا تمقت شيئا مقتها المتشابه الكامل والتماثل الدقيق ومن هنا ، فلكى ننسخ نمونجا معماريا (أو نحاكيه بدقة) يجب أن نبحث عن التناظر الوظيفى العام ونجعله منسجما مع الفروق الفردية ، وفى المحقيقة فانه يتحتم علينا أن نتجنب المبالغة فى اظهار الاتساق والنظام ومرة الحرى فربما نؤكد واعتادت عليها - جميلة متسقة ، فاننا نجد من السهولة أن نتغلب على واعتادت عليها - جميلة متسقة ، فاننا نجد من السهولة أن نتغلب على احساسنا المبدئي بعدم الارتياح لهذه العناصر المتعارضة وربما انتهى بنا الأمر الى الإعجاب بها ، فما دمنا نحب ، فان حبنا هذا يعوضنا عن عدم الاتساق بما فيه من تعدد وتباين وحدة فى التعبير .

واعتقد انه لا جديد في المسجد العربي (الاسلامي) فهو مجرد احيام غير واع المشكال المعمارية التي استخدمت منذ عصور ممعنة في القدم ، قهذه الاشكال المعمارية القديمة كانت تدل بالرمز على عبادة الهة مولدة أو خلاقة • وسيعذرني القارىء اذا القيت مجرد نظرة على موضوع قد

⁽٣) يقول بيرتون في تعليقه أن هذا الاقتباس المباشر من الأنماط المحمارية الميزنطية واضبح تماما في مساجد القاهرة القديمة ولا ننكر تأثير الحضارات يعضبها في بعضها الآخر ، لكن انكار «خصوصية » كل حضارة فيه تجاوز شديد ، فهل أخذ المسلمون من الحضارة البيزنطية فكرة (الميضاة) أو مكان الوضوء ؟ بالطبع لأن الوضوء خامسية السلمية وفكرة الأربعة فرضها وجود مذاهب اسلامية أربعة ، ولو كانت خمسة لكانت الأروقة خمسة ٥٠ وهكذا ٠ ما دخل الحضارة البيزنطية بعدد المذاهب الاسلامية ؟ المترجم)

⁽³⁾ يقول بيرتون ان الاسقف المحمولة على اقواس (عقود) تحملها اعمدة لم تعرف في الاتار التقليدية ولا في المساجد الاسلامية في عصورها الباكرة •

يتطلب البحث فيه مجلدا ، كما أن مناقشته بالتفصيل ليست موضوع هذا الكتاب •

لقد كان أول مسجد في الاسلام هو الذي أسسه محمد (صلى الله وسلم) في قباء بالقرب من المدينة (المنورة) وقد حطم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك بوقت يسدير ثلاثمائة وستين صنما كان العرب يعبدونها ، وطهر الكعبة (المشرفة) من هذه الأوثان بعد فتح مكة (المكرمة) وريما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد لاحظ قبل ذلك في يصرى Bostra بالشام التصميمين المعماريين المناسبين للعبادة المسيحية » (٥) ، وهما : الصليب والباسيلقا متوازية الأضلاع للعبادة المسيحية » (٥) ، وهما : الصليب والباسيلقا متوازية الأضلاع عليه وسلم) للمصلين المسلمين المشكل المربع دون رواق معمد مسقوف عليه وسلم) للمصلين المسلمين المشكل المربع دون رواق معمد مسقوف وأخيرا حفى عهد الوليد بن عبد الملك (٩٠ هـ) ظهرت القبة والمحراب والمثنة واتخذت مظهرها المعروف وظهر بالتالي ما يطلق عليه النمط العربي أو الاسلامي الذي ظل بعد ذلك نظاما معماريا أبديا للعالم الاسلامي .

واعتقد ان الهندوس هم اول من ربطوا عبادتهم برمز ، هو المثلث المتساوى الأضلاع ، فاليونى لتجا Yoni-Linga في عمارة معابدها اصبحت اما مخروطية او هرمية كاملة • اما محر فقد ميزت عقيدتها بالمسلة وهي وحدة فنية اختصت بها ، وان ظهرت في انحاء مختلفة من العالم ، وهي الى المسلة في انجلترا مجرد عمود حجرى ، وفي ايرلندا مجرد برج اسطواني وقد تابع دانسرفيل D'Hancarville وبروتير كارندا مجرد برج العبادات ذاتها في مختلف معانيها ومتغيراتها عند كل

^(°) لقد بنى الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وكذلك المسجد الحرام بمكة المكرمة ببساطة شديدة ، حكمتها مساحة الأرض المتوفرة ، فمسجد مكة المكرمة كانت تتداخل فيه البيوت مثلا ، كما حكمه المواد المتوفرة وهى الأحجار وسعف النخيل وجريده وجذوعه ومن التنطع أن نقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قته قلد نمطا بيزنطيا أو غير بيزنطى ، أو تحاشى تقليد النمط البيزنطى أو غير البيزنطى ، وكان مسجد الرسول بالمدينة ، والمسجد الحرام بمكة المكرمة على أيام الرسول بلا ماذن ، ولا محراب منحوت واليس من الغريب أن يقع بيرتون سوهو بلا شك رحالة بارع وعالم قدير ، ومتعاطف مع العرب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترجم) و المسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترجم) و المسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترجم) و المترجم) و المترجم) و المترجم المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترجم) و المترجم المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترجم) و المترجم المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترب والمسلمين في هذا الخطأ ؟ 1 س (المترجم) و المترب والمسلمين في هذا المنطأ و المترب والمسلمين في المترب والمسلمين في المترب و و المترب و و المترب و الم

⁽۱) الباسيلقا مبنى رومائى فى احد طرفيه جزء ناتىء نصف دائرى ، وقد تعنى كاتدرائية كاثوليكية ، وهذا ليس المقصود هنا ، كما قد تعنى كنيسة قديمة مبنية على هذا الطراز ... (لمترجم) ،

الشسعوب ، فالرمز يوجد في كل مكان ، فالمئدنة المعربية البساكرة برج السطواني أملس أو مضلع دون شرفات أو منصات ، ثم اتسع الاختسلاف بين المآذن عند الأتراك والمصريين وأهل الحجاز من ناحية الأسطوانة والموشور Prism ، وقد قارن رحالة فرنسي بين أشكال المآذن وأشكال المثموع Un Chandelle Coiffee وأخيرا فالمآذن الأولى كانت صلدة مثلها في ذلك مثل كل المعناصر المعمارية القوطية ، وزودت - أي المآذن بأبراج هي نفسها القمة المستدقة والبرج الداخلي لدى أجدادنا الأوربيين ،

ومنذ عصور سحيقة كان إلصحن المكثموف اما مربعا أو مستديرا يحاط بأروقة مسقوفة في المناطق الحارة والمطرة - وكان يستخدم - أي الصحن ـ لغرضين من أغراض الكنيسة والسوق على سواء وهما عبادة الله وعبادة الشيطان ، لكل دوره ، وفي بعض الأماكن وجدنا حلقات من الصجارة كمعابد النار الفارسية ، وفي أماكن أخرى مبنى دائري مقعر يمثل القبة السماوية حيث تعبد النار وغيرها من المرموز المقدسدة ، وفي شيه الجزيرة العربة أروقة معمدة تعلوها قبة زرقاء بهية تشبه بستان النفيل · وقد تبنى اليونانيون هـذه الفكرة في هيساكل الاله باخوس Creator Baccus (الله الخمسر عنسد اليسونان) وفي بوزولي Pozzuoli بالقرب من نابلس ، ويمكن مشاهدة ذلك في المبنى الذي يسميه العامة معبد سيرابيس Serapis · وهذا التكوين المعماري معروف تماما للكلتيين kelts ففي بعض الأماكن جعلوا التيمينو دائريا وفي أماكن أخرى جعلوه رباعي الزوايا ٠ والصحن في مساجد الاسلام لا يختلف عن الصحن في المباني الدينية انفة الذكر في الحضارات غير الاسلامية وحتى الرواق وهو الجزء المسقوف الذي يحيط بالصحن هو احياء لأفكار معمارية اقدم عهدا • فالمجزء من المبنى المربع الذي يضم معبد سيرابيس ليس جزءا من الهيكل وفقا للراى الشائع وانما هو سكن للكهنة وموضع لتقديم الأضحيات وحفظ البقايا والأدوات المقدسة ، كما أنه مصلى مكرس للآلهة الثانوية التي كانت نتاج عبادات محرفة وأكثر تعقيدًا • فالأروقة في المسجد أصبحت بمثابة خلايا تستخدم كقاءات لالقاء الدروس ومكتبات لحفظ الكتب الموقوفة على المعهد • وهذه الأروقة غير متساوية في مساحاتها أذ أن المطلوب أن يكون أحد الأروقة أوسع من غيره ، والسبب ذاته يكمن وراء اختلاف المساحات عندما يكون المبنى مكونا من أربع مساحات معمدة تنتهى الى صحن المسجد • فرواق القبلة - حيث يحتشد المصلون غالبا - لابد أن يكون أوسع من سواه من الأروقة المثلاثة الأخرى • كما أن الجناحين (المرواقين المجانبيين) عادة ما يكونان غير متساويين اما لنقص في مواد البناء واما لأن متطلبات استخدامهما

لا تتطلب أن يكونا على درجة واحدة من الاتساع ، أما أعمدة الرواق فمن مواد مختلفة ، فيعضها من الرخام الجميل وبعضها الآخر من الأحجار الخشنة ، وتيجانها غير متشابهة ، أما اسطواناتها فنحتت بطريقه فجة وهي مختلفة المحبوم ، وتوجد قوصرات Pediment هذا وتنعدم هناك ، وتقلب ـ أي القوصرات ـ رأسـا على عقب حينـا ثم تتصل معـا من انصافها ، وغالبا ما يتم ذلك بعدم اتساق بسبب الجهل بقواعد توزيع المسافات بين الأعمدة • كل ذلك نتيجة النزعة التوفيقية البيزنطية التي طعمت المفكر العربي بالاهمال والجهل ، فحب العظمة أو الفضامة والاعجاب بها ، بالاضافة الى ضحامة الخطعة المبدئية (التخطيط الميدئي) وطموحها أديا بهم الى قلة الاهتمام بتنفيذ التفاصيل المجردة ، لقد اعوزتهم الفطنة فلم يدركوا الأثر الذى يتركه العمل غير المتقن والخطوط المعوجة والتوصيلات المكشوفة ٠٠٠ مما سينطبع على المبنى ككل متكامل · واستخدامهم لملألوان يدل على ذوق سقيم ، وهذا الذوق السبقيم في الألوان يظهر في المباني المدينية وفي تماثيل الآلهة عند الشعوب المختلفة ، فالهندوس يطلون معابدهم متعددة الأدوار (باجوداتهم Pagodas من الداخل والخارج بأن يحكوها بصبغ كبريتور الزئبقيك (القرمزى) وكذلك تماثيل الهتهم توقيرا لها ٠ ومعبد قيومار الفارسي وشبيهه في طريق بلغ ، وكذلك أبو الهول في مصر والمعابد الفرعونية على النيل - جميعها لا زال يبدو عليها آثار تعقيدات غير طبيعية (يقصد أصباغا) ، والهياكل في المباني الاغريقية الكلاسية كانت مسبوقة • وفي مباني المنتديات الرومانية العامة لازالت تحمل آثار الصبغ الأرجواني · ونضرب مثالا اخيرا ، ففى الكنائس وابراجها فى ايطاليا الحديثة نرى اشرطة (نطاقات) من ألوان بيضاء وسوداء وكأنها قد صممت ـ لتعطى مظهر Arabesque الحمر الوحشية الضخمة • واصل الزخارف العربية يرجع الى أحد مبادىء الاسلام فالمسلمون ممنوعون بحكم الشريعة من تزيين مساجدهم بالمتمائيل والصدور ، لذا فقد زخرفوا مساجدهم بكتابات قرآنية وبفنون تشكيلية ميتافيزيقية معقدة للغاية (تبعث على الحيرة والارباك) وقد استخدم المسلمون ابجديتهم العربية لتحقيق هذا الغرض • وهنا ربما نشأت تباينات لا يمكن تخيلها في النقوش المتشابكة وتباينات في الطبقة الخارجية (القشرة) وفي الزخارف العدربية وفي الورود الهندسية (التي تتخذ اشكالا هندسية) فتبتهج العين بحيرتها فيها (تضيم العين فيها) ٠

لقد أصبح المسجد الحرام بمكة المكرمة نموذجا يحتذى فى العالم الاسلامى ، فالشعوب التى اعتنقت هذه العقيدة الجديدة (الاسلام) قد بنت مساجدها على نسقه ، تماما كما قلدت الشعوب المسيحية المذبح المقدس ، فمسجد عمر بن الخطاب فى القدس ومسجد عمرو بن العاص فى بابليون على النيل ومسجد ابن طولون فى القاهرة ، قد تم انشاؤها جميعا – مع بعض التحسينات الطفيفة – على نسق الأروقة نوات العقود والأفاريز المزينة بأشرطة من كتابات عربية على نسق (كسوة) المكعبة والأسرفة) ، ومن محم وفلسطين انتشر المرتسم الأفقى chnography طولا وعرضا ، وقد تم تكييفه – كما هو متوقع – وفقا لأذواق الأمم ، فما كان فى شبه الجزيرة العربية أنيقا بسيطا ، أصبح فى اسبانيا مفعما بالمزينات (٧) ، وأصبح مزخرفا منمقا فى تركيا ، وأصبح ثابتا قويا فى سوريا ، وأصبح ذا طابع أنثوى فى الهند ، ان اختلاف التفاصيل لم يغير من الناحية العملية التكوين الأساسى للمسجد رغم انقضاء اثنى عشر قرنا ،

وريما لا توجد مدينة شرقية في امكانها أن تقدم لذا نماذج متعسدة الله الله الله الله المسجه مثل القاهرة ، ففيها ما بين ثلاثمائة واربعمائة مكان للعبادة ، يعضها كركائز شامخة ويعضها مكشوف مخرب وكَثير منها جديد ، وأكثر من الجديد تلك المبانى الخربة التي ضربتها الزلازل ، ومآذنها تضارع في ميلها برج بيزا ـ وجميع هـذه المساجد يمكن للرحالة دخولها • وقد المكن للأوربيين الذين اتبحرا نصائح أصحاب الفنادق التي يقيمون فيها أن يتوغلوا في هذه المساجد ، فذلك أمر متاح ٠ واذا كانت عمارة هذه المساجد تعود بالفعل للعصر الذي تنتسب اليه - وهو ما اعتقد في صحته - فانها تدل على اقصى درجات الاحساس الفني للشعب • وتتيم هذه المساجد مقارئة العمارة في العهود المختلفة لملاحظة كيف أن كل دولة قد بنت مساجدها ومآذنها بالملاق اسمها عليها ، كما تتيم هذه المقارنة متابعة التدهور في فن العمارة حقبة حقبة طوال ألف ومائتي عام حتى أيامنا هذه • وهدو أمر ليس من المعتسساد أن يهتم به الشرقيون • وعلى أية حا لفان حدود برنامجي قد اجبرتني على أن اشير للقضايا الأساسية فقط ، وقد يدفع هذا بعض الرحالة العلماء لبحث الموضوع بالطريقة المناسبة لاهتماماتهم • فجامع ابن طولون المهمل (القرن التاسع) بسيط وفضم بل ويتسم بالعظمة ويه خصوصية في يعض

⁽Y) انظر الوصف المعجب لمسجد قرطبة الذي قدمه (Y) بيرتون) . (بيرتون)

تفاصيله ، ولا يزال أحد صفوف الأعمدة الأربعة باقية ، ولا يقبع تحتها المساكين لترينا – أى صفوف الأعمدة – عظمة المبنى بعد تشييده ، أما أروقة المسجد الأخرى فمسورة ويقطنها الناس · وصحن المسجد مربع طول ضلعه مائة خطوة وفى وسلطه مبنى له قبلة منبثق من موضع متوسط ، كموضع الكعبة فى وسلط صحن المسجد الحرام · وهذا المسجد (الكاتدرائية) مثير للانتباه باعتباره نقطة فارقة (يمثل مجالا للمقارنة) فاذا كان مشيده يريد أن يجعل منه نسخة طبق الأصل من المسجد الحرام بمكة المكرمة سنة ٧٩٨ للميلاد ، فان مبنى المسجد الحرام قد تغير كثيرا في أيامنا هذه عما كان قبل ذلك ·

ويلى مسجد ابن طولون تاريخيا ، مسجد السلطان الحاكم ثالث المُلفاء الفاطميين ومؤسس العقائد الدرزية الغامضة ، فالمآذن - هنا -تلفت النظر بأشكالها وأحجامها ، فليست مزودة بالشرفات الخــارجية المعتادة كلما انها قائمة على مبنى مكعب ، وبها نوافذ يتضبح بجلاء أنه لا معنى لها ٠ وقد اخبرني القاهريون المتعلمون أن هذه القمم المستدقة الو العساليج (جمع عسلوج) قد ابتكرها ملوك شواذ لنشر دخان البخور فوق القاهرة اثناء اداء الصلوات فهي بمثابة مباخر ضخمة ١ أما الجامع الأزهر ومسجد الحسنين فيعدان من المساجد البسيطة واعمدتهما خالية من الفن ، وهما مسجدان مشهوران بالطهارة والقداسة ، وان كان من الملاحظ خلوهما من الأعمال الفنية · وعلى أية حال فليس هناك مبنى من المبانى التى تتسم بالفخامة فى مظهرها أو توحى بافكار أكثر نبلا عن مؤسسيها ، أو مهندسيها - يفوق مبنى المسجد الذي يحمل اسم السلطان حسن · فالغريب يقف مبهورا امام جدرانه الشاهقة دون ثغرة واحدة ، وأمام صحنه القاسي ذي الجمال الرجولي ، وأمام بوابته التي قد تكون ملائمة لأحد قصور التيتان (الجبابرة) ، وأمام مئذنته السامقة التي تتم عن عظمة جبارة ٠ وهذا المسجد (تم الانتهاء منه سنة ١٣٦٣ للميلاد) الذي يمثل حصنا في أحد جوانب تكوينه المعماري - لا علاقة بينه وبين الجهود المعمارية التي تمت في الحقبة الأخيرة ، الا كالعلاقة بين كاتدرائية كانتربرى والطرز المعمارية الانجليزية «الهندية القوطية» (!!) ويعتبر مسجد السلطان حسن ، بالاضافة الى قبر قايتباى وغيره من قيور السلاطين المماليك - من المياني التي تدعو للاعجاب وتعطى احساسا بالفخامة رغم تربعها على الخرائب · وقلما يرى الرحالة ما هو اكثر جمالا من الأضواء المنبعثة من الزجاج الملون والتي تلقى بنورها على الأرض الرخامية عندما يحل المساء •

ويجب على الرحالة أن يزور المساجد الحديثة في مصر ليرى العمارة المصرية في مرحلة تدهورها ، فمسجد السيدة زينت (سستنا زينب) الذي أسسه مراد بك المملوك الذي واجهته الحمسلة الفرنسية يظهر حتى بعد اتمامه بعض شسواهد التخلف في النوق المعمساري وليس هناك ما هو أكثر دعسوة للغثيان من ذلك المبنى الذي يحث كل سائح حماره ليراه (السائح وليس الحمار) ألا وهو مسجد محمد على ذو التكاليف الباهظة ، فمهندسه اليوناني قد بذل قصاري جهده في المبالغة ليجعل المسجد يضاهي عظمة مبنانا الانجليزي الموسسوم باسم المقصورة الشرقية oriental pavilion أما من الخارج فكما يغني منكتون ملنر:

« المآذن المتلألئة نحيلة وسامقة »

فماذن المسجد نحيلة جدا وتشمخ مرتفعة جدا فوق مستوى القباب المتكتلة معا لمدرجة أنها (أي المآذن) تبدو كمغازل العجائز الشمطاوات ، وقد جعلت في مواجهة كاملة ، مع مسجد السلطان حسن العملاق ، مما يظهر التناقض بكل عيربه • أنسى المهندس القرس المستدق the pointed arcl ذلك أن هذا المبنى (مسجد محمد على) ذا الطالع السييء لابد أن يلحق الخزى بسبب هذه النوافذ المصنوعة من خشب وزجاج ، على هيئة متوازيات أضلاع صغيرة وكبيرة ، وضعها المهندس وشكلها ليعطى مظهرها الخارجي مظهر المسرح الأوربي بقباب شرقية ؟ وقد النفقت النقود بتبذير على المرمر المليء بالشقوق والعيوب والذي يكسو بعض جوانب المسجد من داخله وخارجه · وحول قواعد الأعمدة وضعت عقد مذهبة ، وفي بعض المواضع زخرفت الجدران بخطوط لتبدو كأنها من رخام أما الأشغال الخشبية فقد كسوها بصفائح ذهبية لامعة . وبعد القاء نظرة على هذا البنى غير الجميل ، لا يعجب المرء من قول كبار السن من المصريين من انه رغم التعليم الأوربى ورغم النفقات التي تم انفاقها لتشجيع الهندسة والعمارة ، الا أن الفن الحديث يقدم لهم ما يبعث على الانقباض ، مناقضا في ذلك الأعمال المعمارية والفنية القديمة ، ويقال ان صاحب السمو عباس باشا ينوى اقامة مسجد له يتخطى طموح الجيل الأخير • وأود أن أتجرأ فأمل أن يشعل مهندسه « النار المقدسة » من مسجد السلطان حسن ، لا من مسجد محمد على ذى الفخامة التركية اليونانية · فمسجد السلطان حسن يشبه في أصالته العثمانية غير الزائفة في الأزمنة العثمانية الأولى ، ازمنة القوة والرزانة والتكوينات الوقورة التي تشير لعقل قوى ـ والتي تدل على عظمـة الانسان وعناده ١ أما مسجد محمد على ففيه أناقة الأتراك وضعفهم بعد أن لبسوا البنطلونات وسترات الفراك Frock Coats (السترات

التى تبلغ الركبتين ولمونها أسود) والطرابيش ـ لباس سقيم وأحوال سقيمة ، ونسل سقيم غير طبيعى شكلا ومضمونا (بدنا وروحا) ·

وسندخل الآن الجامع الأزهر · لقد خلعنا صنادلنا وأخفافنا عند سور خشيى منخفض ، وأمسك كل منا صندله (أو خفه) بيده اليسرى بحيث يكون نعل كل (فردة) ملاصقا لنعل (الفردة) الأخرى حتى لا تتساقط منها القانورات ، وعبرنا العتبة باقدامنا اليمنى ونحن نقول : « بسم الله ثم دلفنا الى الميضة Mayza'ah وهى خزان ماء للوضوء ، اذ أن الشريعة الاسلامية لا تقر دخول المسجد بغير وضوء (*) وبعدئذ فتشنا عن مكان ملائم للصلاة ووضعنا صنادلنا وأخفافنا في موضع آخر أمامنا لنحذر المتسكعين ، وصلينا ركعتين « تحية المسجد » ولما أتممنا ذلك رحنا نجول باحثين عن المواضع والأشياء المثيرة للفضول ·

القمر يسطع ببهائه على صحن المسجد المرصوف (أي الصحن) بالأحجار التي نعمتها كثرة أقدام المصلين التي تسر عليها ، فجعلتها براقة لامعة كالمزجاج • وثمة ظلمة داخل مبنى المسجد ، وهو مساحة مستطيلة ضخمة تشكل غابة من الأعمدة النحيلة ذوات المنظر التواضع . انها صفوف من الأعمدة الرخامية المائلة (أي الصفوف) التي نصبت كالأشجار المصفوفة على جانبي طريق ريفي ، وقد فرشت الأرض بحصير بال وغير نظيف • وثمة بعض المصابيح القليلة تلقى بضوئها الواهن على مجموعات قليلة يناقشون بعض مسائل النحو أو يستمعون الى الكلمات الحكيمة التي تتساقط من فم أحد الوعاظ • وسرعان ما غادروا البناء المعمد (ذا الأعمدة) وتناثروا على أحجار الصحن لينعموا بالهواء الطلق ويتجنبوا بعض البراغيث · اننا الآن في وقت « اجازة طويلة » لذا فقد تحول المسجد الى مكان كالمخان يرتاده المسافرون ، وربما كانت أمم لا حصر لها تلتقى به ، فثمة خليط من اللغات في المسجد ، وثمة ضجيج يصعم الآذان في أوقات • وحول الصحن تدور صفوف الأعمدة (في ألأروقة) جيدة البناء وقد زين طبان (محمول) (٨) هذه الأعمدة بالرقش العربي القرمزى ، وتقضى الجدران الداخلية لغرف مغلقة الآن بأبواب دوات الواح خشبية سميكة ، ويحوى الأزهر اربعة وعشرين رواقا ؛ زواق

⁽٨) الطبان أو المحمول entablature هو كل ما لحوق العمود: التاج ، والساكف والالفريز (وتكون عليه الزخارف ، والطنف وهو ما فوق الالفريز ، عن معجم مصطلحات الفنون لعقيف البهنسي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ــ (المترجم) .

(★) الشريعة الاسلامية لا تقر الصلاة بغير وضوء أما مجرد دخول المسجد فلا يشترط فيه الوضوء ــ (المترجم) *

لكل أمة من أمم الاسلام المعترف بها ، ومن بين هذه الأروقة لا يزال أربعة عشر رواقا مشغولة بالطلاب ، ولا نجد داخل هذه الاروقة الا المحصر وعددا من الصناديق الخشبية الكبيرة الداكنة ، كانت ذات يوم تمشلل مكتبة الجامعة (يقصد الجامع) الا أن هذه الصناديق فارغة الآن ، وققا للأقوال السائدة •

لا شيء يستحق أن يراه المرء في مجموعة الغرف المظلمة التي تشكل بقايا الأزهر ، فحتى زاوية العميان التي كانت تخرج اعدادا كبيرة من الطلاب والأساتذة قد أصبحت مكانا ليس به ما يثير سوى تعصب النازلين فيها ، والحقيقة أننا اذا تعرفنا على ما في هذه المعتزلات ، فسللقي بالقفاز تحت عصى مالكيه للعميان الغاضبين .

والأزهر هو الجامع والجامعة في القاهرة ، وكان ذات يوم مشهورا في العالم الاسلامي كله ، وقد بناه القائد جوهر الذي كان عبدا لتاجر مراكشي _ كما أخبروني _ أثر رؤيا منامية تلقى فيها أمرا بأن ينشىء مسجدا يشع نور العلم على الاسلام » . .

واتسع الجامع الأزهر بالتدريج بفضل الأوقاف من اراض واموال وكتب ، وعمل الحكام الصالحون على توسيعه واثراثه • الا ان احواله قد تدهورت في الأعوام الأخيرة نتيجة التشتت ويتيجة تدنى قيمة العلوم الاسلامية المخالصة في مصر الآن • ومع هذا ففي الأزهر الآن ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ طالب من مختلف الأمم والأعمار يتلقون العلم مجانا • بل ويقدم لهم الخبز بكميات تتقرر حسب عدد النزلاء من أمة الطلاب في رواقهم وبعض الملابس في الأعياد ، وقروش قليلة مرة كل عام • الما الأساتذة (العلماء) الذين يبلغ عددهم • ٥٠ فقد لا يأخذون رسوما (اجرا) من طلابهم ويلقي بعضهم محاضرات لا يأخذون رسوما (اجرا) من طلابهم ويلقي بعضهم محاضرات (دروسا) ابتغاء مرضاة الله ، بينما يبغي آخرون الحصول على شرف أن يكون « استاذا بالأزهر » • ويتلقي ستة موظفين رواتب من الحكومة الذي ينظم امداد المسجد بالماء للوضوء ، والباقون هم بمثابة رؤساء الذي ينظم امداد المسجد بالماء للوضوء ، والباقون هم بمثابة رؤساء

وفيما يلى طريقة الدراسة في الأزهس · فالولد يظل لمدة أربسع سنوات أو خمس يتعلم ترتيل القرآن (الكريم) ضربا بالعصا ، وفقا للحكمة الشائعة « عصا المعلم الخضراء من شبجر الجنة » دون أن يفهلم معناه (أي القرآن الكريم) ، كما يدرس مباديء الحساب ، واذا ما اعتزم أن يدخل في زمرة العلماء ، تعلم فن الكتابة ثم يسجل اسمه في الأزهر ،

ويعد نفسه لدراسة العلوم ذات الجذور العميقة في الاسلام وهي النحو والفقه والحديث والتفسير ·

ويقرأ الشاب المصرى فى الوقت نفسه فى الصرف والنحو ، ولكن العربية هى لغته الأم فليس من الضرورى دراسة الصرف بتعمق كما يفعل الأتراك والفرس والهنود عندما يدرسون العربية واذا رغب على اية حال ان يكون متخصصا كفئا فان عليه أن يتابع دراسة خمسة كتب فى الصرف وستة فى النحو .

وبعد أن أصبح الطالب متخصصا بارعا في النحو . فانه يخصص نفسه بعد ذلك للهدف النهائي وهو الدين · وتوجد أربعة مذاهب هي مذهب أبي حنيفة ومذهب الشافعي وهما مذهبان شائعان في القاهرة ، أما أتباع مذهب الامام مالك فيوجدون فقط في صعيد مصر وفي بربرة Berberah أما المذهب الحنبلي فغير معروف غالبا ، وتبدأ دراسة التوحيد والفقه بما يسمى دراسة المتن وهو نص موجز وجاف وغامض في الغالب ، وفي المحقيقة فان المتن لا يتعدى أن يكون هيكلا للموضوع لا يضم سوى رؤوس الموضوعات ويتعلم الطالب المتن بتكرار قراءته حتى يستطيع تكرار كل فقرة فيه حرفيا ، ثم يبدأ في دراسة الشرح وقد ألفه للميض ما غمض في المتن في المتن ، فير الذي الف المتن ، ويعرض المسائل الشائدة أو الاستثنائية والاسباب (التعليلات) ومجرد عرض للمبادىء العامة ، واذا كان المتن صعبا زود في بعض الأحيان بالحواشي ، لكن هذه الحواشي المعينة لا تحظى صعبا زود في بعض الأحيان بالحواشي ، لكن هذه الحواشي المعينة لا تحظى بالقبول فثمة قول هزلي شائع مؤداه :

القراءة بالحواشى ،

لكن التعليم بالصم (الحفظ دون فهم) (٩) ٠

وذلك يرجع لعدم تنمية قدرات الطالب على التعليل أو معرفة الأسباب بالمتدريبات فهو يتعلم أن يعتمد على أقوال أستاذه أكثر من اعتماده على

Who readeth with note But Learneth by rote. : النص (٩)

ولابد أن المقابل العربى كان مسجوعا منغوما ، لكننى اكتفيت بنقل المعنى كما هو والهبح ـ (المترجم) .

أن يفكر بنفسه · كما يؤدى هذا الى اهمال ممارسة أخرى يدافع عنها معلمو الشرق بشدة ، تتجلى في قولهم :

المحاضرة واحدة

والآراء (حول موضوع المحاضرة) ألف .

فلكى تصبح فقيها أو عالم توحيد ذا شهرة فان كنت حنفى المذهب لابد ان قدرس حوالى عشرة مجلدات - بعضها ضخم ، ومكتوب باسهاب ، أما القراءة في المذهب الشافعى فليست شديدة التوسع بهذا الشكل ولابد من دراسة الفقه والتوحيد بتعمق لأنه يؤدى بدراسة مباشرة الى اكتساب الرزق يوميا (أكل العيش) باعتباره واعظا أو معلما ، أما العلوم الأخرى فمهملة لسبب عكس الذى ذكرناه أنفا •

وعلماء الفقه والتوحيد في مصر مثلهم في ذلك مثل اقرانهم في سائر العالم الاسلامي و يجب أن يلموا الماما كبيرا بحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسيرته وفي هذا المجال توجد ثماني مجموعات مشهورة وأن كانت الأعمال الثلاثة الأولى منها هي التي تقرأ بشكل عام •

وفي مرحلة باكرة يتعلم الأطفال قراءة القرآن ، اما في المرحلة الجامعية (عندما يلتحقون بالأزهر) فيتعلمون مزيدا من القراءات · واسلوب التعليم في هذا المجال هو الحفظ وهوالأسلوب التعليمي الشائع في محر ، بل والعالم الاسلامي كله · وبعد ان يتعلم الطالب كيف يرتل القرآن الكريم ، يكون لدى بعض العلماء الطموح الكافي لملرغبة في فهمه وفي هذه الحال عليهم ان يطرقوا باب علم التفسير ·

لقد أصبح طالبنا الآن بعد درس كل هذا وحفظة فقيها كاملا أو ملا (*) مولكن اذا لم تهيأ للطالب الفقير منحه دراسية واشسراف علمي ، فليس عليه أن يتطلع لمحياة رغدة ، وبعد أن يكون قد أضساع سبع سنوات أو ضعفها في دراسته ، وقرأ حتى دار عقله وفقد صوابه وأصبح نصف أعمى ، قان عليه اما أن يتهالك على الصدقات المقدمة للكلية (الجامع) أو أن يجثم في دكان عطارة مثل شيخي العجوز محمود أو أن يعظ ويعلم في بعض القرى والبلدان مقابل ثمانية جنيهات استرلينية في العسام ، وفي ظل هذه الظروف ، يعجب المرء كيف يقسدم الأزهر أي دافع للدراسة به ، لكن رجل الجنوب (ربما يقصد العالم الثالث ، أو أهل الصعيد ، والمعنى الأول هو الأقرب) عاطل كسول بشكل

^(*) ملا ـ بضم الميم وتشديد اللام وفتحها ... (المترجم) .

اساسى ، ويذلك يتخرج كثيرون من الأزهر ويصبحون علماء لا يفعلون شيئا ، مثلهم فى ذلك مثل الرهبان الكابوشيين Capuchians • والقلة الموهبة تصل الى درجة مدرس ومن ثم يصبحون قضاة ومفتين ، وهدا داقع آخر للالتحاق بالأزهر ، فكل طالب لم يتخرج فى الأزهر بعد وقد وضع عينيه على منصب القاضى مع أن فرصة وصوله لهذا المنصب لا تزيد عن فرصة كاهن الابرشية فى أن يصبح كاردينسالا • وبعض خريجى الأزهر يحطون من قدر انفسهم لميعملوا كوكلاء Wakils (محامون) أو يجربون حظهم فى الأعمال الكتابية مدكماسبين حكوميين ،

وقبل أن أنهى الحديث في هذا الموضوع أقول اننى لا أستحليم أن أتفق مع الدكتور بورنج Bowring الذي يقول بقسوة من التعليم الاسلامي: « أن المقررات الدراسية التي يقدمها أساتذة الشريعة في المدارس الدينية لاعداد علماء المسلمين لا قيمة لمها على الاطلاق » فرأيه هذا يواجه بنفس القدر من الاعتراضات التي توجه لأولئك الذين يقللون من شأن الشريعة ذاتها ، فمثل هذه الآراء تتناول الوصايا الشكلية أكثر مما تتناول الأخلاقيات والمعانى الكامنة وراء الظواهر (الشكل دون المضمون) للأخلاقيات والمعانى الكامنة وراء الظواهر (الشكل دون المضمون) فكلا الجانبين (العقائد والمارسات) كانا دائما كلا واحدا للمشكل واضم من يقدروا الأخلاق وأن يفهموا النفس ويحسوا بالجمال ، فان الحاجة الى ذلك ستخلق الوسيلة يفهموا النفس ويحسوا بالجمال ، فان الحاجة الى ذلك ستخلق الوسيلة لشعرائهم وفلاسفتهم ، وشغلوا أنفسهم بالاستعداد للقاء الله بممارسة لشعرائهم وفلاسفتهم ، وهو الجانب الوحيد الذي يقهمونه الآن .

فليس من المفترض أن أمة في هذه المرحلة الحضارية ، كالأمة المصرية تؤمن ايمانا متحمسا دون أن يمتزج ايمانها بالتعصب ، فلسانهم الذي يسبحون به الله هو نفسه اللسان الذي يلعنون به أعداء الله ، وعلى هذا فالكافر ملعون من كل جنس وعمر وطبقة وفي كل الظروف ، وملعون من المجربين والمتحررين ، وهو ملعون من قبل صبية المدارس وخارج المساجد وداخلها ، فاذا سألت صديقك من هو هذا الشخص ذو العمامة السيوداء ؟ فانه يجيب : « آنه مسيحي – زرق الله سحنته » وان تسأل السيوداء ؟ فانه يجيب : « آنه مسيحي – زرق الله سحنته » وان تسأل خادمك : من هم الذين يغنون في المنزل المجاور ؟ ستأتيك الإجابة غالبا (بنسبة ؟ الى ١٠) كالتالى : « يهود ، عسى يزجون في جهنم » ، ويبدو من غير المفهوم أن المصريين الذين عاشوا كخدم لسنوات في ظل

الأوربيين - لازالوا يشمئزون بوضوح من عادات أسسيادهم وتقاليدهم ، واوربيون قليلون ـ باستثناء الذين اختلطوا بالمصريين تحت قناع شرقى - هم الذين يدركون اشمئزاز المصريين منهم واحتقارهم لهم ، وما سوى نلك فمجرد غطاء من كياسة فطرية ، أو مجرد قشرة من المجاملة وسرعان ما تتكشف مشاعرهم الحقيقية اذا أثير نقاش عن الأديان الغريبة • لقد أتيحت لى فرصة طيبة لتأكيد صدق هذا وذلك عنسدما سرت الاشساعة الأولى عن الحرب الروسية فقد تنادى كل القادرين بدنيا بالجهاد (الحرب المقدسمة) وكان الشيء الوحيد الواضع في مداركهم هو التقليل بشدة من شاأن أعدائهم • وبدا الجميع مبتهجين بفكرة التعاون مع الفرنسيين فالفرنسى _ بشكل أو آخر _ له شعبية في كل مكان • وعند المحديث عن انجلترا فانهم لا يكونون متساهلين بالقدر نفسه فيلوون رؤوسهم ويمتمون يعبارات دينية ، وأخيرا تأتى الصيحة الشرقية القديمة « الحق أن هؤلاء الانجليز شياطين » أما النمساويون فهم محتقرون لأن أهل الشرق الشرق لا يعرفون شبيئا عنهم منذ حصار العثمانيين لبوابات قينا . واليونانيون مكروهون باعتبارهم انذالا (أوغادا) ماهرين يلحقون الاذي بالاسلام ، وينظر المصريون لأهل مالطا باحتقار بالغ ، أما الايطاليون فمعروفون بشكل أساسي أنهم istraturi-distruttori - اطباء وصيادلة ومعلمون • فطبيعة المصريين - كالطبيعة البشرية في كل مكان - تتسم بالمتناقض ، انهم يكرهون الأوربيين ويحتقرونهم ومع ذلك فقد استكانوا طويلا للحكم الأوربي (١٠) فهذا الشعب يبدى اعجابا باليد الحسديدية والحكم المطلق الشجاع ،ويكره الحكم الاستبدادى الرعديد الذى يسحقهم سيحقا · ومن بين الأجانب جميعا يفضل المصريون القيد الفرنسي French Yoke وهذا يرجع للمهارة السياسية والعظمة الوطنية لجيراننا عبر القنال الانجليزى • لكن أى دولة تضمن السيطرة على مصر ، تكون قد ربحت كنزا فمصر تحيطها البحار من الشمال والجنوب (١١) وتحيطها

⁽۱۰) قام بيرتون برحلته سنة ۱۸۰۳ أى فى عهد عباس الأول ، وكتب رحلته فى عهد سعيد باشا (۱۸۰۶-۱۸۶۳) فماذا يعنى بخضوع المحريين للحكم الأوربى طويلا ، فالحملة الفرنسية (۱۸۰۸-۱۸۰۱) لم تمكث فى مصر طويلا ، والقوات الانجليزية التى ائدت للمساعدة فى اخراج الحملن الفرنسية تلكات قليلا لكنها سرعان ما خرجت ، وحملة فريزر ۱۸۰۷ على مصر باءت بالفشل ، ربما يقصد تغلغل النفوذ الأوربى فى مصر بعد مؤتمر لندن ۱۸۶۰ وفرمان ۱۸۶۱ ـ (المترجم) »

⁽۱۱) كانت الدولة المصرية في عهد محمد على تضم السودان وشبه جزيرة العرب ، وفي عهد اسماعيل شملت القرن الافريقي بالاضافة للسودان · وهذا يفسر عبارة بيرتبن هذه ـ (المترجم) ·

الصحراء التى لا يمكن اجتيازها من الشرق والغرب ، ومصر قادرة على تجهين ١٨٠٠٠٠ مقاتل ، وقادرة على دفع ضرائب ثقيلة ، ويمكن ان تقدم فائضا كبيرا ، فلو وقعت مصر في أيدى الغرب سهلت السيطرة على الهند ، ومكنت من فتح أفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس .

ولميس من خوف كثير من تعصب المصريين ، فقليل من التدبير يكفى للسيطرة على المسجد ، فرؤساء المؤسسات (ركائز العصب) - نظرا لميل الشعور العالم لمهم - سيضعون عقبات أمام الغازاة أو المحاكم الأجنبى - أقل بكثير مما يضعه العلماء (١٢) ، وباختصار فمصر هى أكثر الجوائز اغراء بحيث تجعل الشرق يبعدها عن أطماع أوربا - انها أهم حتى من القرن الذهبى .

⁽١٢) يقصد بيرتون كما هو واضبح أن الدراويش والطرق المعوفية لا خطر منها ، وليس لها كبير جهد في الدفاع عن استقلال البلاد ، وانما المخرف كل الخرف من العلماء الواعين المتمسكين بالدين بوجهه المسحيح - (المترجم) .



القصل السسايع

الاستعداد لمغادرة القاهرة

مظاهر عيد القطر ـ التعامل في مراكز الشرطة ـ باشا الليل ـ الامتيازات الأجنبية ـ زنانيرى ـ نورى ـ محمد البسيوني ـ تدبير المال لاستكمال الرحلة ـ كيفية تخبئة اللقود خوقا من اللصوص، ـ رئيس رواق الاقفان بالازهر ـ اليوزياشي الالباني ٠

واخيرا ، ولى رمضان شهر البركات ، وكم كانت ايامه طويلة ، فغمرتنا البهجة على نحص ما كانت البهجة تغمر الرومان بعد انهساء الكارزما Quaresima ، فانطلقت المدافع من القلعة معلنة انتهاء متاعبنا مع هذا الصوم الكبير Enten Woes ، وقد قدم جميع الناس زكاة الفطر في اليوم الأخير من شهر رمضان للفقراء بواقع قرش ونصف القرش عن كل فرد من افراد الأسرة ، بما في ذلك العبيد والخدم كرب الأسرة سواء بسواء ، وفي اليوم التالي وهو احد ايام ثلاثة يقال لها أيام العيد الصغير (أو عيد الفطر) ، استيقظنا قبل الفجر فاغتسلنا وتوضانا ، واتخذنا سبيلنا للمسجد لأداء صلاة العيد والاستماع الى الخطبة التي حثتنا على الرح لكن برزانة ووقار ، وبعد ذلك اكلنا وشربنا باسراف ، وحملنا في ايدينا الغلايين واكياس التمباك ورحنا نمشي بخطوات وديدة لنستمتع برؤية الوجوه الباشة ومظاهر الفرح والسعادة في الشوارع ،

والمكان الأثير في هذه المناسبة هو المقبرة الواسعة خلف باب المنصر ، وهو بوابة متينة وعتيقة تفتح على الطريق المؤدى للسويس ، وقد وجدنا في هذه المقبرة مظاهر ابتهاج صاخبة ، فالمضيام والمقاهى التي اعدت على عجل زاخرة بالرجال في الروع ملابسهم ، وهم يستمعون الى المغنين والعازفين ، ويدخنون ويثرثرون ، ويشاهدون الحواة والمهرجين وسحرة الافاعي Snake-Charmers والدراويش والقرداتية (او مدربي

القرود) والصبية الذين يرقصون وقد ارتدوا أزياء نسائية ٠ وقد حفت الطرقا تبموائد الطعام ، ومحالت بيع الحاوى (الكراميل) والسقائف (الشوادر) المليئة بادوات اللعب ، والظلل التي يباع تحتها شراب الليمون والشربات ، ويتداخل كل هذا مع الأرجوحات (المراجيح) merry-go--round التي هي محط انظار ولعب الدوامة (المدورة) الصغار والصغيرات • والمعلم الرئيسي في هذا الزحام ، أن القاهريين نوى الوسامة ، يحملون في أيديهم اخواص النخيل الطويلة ليجعلوا منها زينة لقبور آبائهم وأصدقائهم ٠ الا أنه حتى في هذه المناسبة الوقورة ، يوجد ، كما يقولون ، حالات غير قليلة من الغزل بالحسان ، بل وممارسات love-making ، لذا فثمة فرق من الشرطة مفوضة بمنع كل خروج عن الآداب ، ويحمل أفراد هذه الفرق عصيا طويلة ، الا أن طاقتهم أقل من المسئولية المنوطة بهم · فلم استطع ملاحقة الجماعات التي تتوغل زوجا زوجا (مثني مثني) لمسافات غير معتادة بين تلال الرمال ، حيث كانت أصوات الضرب بالفلقة (على الأقدام) تصك الآذان ٠ وعلى أية حال ، فان هذه السفاسف لم تكن ـ بأية حال ـ لتعكر جو السرور السائد • فكل امرىء قد ارتدى شيئًا جديدا ، فمعظم الناس كانوا يختالون في حلل مزركشة جديدة يزمعون الاحتفاظ بها خلال العام ، وياله من خيلاء (١) شخصي عارم ، ذلك الذي يعتمل في صدور الشرقيين رجالا ونساء ، شبابا وشبيا ، فمن القاهرة الى كلكتا قد يكون من الصعب أن تجد قلبا حزينا تحت معطف أنيق فالرجال يمشون في الأرض مرحا ، والنساء يضربن بأرجلهن متبخترات ، ولا يغضضن ابصارهن ، معناجات (جمع : مغناجة) بكل ما في الغنج والدلال من معان رغم رءوسهن التي يغلفها الخمار . والصغار يتباهون بشكل قبيح على أولاد الجيران اذا كانت حلة الواحد منهم افضل من حلة جاره • والبنات الصغيرات يرمقن بلحظهن العاشق كل عابر رمق ذات النزوة الشبقة ، كما ينظرن بتحد

لقد تجولت أنا والحاج حول المدينة ، وتبادلنا الزيارات كما يحدث عندنا في أوربا بمناسبة العام الجديد • ويمكنني أن أصف الزيارات في في مصر بأنها مجرد مناقشة عن النرجيلة والقهوة في مكان ، ومناقشة عن النرجيلة والقهوة في مكان أخر • الا أنه في هذه المناسبة فاننا

واحتقار للأخريات اللائي ينافسنهن ٠

⁽۱) استخدم بيرتون لفظ Vanity وقد يعنى خواء القلب أو (روقان البال) أو ما شابه ذلك ، في هذا السياق _ (المترجم) •

اذا التقينا بصديق القى الواحد منا بنفسه بين أحضان الآخر ، واضعا ذراعه اليمنى فوق كتفه اليسرى ، والعكس بالعكس ويعصد ويعصد ويعصد الواحد منا الآخر ، وكأننا مصارعان ، في عناق غير منقطع ، ثم يلتصق خدانا برقة ، ثم نشبع الهواء بأصوات قبلاتنا والتحية في مناسبة العيد هي : « كل عام وانتم بخير » ثم يأتى دور الأمنيات الطبية الوافرة والتوقعات الطيبة ، وبالنسبة للشخص المتدين فأن المرء يتوقع منه البركة ودعاء موجزا ، ولتوضيح أوجه الشبه بين الأعياد الاسلامية والأعياد السيحية ، أذكر أننا نتناول أطباقا ارتبطت بهذا اليوم هي أطباق السمك والشريك Shurayk وكعك الصليب الكحك العسير هضمه والذي يسمونه في مصر الكحك المسلم الذي يعدونه حلوى الاسلام الله الذي يعدونه حلوى الاسلام المناسلام ،

. the plum-pudding of Al-Islam

لقد كان العيد هذا العام كثيبا نظرا للأحوال السياسية اذا قورنت الأحاديث فيه بأحاديث الأعياد الخوالي ، فأخبار الحرب مع روسيا ، ومع فرنسا ، ومع انجلترا التي كانت بصدد انزال ثلاثة ملايين رجل في السويس ، ومع دولة الكفر بشكل عام ، كلها تلقى صدي في مصر ، قمدينة المريخ أو الله الحرب the city of Mars (يقصد القاهرة) أصبحت على غير العادة مدينة اساسسية ٠ فالتحصينات الحكومية والترسانات والمسانع ، كلها جميعا ازدحمت بالعمال المخطوفين (المسخرين) • وبالمنسبة لأولئك الذين قصدوا الحج ، فقد اعتراهم خوف من الاحتجاز القسرى · فحيثما يتجمع الناس في المساجد مثلا أو في المقاهى، سارعت الشرطة فغلقت الأبواب وقبضت عنوة على القادرين بدنيا وهذا الاجراء بربرى مماثل فىبربريته لقانون الاجبار على الخدمة العسكرية عندنا ، فقد ملأ الشوارع الرئيسية بكتائب من البؤساء الذين يستحق منظرهم الشفقة ، وقد ساقوهم ليجعلوا منهم جنودا ، وقد طوقوا رقابهم بالأطواق المعدنية والتفت السلاسل المعدنية حول الساغهم • وزاد من كآبة المنظر ، زحام النسوة وهن يتبعن أبناءهن واخبوانهن وأزواجهن مولولات نائحات ، واضعات الطين والتراب فوق ملابسهن المشقوقة، وهي المور معدادة في حالة الحزن والولولة عند الموت ، طريقة خاصة المتعبير عن اللوعة بسبب الفراق ، واحسل هذه العادة من السمات المميزة للناس . وبالنسبة للنساء الشرقيات ، فان المناسبات الترفيهية العامة ، المسموح لهن بحضورها هي الاحتفالات بمناسبة المولود الجديد ، وحفلات الزواج ، وحضور الجنازات ، فهذه المناسبات جميعا تعد بالنسبة للنساء مجالا للترقيه أو ما يطلق عليه بشكل عام مجالا للفنتظة (أو الفنتظية) (٢) وفى حالات كثيرة ، كانت حروب أسرة محمد على الباكرة فى الشام والحجاز ، قد حرمت النساء من حقهن الأنثوى فى النواح على الميت ، فانهن الآن مصممات الا يضعن الفرصة ، وأن يستمتعن بترف النواح على حياة المتوفى والبكاء عند جثته .

وثمة سحابة أخرى معلقة فى سماء القاهرة ، فالشائعات عن المؤامرات والمتآمرين تملأ كل مكان ، فاليهود والمسيحيون هنا ، مستعدون لمواجهة الخطر (إخذون حذرهم) كالانجليز فى ايطاليا - ترتعد فرائصهم خوفا من الاستعدادات المرعبة للعصيان المسلح والسلب ، وحتى المسلمون يتهامسون بأن بضع مئات من المجرمين الخطرين قد أزمعوا احسراق القاهرة مبتدئين بحى البنوك ، كما يزمعون نهب المصريين الأثرياء ، وعلى أية حال فان سمو عباس باشا كان غائبا فى ذلك الوقت ، وحتى لو كان فى القاهرة ، فان حضوره لم يكن يغنى كثيرا ، فالحاكم لا يستطيع أن يفعل شيئا نحو اعادة الثقة لملأمة الشرقية (لشعوب الشرق) المفعمة نعوا (التى ينخر الذعر والخوف فيها) ،

وعند نهاية هذه الفورة - كان ثمة رد فعل مضاد من السلطة السياسية ، فقد بدا قادة الشرطة في التنمر ، فصدرت الأوامر المشددة في مدن مصر الرئيسية بأن كل من يخرج من بيته بعد حلول الظلام دون ان يحمل معه فانوسا ، سيقضي ليلته في مركز الشرطة وان كان هناك - عادة - بعض التراخي في تطبيق ذلك في القاهرة في أحياء بعينها ، كحي الأربكية على سبيل المثال • وقبل أن أغادر القاهرة سحبوا مني الترخيص ، وقد أدت هذه الصرامة المفاجئة الى كثير من المشاهد المثيرة للسخرية •

فاذا اثنت ارسلت بالصدفة بالفائوسك مع خادمك الى بيت صديق ، ثم لحقت به على سبيل المجاملة بعد الساعة الثامنة بدهائق خمس (بزيك الشرقى) فكن واثقا أن العسس (الشرطة) سيقابلونك ، ويوقفونك ويطوقونك ، ويستجوبونك ، ويقبضون عليك ، وربما افلت من ثلاثة منهم أو اربعة ، لكنك ستجد اثنى عشى منهم (دستة) من القوة بحيث لا يمكنك الافلات ، فيمسكون بشدة اكمامك ، وذيل جلبابك ، ويطوقونك من فوق

⁽Y) لا يخفى على القارىء أن العامة ينطقونها بالطاء : الفنطناــة أو الفنطنليــة Trantasia بالمعتى الذى أشار له بيرتون فالمقصود أذن هذا أن هذه المناسبات مجال (للفرفشة) أو (المسخرة) ــ (المترجم) .

عباءتك الفضفاضة ، فتجد نفسك طائرا فوق سطح الأرض بقرابة تسع يرصات ، فلا تجد قدماك شبيئًا تلامسه غير الهواء • وستجد نفسك مسحوبا وقد المسكوا بتلابيبك بسرعة قلما تسمح لك بالاجابة عن سيل. استلتهم عن اسمك وجنسيتك وسكنك ودينك ومهنتك وعن سائر امرك يشكل عام - خصوصا عن الوضع الحالى لكيس نقودك · فان استجبت للطلب المغرى المتمثل في أن تدفع قطعة نقدية فضية (كرون) سرعان ما تقل تدريجيا الى بنسين أو نصف بنس - مقابل اطلاق سراحك - فانك تكون قد وقعت في شرك صغير ، اذ سيصوبون اليك البندقية قديمة الطراز ويستولون على كل مالك متهمين اياك بالعناد وتضييع الوقت الكن اذا تظاهرت بأنك نسيت كيس نقودك _ وهذا هو الأقرب للعقل _ فأنهم سيسبونك ويسحبونك بعنف متزايد الى مكتب ضهابط الشسرطة Zabit وهناك يدفعونك بعنف في ممر مقنطر يؤدى الى ساحة ، وقد صف العسكر على جانبي هذا المر ، وكلما مررت بواحد منهم أعطاك (قفا) أي ضربك على قفاك · ورغم غضبك فسيدفعونك فوق سلالم تفضى الى ممر طويل ممتلىء بكثيرين وقعوا فى الورطة نفسها التي وقعت فيها • ومرة اخرى يسالك كاتب ذو نظرات مرعبة عن اسمك ، وجنسيتك ، وأنا افترض هنا أنك متنكر أو تدعى شخصية غير شخصيتك -وتهمتك ، ويدون كل ههذا بدقة في سبجل ، فاذا لم توفق في الاجابة فأنهم يدفعسون بك الى زنزانة المسدانين (الهساسيل Hasil ?) لتقضي ليلتك مع النشالين أو اللصوص أو خليط من المجرمين . لكن أن كنت خبيرا بمثل هذه المواقف فانك تصر على مثولك امام باشا الليل Pasha of the Night ، ففي هذه الحال يخشى الكاتب أن يرفض طلبك فيسم عون بك الى مكتب الرجل العظيم (باشا الليل) وأنت تأمل تحقيق العدل ، والأخذ بثارك من اسريك أو معتقليك - أى الشرطة • وهذا تجد صاحب المقام الرفيع جالسا - وأمامه قلم ومحبرة وأوراق ، وفي يديه شبیشة وفنجان قهوة _ على دیوان (كنبة) عریض علیــه قماش قطنی. قذر في غرفة واسعة تنقصها الاضاءة الكافية ، وعن جانبه حارسان ، وامامه وقف - في نصف دائرة - المعتقلون الجدد ، يصخبون بأقوالهم . وعندما ياتى دورك فانهم يطوقونك جيدا لمتمثل في حضرته - مخافة أن تنتهز اللحظة المواتية لتعتدى عليه أو تقتله ، فينظر لك الباشا نظرة ازدراء قاسية ، ويشمخ بانفه ، ويقول بعنف : « هل أنت عجمى - أى فارسى ؟! » ويأمر باحضار الفلكة • لقد الأحظت أن مجرد ذكرك لحقيقة كونك « عجميا » (فارسيا) لم يعط بشرا حقا في القبض عليك وساجنك

وعقابك (٣) فتعلن مرة أخرى أنك لست أعجميا (فارسيا) وانما هندى تحت الحماية البريطانية · عندئذ يحدق فيك الباشا - وهو رجل تعود على الطاعة _ ليخيفك ، فتقوم أنت - كما هو مفترض - بالتحديق فيه ، حتى يقنعه قسمك ، فيستدير الى الشرطة ويسالهم عن تهمتك ، فيقسمون جميعا في الحال ، يالله أنهم وجدوك بدون (فانوس) ، ثملا ، تضرب الناس المحترمين ، وتعتدى على البيوت وتنتهك الحرمات فتقوم انت باخيار الباشا بوضوح انهم يأكلون السحت ، فيقوم الباشا بالايعاز لأحد حراسه بشم انفاسك لمعرفة ان كنت شملا ، فيتقدم الحارس - وهو زميل للذين قيضوا عليك ـ ويقرب أنفه من شفتيك ، وكما هو متوقع ، فانه يصيح « كخ » kich ويبدى على وجهه تقطيبات تنم عن الاشمئزاز ، ثم يجيب مقسما بلحية « أفندينا) أنه يشم الرائحة المثيرة للمياه المستقطرة (الخمر) وربما أدى هذا الاعلان الى ابتسامة شرسة تتبدى على وجه « باشا الليل » الذي يحب مشروب الكوراسو Curacoa ، ويفتن بالكونياك • لذا فان باشا الليل يتدخل لصالحك ، فيسمح لك بقضاء ساعات الليل على (دكة) خشبية بالقرب من الممر الطويل ، الى جانب شلة من الطفيليين الذين لا تسعفني اللغة المهذبة في ايجاد اسم لهم • وفي الصباح يستدعون انكشارية قنصليتك (٤) فيأتي مسئول منها ، ويطالب بك ، ويستهلون عملهم بذكر جريمتك ، ومرة أخرى تذكر اسمك وعنوانك ، واذا كانت تهمتك مجرد استحضار « الفانوس » الخاص بك ، فسيطلقون سراحك مع نصيحة أن تكون أكثر حذرا في القادم من أيامك • ومن المؤكد أن أول شيء تفعله بعد اطلاق سراحك ٠ هو الذهاب للحمام ٠

ومن ناحية أخرى فانك ان ذكرت لهم أنك أوربى فأما أنهم يطلقون سراحك مباشرة ، أو يرسلونك لقنصل بلدك ، فهو الذى يحكم فى هذا الموقف فهو المحلف Jury ، وهو السحان (٥) ، فالمسلطات المصرية فقدت نصف سطوتها فى الأعوام الأخيرة · وعندما استقر السيد لمين Lane للمصرة الأولى فى القصاهرة فأن كل الأوربيين الذين اتهما بالمعدوان على المسلمين ، قد أحيلوا حكما ذكر السيد لمين على المسلولين الأتراك ، أما الآن فأن السلطات الوطنية ليس لها سلطة قضائية على الغرباء (٢) ، ولا تدخل الشرطة بيوتهم · وإذا أردت دول الفصرب أن

⁽٣) السخرية واضحة هنا ، والمقصود « يعطى الحق » - (المترجم) •

⁽٤) السخرية واضحة - (المترجم) ٠

^(°) المقصود : « هو الخصم والحكم » - (المترجم) ·

⁽٦) المقصود : على غير المصريين - (المترجم) ٠

تقوى من عزم المسيحيين الشرقيين المشاركين لها في العقيدة _ فيمكنها أن تفرض نظاما أشد مما هو عليه الآن (٧) ، بالسماح لكل الرعايا المسيحيين الشرقيين حسنى الاعتقاد بأن يسجلوا أسماءهم في القنصليات المختلفة التي قد يفضلون الحصول على حمايتها (٨) . وهذا هو ما حاولته روسيا بشكل غير « مشروع ولا مبرر له » · اننا نقيد أنفسنا بعدالة منقوصة مستقاة من أن الدول الشرقية باعتبارها دولا مستقلة ، فمن حقها أن تقبض على الأجانب - الذين استقروا تحت سيادة هذه الدول بحكم المصلحة أو الظروف - وتحيلهم للمحاكمة • بينما لا تزال ترتعد فرائصنا ازاء أي حق ادعاء لنا على السادة الاقطاعيين من مواليد الأمم الشرقية · وعلى أية حال ، فما هي النتيجة اذا خولت بريطانيا العظمى لأبنائها المقيمين في باريس أو فلورنسا ، أن يرفضوا المثول أمام المحاكم الفرنسية أو الايطالية ، والمطالبة بألا تداهم الشرطة بيوت الرعايا الانجاين ؟ · اننى اقدم هده التساؤلات لأولئك الذين « يثرثرون ـ بلا معنى ـ عن المحقوق النظرية » اذا كان يعنيهم مصالح الآخرين وتقدمهم ، والأولئك الذين يتمتعون بقدر بسيط من التسامح والتحرر ، وقدر بسبيط من التعصب اذا ما كان رخاؤهم وكبرياؤهم الوطني مهددا ٠

وبالاضافة للمرضى - فقد تعرفت فى القاهرة ببعض المعارف الذين كانوا سببا فى سرورى ، فأنطون زنانيرى Zananire شاب سورى ، احرز تفوقا كلغوى تفضل على بأن منحنى فرصة النظر الى وجه زوجته بدون خمار (وجه حرمه) ، والسيد هاتشادور نورى Hatchadur Nury وهو سيد ارمنى - معروف جيدا فى بمباى الذى قدمنى لواحد من مواطنيه هو المعلم (الخواجا) يوسف الذى كانت نصائحه هى الأكثر فائدة بالنسبة لى - بالاضافة لتفضله على (السيد نورى) بافضال رقيقة اخرى ، لقد جال الخواجا (المعلم) يوسف بالطول والعرض ، وجمع من كل مكان باقة من المعلومات الطريفة ، وتاريخ هذا الخواجا ذو طابع رومانسى حالم ، فقد طرد من القاهرة بسبب هفوة من هفوات الشباب ، فهدا رحلاته ، وطهر نفسه بزيارة مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ،

 ⁽٧) يقصد الامتيازات الاجنبية · راجع مقدمة المترجم - (المترجم) ·

⁽٨) رفض المسيحيون المصريون الارتماء في أحضان الأجانب ، وتجلى ذلك بوضوح تما بعد ذلك في الربع الأول من القرن العشرين في ثورة ١٩١٩ اللتي شاركت فيها كل عناصر الأمة كما هو معروف حتى ان الاستعمار البريطاني حار في تفسيرها • ولما عجن عن اتهامها ــ أي الثورة ــ بالتعصب اتهمها بالبلشفية ، ولكن التهمة سقطت أيضا ــ (المترجم)

وأصبح درويشا (٩) في بغداد ، ودرس الفرنسية في باريس، وأخيرا استقر كأستاذ للغات في القاهرة بعد العفو عنه ، وقد شهدت في بيته زواجا أرمنيا ، وكانت ذكرى لا تنسى ، فقد كان على نسق حفلات زواج المسلمين من حيث الكابة ، فلا شيء يمكن أن يبعث المسعادة والسرور في نفس المرء من وجوه النساء الجميلات غير المحجبات ، وكانت بعض الضيفات نساء سمراوات جذابات بشكل رائع ، لهن عيون أروع مما يتصور الانسان ، وخصلات شعر سوداء سوادا خالصا ، وكان ثمة فتاة جميلة واحدة ترتدى الزي الوطني، وكانت كل النسوة تدخن الشيبوك ويجلسن على الكنب (الديوان) ، وكلما دخلت احداهن الغرفة ، قبلت أيدى الكاهن وكبار السن الحاضرين – ببساطة حلوة ،

ومن بين عدد معارقى كان الولد المكى محمد البسيونى الذى الشتريت منه ملابس الاحرام الخاصة بى ، والكفن (١٠) التى يتحتم على المسلم معادة من يبدأ بها رحلة الحج ، لقد كان قلقا موهو فى طريقه لمبلده قادما من اسطنبول من أن يصطحبنى كرفيق ، وأن كان قد سبق لمه السفر كثيرا بحيث يمكنه أن يكون صنوا لمرافقتى ، فقد سبق لمه أن زار الهند، ، ورأى الانجليدز كما عساش مع نواب بلو فى سورات علامه على الإنجليدز كما عساش مع نواب بلو قى سورات علامه من الرمد ، فقدم لى عنوانه فى مكة (المكرمة) وبعدها لم اعد اصدقائه من الرمد ، فقدم لى عنوانه فى مكة (المكرمة) وبعدها لم اعد اراه ، وقد وصف الحاج والى هذا الولد وجماعته بانهم ناس جرارين (أى مبتزين) (١١) (١١) Nas jarrar ومن المؤكد أنه لم يسيء الحكم عليهم ، ولكن ما حدث بعد ذلك سيبرهن كيف أن :

der Mensch denkt und Gott lenkt

وطالما أن الولد محمدا حدث وأصبح رفيقى فى رحلة الحج ، فسأعرض من أمره على القارىء شيئا موجزا قدر الامكان .

فهو شاب لا لحية له ، في حوالي الثامنة عشرة من عمره ، وبشرته بنية كالمشيكولاته ، وملامحه بارزة ، وهي أن نظرنا اليها من الجانب

⁽٩) النص : شخاذا أو متسولا دينيا a religious beggar المترجم)

⁽١٠) لا يتحتم على المسلم أن يحمل كفنه معه من الناحية الشرعية ، رغم أن هذه عادة متبعة ... (المترجم) •

⁽۱۱) أو على حد التعبير الشعبى « ناس نحيتة » أى ينحتون منك حتى يجعلوك مفلسا ، والنحت هنا يعنى الاستيلاء على كل شيء منك بصبر وهدوء • وهو المعنى المقصود _ (المترجم) •

قوية جسورة ، وعظام وجهه وملامحه المكية المؤكدة تضيؤها عينان ذوا خاصية مصرية يبدو أنهما انحدرتا اليه جيلا من بعد جيل وهو قصيير وعريض يميل للسمنة نتيجة قوة معدته وقدرته على النوم في وقت الحذر، وهو يستطيع القراءة قليلا، كما يستطيع كتابة اسمه، وهو ماهر في المساومة مهارة غير مألوفة • وقد علمته مكة (المكرمة) أن يتحدث العربية بشكل ممتاز وأن يفهم الأساليب الأدبية ، وأن يكون فصيحا وإن أساء استعمال فصاحته ، وأن يكون عميق الصوت عند أداء الصلاة ، وعند الدعاء في الحج · وقد أعطته اسطنبول طعم الغناء Anacreontic singing والمجتمعات النسائية ذوات الطابع الثرثار ، وحب الشراب الكمولي القوى ، وعندما اقترحت علیه اول مرة _ مرافقتی صدم ورمقنی بنظرة مفعمة بالنفاق ، وان كان له اسلوب مرتجل وعفوى ومتسامح على نحو ما في التعامل مع المرضوعات الجادة بشكل عام • وقد وجدته الابن الأصغر لأرملة وكانت حماقته تشكل مسلكه ، فقد كان أنانيا رقيقا (حنونا) كما هي عادة الأطفال المدللين ، وهو متقلب من السبهل استثارته ، ومن السبهل تهدئته (انه الشرقي) ويشتهي ما ليس له ، ويسرف فيما يملك (انه العربي) وبه رزانه تنم عن جراة منقطعة النظير (انه الرحالة) ، كما أنه صفيق ليس اكثر من نصف شجاع ، ذكى داهية محافظ على معنى دقيق للشرف _ خاصة فيما يتعلق بذوى قرباه (انه الانسان الفرد) • وقد رأيته في حالة غضب شديد لأن شخصا ما سب والده ، كما انني وهو كنا على وشك ان يفارق أحدنا الآخر لأنني في احدى المناسبات اطلقت عليه لقبا (نعتا) كنت اقصد به الأخ عالى العقل ، وإن كان يعنى لدى العامة لا شيء 1و لا قيمة له • وكانت مسالة الشرف هذه هي اقوى الجوانب في الولد محمد •

وخلال شهر رمضان خزنت في خزائني استعدادا للرحلة ـ شايا وبنا واقماع سكر وارزا وتمورا وبسكويتا وزيتا وخلا ، وتمباك وفوانيس واواني للطبخ وخيمة صغيرة على هيئة جرس ، وكلفني ذلك اثنى عشر شلنا ، وثلاث قرب ماء لزوم الصحراء ، ووضعت هذه المؤن في قفف (جمع قفة) وفي سحارة خشبية كبيرة يبلغ ضلعها ثلاثة اقدام ، ومغطاة بالمجلد ومزودة بغطاء آخر صغير في اعلاها وقد علقت هدده القفف بالاضافة لصندوقي الأخضر الذي يضم الادوية والخرج المليء بالملابس ـ في احد جانبي الجمل ، اما الصحارة فعلقت على الجانب الآخر ، فالبدو ـ مثلهم في ذلك مثل البغالين يحتاجون الى مراعاة التوازن دائما ، ووضعنا فوق الحمل الشبرية بالعرض ، وجثم الشيخ نور دائما كالغراب الكبير ، وكان هدا يستحق أن يتبختر في الشدوادع

مسلحا بزوج من المسدسات وسيف فى طول قامته • وسرعان ما رصدته عيون صبية القاهرة اللعوبين فبدءوا يصخبون ساخرين من منظر هذا المسلح حتى عاد ركضا الى خان القافلة (الخان الذى ينزل فيه رفاقه فى القافلة) • لقد لاحقوه حتى عاد كالبومة السكرى تطاردها قبرة، انهم صبية سيئون كمتشردى باريس ولندن •

ولأننى أنفقت كل النقود التى كانت تحت يدى فى القاهرة ، فقد كنت مضطرا لتدبير أموال جديدة ، وقد نصحنى معارفى من أهل بلدى أن أخذ معى ثمانين جنيها استرلينيا على الأقل ، وقدروا مصاريف السدفر الصحراوى بمبلغ بدا غير مفرط ، وقد وجدت بعض الصعوبات فى رفع البلغ عندما كنت فى الاسكندرية لولا تدخل صديقى جدون المبلغ ، المبلغ عندما لآن فيؤسفنى أن أقول اننى لا أتوقع زيادة فى المبلغ ،

كما أن السيد شيفرد Shepheard صاحب فندق شيفرد في القاهرة لم يعد موجودا الآن ٠٠ وقد تفحص أصدقائي (أو أتباعي) الهنود ورقة مربعة صغيرة ٠ وهي خطاب ضمان وتساءلوا تساولا معقولا: «أيمكن أن تكون هذه الورقة صحيحة ٢ » وذلك بعد أن حدقوا فيها كما يفعل الغراب أحيانا عندما ينظر بطرف عينه داخل عظمة ليتبين أن كان بها من أم لا وأخيرا فقد عرضوا بادب أن يكتبوا لانجلترا بشأني ، لسحب الأموال، وأخيرا فقد عرضوا بادب أن يكتبوا لانجلترا بشأني ، لسحب الأموال، واحتاج للقول أن مثل هذا الأسلوب في التحويلات لا يدع أية فرصلة لوصول التحويلات بشكل آمن في حالة أذا كان المحول معادن نفيسة وعندما انتهت الأزمة اشتريت خمسين حنها بقيمة الدولارات الألمانية وعندما انتهت الأزمة اشتريت خمسين منها بقيمة الدولارات الألمانية والمالة والمنابية والمنابقة والتكنة والمنابقة والتكنة والتكنية والتكنية والتكنية والتكنية والتكنة والتكنة والتكنة والتكنة والتكنة والتكنة والتكنية والتكنية

وعندما انتهت الازمه اشتريت حمسين حويها بقيمة الدولارات الالمانية (ماريا تريزا) ، واستثمرت الباقى فى الجنيهات الانجليزية والتركية ، وأما الذهب فقد كنت أحمله بنفسى ، وبعض الفضة جعلته فى حزام الوسط الجلدى الخاص بالمشيخ نور ، وبعضها الآخر فى الصناديق ، والسبب فى معينا من الأموال فى حقيبته ، فانهم لا يفتشونه هو شخصيا ، وإذا لم معينا من الأموال فى حقيبته ، فانهم لا يفتشونه هو شخصيا ، وإذا لم يجدوا فتشوه تفتيشا ذاتيا ، وإذا كان حزام الوسط الخاص به خاويا ، فقد يقتنعون بشق بطنه اعتقادا منهم أنه لابد أن يكون قد ابتدع طريقة خاصة حادقة لاخفاء الأشياء ذات القيمة ، وبمجرد ما عبرت هذه المشكلة ، سرعان ما وقعت فى مشكلة أخرى فجواز سفرى السكندرى الذى حصلت عليه بشق النفس كان يتطلب تأشيرتين : تأشيرة من مكتب الشرطة، وأخرى منمكتب الشرطة، وأخرى منمكتب الشرطة، وأخرى منمكتب القنصل، وبعد العودة الىمصر عرفت أنذلك من الاجراءات وأخرى منها المسافرون الذين يطلبون أى خدمة « مساعدة » من الدكتور والن يتبعها المسافرون الذين يطلبون أى خدمة « مساعدة » من الدكتور

بعد ذلك لتحصل على « التأشيرة » أو الأمــر من وزارة الخـارجية البريطانية •

لم آخذ جانب الحدر ، وكان لدى من الأسباب المسهية للاعتذار عن فعلى هذا • ونظرا لفشلى (في تحقيق ما أريده) في القنصلية البريطانية ، ولرغبتي في الا اعادر القاهرة الا بوضع قانوني واجراء سليم ، فقد كنت مضمطرا للبحث في أي مكان طلبا لهده الحماية القانونية والاجرائية فقد حدرني المصريون من أن الحجاج يواجهون العقبات في السويس • وكان صديقى الحاج والى هو أول من استشرته ، وبعد مناقشات ضافية عرض أن يصحبني الى قنصله الفارسي لنعرف المبلغ الذي يتعين على دفعه لأكون _ لفترة وجيزة _ أحد رعايا الشاه · وذهبنا الى مقر « الأسد والمشمس » ووجدنا أن ترجمان القنصل رجل سسورى مسيحى ماكسر ، فيعد أن سالني بشكل فج صارم عن أحوال حافظة نقودى (لم يعر اى اهتمام لجنسيتي) قدمني للرجل العظيم (القنصل الفارسي) لقد وصفت شخصيته قبل ذلك • وهو لا يستحق أن أفرد له ملاحظة ثانية • لقد كان الشبهد _ حقا _ مضحكا ويدعو للسخرية · لقد عاملنا بغطرسة زائدة عن الحد ، فاقصائي بعيدا عنه لأجلس في موضع لا أكاد أسمع فيه ما يقال ، وبعد أن شمخ برأسه وأدارها بصمت عميق ذهاء ربع ساعة تعطف قائلًا انه رغم أن أبي قد يكون شيرازيا ، وأن أمي قد تكون أفغانية ، الا انه لم يتشرف بمعرفتي ٠ وقد وجله الى رفيقه وهلو رجل فلاسي عجوز مهيب ذو حاجبين كثين ولحية الرجوانية داكنة بعض الأسئلة الفظة وغير المشجعة ٠ لقد اقتبست هذه الأبيات الشعرية :

> نعم الصديق فان طلبت معونة طرحت أمامك دون معرفة السبب ولم يقبل عوضا ولا مالا طلب •

« He is a man who benefits his fellow men.

Not he who Says «why» an «wherefore» and «how much»

⁽۱۲) السخرية واضحة ـ بطبيعة الحال في هذا الاستشهاد الشعرى كما لا يخفى على فطنة القارىء • وربعا كان بيرتون يشير الى البيت الشعرى المشهور:

لا يسـالون الخاهم حين يطالبهم
في النائبات على ما قال برهانا

وبناء عليه وجهتنى ذراع متعجرفة كالموجة القاسية لأعود للترجمان الذى كان لديه من الوقاحة ما جعله يطلب منى اربعة جنيهات استرلينية مقابل حصولى على جواز سفر فارسى • فقدمت له جنيها واحدا ، فسخر من عرضى ، فانصرفت محتارا مرتبكا • وعند عودتى للقاهرة بعد ذلك ببضعة اشهر أرسل ليقول انه كان يعرف اننى رجل انجليزى ، لذا فقد كان ينبغى أن أحصل على الوثيقة مجانا سوهو لطف منه كان يستحق عليه الشكر في حينه (لو أنه فعل ذلك) •

وأخيرا فان شيخى محمدا ، طرق على الخطة وهى ساخنة فقال لى :
« انك افغانى ، وسابحث لك عن رئيس رواق الأفغان فى الأزهر ، وهو .
سيكون صديقك اذا اكرمته » (قال لمى ذلك همسا) • لقد كاذ تالحالة تبدو ميئوسا منها ، فأجبرت معلمى الا يضيع الوقت •

وسرعان ما عاد الشيخ محمد بصحبة رئيس رواق الأفغان في الأزهر ، وهو رجل ضئيل الحجم نحيل ذو لحية مهوشة ، اعور ، ذو شفتين مشقوقتين ، يرتدى ملابس في الغاية من القذارة من طراز يصعب وصقه لفرط غرابته ، ولد في مسقط من أبوين أفغانيين ونشأ في مكة (المكرمة) ولمه طابع عالمي ، فهو يتحدث خمس لغات بطلاقة ، ويعج بالذكريات والخبرات نتيجة ترحاله ، وكدحه ، وقد رفض تناول القهوة أو تدخين الشيشة متظاهرا بالزهد ، ألا أنه أكل أكثر من نصف غذائي ، لدرجة أنني خفت من « زهده » هذا على صحته ، ثم تحدثنا بغير كلفة بعدة لغات ، وقدمت له بعض الكتب كهدية ، لكنه رفضها (فمثل هذه الهدية لا قيمة لها) وقد عبر الشيخ عبد الوهاب ـ وهذا هو اسمه عن رضاه عن حدرى واهتمامي بأمور نفسي ، وأخبرني أن أقابله في الجامع الأزهر في صبيحة اليوم التالي ،

ولذا ، ففى الساعة السادسة مساء ، ذهبت للأزهر مع الشيخ محمد وعبد الله خان ، الذى استعد بلبس عمامة ضخمة ثبت شالها بدبابيس ، لمقابلة طالب التوحيد · ومررنا عبر صحن المسجد المربع ، بخلنا ممرا كبيرا يشكل البناء الرئيسى للمسجد · وفى الجدار الشمالى كان يوجد باب صغير يؤدى بالصعود على درجات خطرة الى غرفة « كبنية » الحمام هى الحجرة التى يدرس فيها الشيخ الأفغانى · وقد وجدناه غارقا وراء اكوام من المخطوطات العتيقة ، ويحيط به الطلبة والنساخون · ولم يكن لديه كثير م نالأعمال لانجازها ، ولكنه لم يتفرغ لنا الا بعد وقت طويل ، وقد دفعنا الجو الخانق الى الخروج من غرفة

الدراسة وتوجهنا لساحة المسجد ، وسرعان ما لمحق بنا المشيخ الأفغانى ، وركينا جميعا الى القلعة ، وانتظرنا فى المسجد حتى انتهت سساعات العمل ، وعندما فتحت الأبواب ذهبنا الى « الديوان » وجلسنا صابرين حتى وجد الشيخ فرصة للحديث ، ولم يكن هناك الا موظفان فقط ، كان الحدهما عجوز معتل نحيل ، يرتدى لباسا على النسق التركى الأوربى ، يقبل الدراويش والأتباع يده بقسوة لأنه يقدم لهم بعض الصحدقات البسيطة ، أما الآخر فكان كاتبا شابا قويا مهمته أن ينسخ ما يطلب منه لا أن يدم يده ليقبلها الأتباع .

وقد سالونى عن اسمى وغير ذلك من البيانات الضرورية ، ولم أواجه بأى اعتراض ، فليس هناك من هو أكثر بركة وصلاحا من المسيخ عبد الوهاب بن يونس السليمانى ! لقد ملا الكاتب الأوراق باللغة التركية ، بطريقة مستعارة _ بشكل واضح _ من الطريقة الأوربية التى تهدف لسلب أموال المسافر ، ولقد صدقوا على البيانات الخاصحة بى _ بضحان الشيخ _ باعتبارى عبد الله بن يوسف ، من كابول ، وكتبوا فى الأوراق صفاتى ، واعطونى الوثيقة مقابل خمسة قروش ، فاستلمتها بسحادة .

وغادرنا المكتب ، بعد ان قدمنا انحناءات الشكر ، والدعوات بالبركة وكثيرا من التمنيات والدعوات ان يجعل الله الحج من نصيب الموظفين في المكتب ، وعدنا في اتجاه الأزهر ولما كدنا نصل للجامع (الأزهر) ، تلكأ الشيخ محمد وبدت منه اشارة ، فسحبت نفسي بالقرب من الأفغاني وطلبت يده ، فاستجاب للتلميح ، وتمتم : «شيء بسيط ، لم نفعل الاشيئا بسيطا ولم نفعل الاشيئا » « غير ضروري » « والله ، لا لزوم لمه ٠٠ » ومد اصابعه وهو يقول ذلك ، واستجمع قواه ليقبض بكل ما اوتى من قوة على ثلاثة دولارات واستجمع قواه ليقبض بكل ما اوتى من قوة على

انه رجل فقير! اعتقد انه من الضرورى بالنسبة له ان يوافق على ان ادفع له ، فمثل هذه الأمور شائعة باعتبارها من اعمال الاحسان لدى المسلمين ، فلديه روجة واولاه وهو رجل عالم (فقيه) وهو امر لا يثمن بكثير في مصر .

وقد عجلت برحيلى من القاهرة بسبب حدث طارىء ، فقد فقدت شهرتى بسبب قليل من سوء الحظ حدث لى على هذا النحو ، ففى غرفة المحاج والى فى الخان قابلت يوزباشى Yuzbashi أو قائد عسكر البانيين غير نظاميين كان فى محر ، قادما من المحباز ، وكان طسويلا ، بارن العظم ، جبليا عريض الأكتاف ، فى الأربعين تقريبا ، ذو حاجبين كثيفين ،

وعينين ناريتين ، وشفتين نحيلتين ، وفك اعجف ، وذقن حكذقون بنى جنسه منابئة ، وكان شارباه طويلان للغاية ومفتولان ، أما يقية وجهه فحليق خال من الشعر كراسه ، اما فستانه بالذى وضعه فوق راسه نظافته لا مثيل له ، وكذلك كابه (غطاء راسه) الذى وضعه فوق راسه باهمال وجعله يتدلى على جبهته العابسة فقد كان خاليا تماما من الاوساخ والبقع ، ولأنه كان ممنوعا من حمل المسدسات الأثيرة لديه ، فقد اكتفى يغرز يده اليمنى في حزامه الخالى ، وراح يمشى متشامخا حول الخان وقد بدا عليه المظهر العسكرى كأوضح م يكون ، لقيد كان على اغيا وقد بدا عليه المظهر العسكرى كأوضح م يكون ، لقيد كان على اغيا المندوب المروعة ، وقد كسرت العظمة الرئيسية الأمامية في احدى ساقيه بسبب رصاحة تركية أصابته بينما كان يناور في التلال الألبانية مما وصوته أجش ، وله موهبة محزنة في الشخير ، ولم اره أبدا رزينسا كامل وصوته أجش ، وله موهبة محزنة في الشخير ، ولم اره أبدا رزينسا كامل

لقد بدأ على أغا بنوع من العاصفة التي تهب ، وتخلف بعدها طقسا لطيفا • لقد كنت أرى الحاج والى مسدساتى بالبراميل الدمشقية عندما دخل على أغا الغرفة ، فجلس أمامى بابتسامة عريضة ذات معنى واضع بما فيه الكفاية وكأنه يقول : «أى عمل لك بالأسلحة ؟! » ونزع السلاح من يدى وبدأ يتفحصه تفحص خبير • ولما لم يعجبنى منه هذا التصرف ، فقد نزعته منه ، ووجهت حديثى للحاج والى ، وتبادلت وهذا اليوزباشى النظرات ، فأمال كابه (غطاء رأسه) الى جانب رأسه باختيال وأبدى رغبة مثيرة في المشاكسة والعراك ، فبرمت شاربى لاثارة عاطفة القرابة بينى وبينه (١٥) • ولو كان مسلحا وكنا في الحجاز لاقتتلنا مباشرة ، فالأرناؤوط (الألبانيون) كما يقول الايطاليون (غضبهم ملتصسق بمسدساتهم) هو قول يعنى أنهم يطلقون

⁽۱۳) هو التنورة الألبانية ، وقد تعنى الكلتية ، وهى .. فيما يذكر صاحب معجم المورد .. تنورة ذات ثنيات طويلة يرتديها الرجال في اسكتلندا والهزاد المغرق الاسكتلندية في الجيش البريطاني .. ومن الواضح أن الفستان المذكور هنا دو طابع المبانى ، ولا علاقة .. كما هو واضح .. للفستان المذكور هنا بفساتين النساء ، وهو المعنى الذي صرفنا الكلمة اليه بعد ذلك .. (المترجم) .

⁽١٤) النص wagger: by heavy: wagger والمخصرة عصا مكسوة بالجلوذ يحملها الضابط، وقد يكون المقصود انه يخفى عرجه تحت ستار من العجرفة الزائدة، وقد ملىا للترجمة التى اثبتناها في النص لقربها من معنى السياق ــ (المترجم) •

⁽١٥) بمعنى أن لك شاربا ، ولى شارب ، فنحن .. أنا وأنت .. من دوى الشوارب ، فنحق شاربينا ، لا يجب أن نتعارك .. أو معنى قريبا من ذلك .. (المترجم) •

اسلحتهم في وجه الصديق أو العدو عند أول استقرار أو عضيب -وبطبيعة الحال ، فأن الطريقة الوحيدة في ظل هذه الظروف هي أن أستيق الأحداث ، وحتى هذا التصرف الدائس ناذرا ما ينقد الغريب ، فالانسان لا يخرجون الا أزواجا (لا يسيرون فرادي) • لم أواجه آبدا ما هو أكثر ياسا وحطرا في نتائجه من تصرفي هذا • فالذخيرة ممنوعة على تخط كتائب الألبان المشاة ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدثت بينهم مبارزات بالمسلام تصل الى ست في النهار . وهم عندما يتعاركون على أنصبتهم فمن المالموف أن يسحب المواحد منهم مسدسه ويضع فوهته على صددر غريمه • لذلك فالأسلحة تبقى دائما غير عامرة بالذخيرة ، وهم نادرا ما يخطئون التصويب ، وإذا سحب أحد المقاتلين منهم زند مسدسه مصويا سلاحه لمقاتل آخر ، فان شهود العواقعة سرعان ما يطلقون عليه الرصاص • وفي محس فان هؤلاء الأرناؤوط (الألبان) الذين يستخدمون كجند غير نظاميين ، والذين ينقضون على الفلاحين البائسين اذا كانوا غير قادرين على دفع الضرائب ، أو غير راغبين في دفعها - فقد كانوا يمثلون بالنسبة للسلطان رعبا ٠ وفي مناسبات كثيرة تعاركوا مع الأجانب وأهادوا نسوة اوربيات . وفي الحجاز طال خطرهم حتى البدو . ويقول أهل المدن عنهم النهم « باعة كروش ، وخدم حمامات في اسطنبول وفراعنة (٦) في شيه جزيرة العرب » ويسلى الأرناؤوط (الألبان) انفسهم في جدة باطلاق النار على القنصل الانجليزي - السيد أوجلفي Ogilvie - عندما يسير في شرفته ٠ ويبدو لهم اطلاق النار على رجل ، رياضة محبية ٠ وتوضيح حكايات كثيرة في القاهرة ما اعتادوه من ايذاء الجمالة ، اذا تجاسر واحد منهم ومر راكبا أمام تكناتهم • والألبان يتبجدون بمهارتهم في استخدام الأسلحة ، ويتعالون على العرب والممريين على نحو سواء • الا أننى لم أجدهم بارعين في استخدام أي سلاح (باستثناء السدسات) ، وضباطنا الذين زاروا تلال بلادهم يتحدثون عنهم باعتبارهم ذوى قدرات معقسولة ، الا انهم بلا جدال - افضسل من يستخدم البنسادق rifles .

وقد قام اليوزباشي غير النظامي ومشى بعظمة خارج الغرفة بعد ان البدى حزنا لأنه لم يحقق سعادته باطلاق النار على ، وبعد أن نظر لى بحقد وغل لفترة من الزمن ، وبعد ذلك بيوم أو يومين دعوته بلظف كاف فجلس معى وشرب فنجانا من القهوة ودخن الشيشة ، وبدأنا نتحدث ، لكن لأنه يعرف حوالى مائة كلمة عربية ، وكلماتي التركية هي الغالبة ، فان المحديث بيننا واجه صعوبات ، لكنه سرعان ما طلب منى همسا

⁽١٦) المقصود : غلاط ومتجبرون سـ (المترجم) ٠

Araki » فأجبته أنه لا أحد في الخان مما أدى الى اصدار شخير ونفير كنفير الحمار ، وكلمة الحمار هي الكلمة الاصطلاحية العامية التي يطلقها المسلمون المتعسكون بدينهم على السكير • وبعد أن قام ايذانا برحيله حاصرني بمزاح ، وتفحصني بعينيه الملتين دلتاني على انه كان يجرب قوتي • لقد عرض نفسه لاحدى حركات المصارعة والتي تسمى اصبطلاحا حركة الأرداف المتصالبة (١٨) وجعل رأسه تلامس مباشرة الأرضية الصخرية بدلا من سريرى ، ظنا منه اننى كطبيب مندى ورجل معتدل قد لا الكون خطرا للغاية ، ويبدو انه لم يكن قد شرب (خمرا) لعدة أيام . وكان لسقطته اثر طيب في مزاجه ، فقد قفز عالميا ، وربت على رأسي وطلب تدخين شيشة اخرى وجلس ليرينى جروحه ، ليتباهى باعماله البطولية • ولم أستطع أن أتفحص خاتصا من ذهب انجليزي بفص من حجر الدم (عقيق مخضر به بقع حمراء) استقر بشكل غريب في يده الخشيئة التي سفعتها الشمس • وقد صرح أنه اختطفه من أحد القناصيل في جدة ، والجع تاريخ اكتسابه له مازحا - بانه خليط من تاريخ الباني وتركى وعربى • وتوسيل الى أن أمده بقليل من سم غير مميت لتهدئة عدو يسبب له المشاكل ، فأعطيته خمس حبات من دواء مسهل (كالموميل) لهذا الغرض النبيل »!! فأخفاها بعناية في جيبه • وقبل أن يستأذن في الانصراف شدد على دعوتى للشرب معه ، ورفضت أنْ يكون ذلك بالنهار ، لكننى رغبة منى في معرفة الطريقة التي يضحى بها هؤلاء الناس للاله باخوس - وعدته - مطاوعا اياه - بأن أشرب معه ليلا . وفي حوالي الساعة التاسعة عندما هدا الخان اخذت شيشة وكيس تمباك ووضعت خنجرى في حزامي ، وتسللت الى غيرفة على اغا ٠ فوجدته جالسيا على فراش فوق الأرض وامامه اربع شمعات (كل الشرقيين يفضلون المشرب في النور الساطع) ، وطبق كبير مليء بالحساء وطبق من اللحم المسلوق البارد ، وطبقان من المسلطة من خيار مقطع وروب (زبادى) ، وقارورة عرقى نحيلة وطويلة من زجاج أبيض ، وقارورة أخرى ذات رائحة قوية ، وكلة القارورتين لفتا في خرق مبللة ، وهي الوسيلة المعتادة للتبريد ٠

وقد رحب على أغا بى بادب ، ولما رائى معجبا باستعداداته نبهنى الى أننى كنت أظن أن الألبان لا يعرفون كيف يشربون ، وأجلستى الى جسواره عى الفسراش ، وقذف بخنجره عى طسول يسده ، وهى اشسارة للى أن أفعل الشيء نفسه ، وتهيأنا لنبدأ المباراة (المقصود مباراة الشرب

⁽١٧) نوع من المضمور ... (المترجم) .

⁽١٨) النص : "Cross-butlock" وهي ترجعة اجتهادية ... (المترجم) .

والأكل) • واخذ كاسا صحفيرة من النوع الذي يستخدمه الحوذيبون العربجية) الفرنسيون لشرب الجوت Boutte وقفصها ومسحها باجبيعه السبياية من الداخل ، وملاها حتى حافتها ، وقبمها لمي مع انصناءة فتقهلتها منه ، بسبلام خفيض ، وابتلعت ما بهسا دفعة واحدة ، وقلبتها دلالة على الني شربت كل ما بها ، ووضعتها على الأرض ، مع جركة فكهة من ذراعي ، تشبه على نجو ما يفعله الملاكم عند نهاية الجولة ، والبجئيت مرة أخرى، وطلبت منه أن يشرب بدوره • فقام بالاجراءات نفسها التي سبق أن قمت بها • وكذا نشرب جرعات من الماء ونتناول قدر ملعقة من المحم أن السلطة لتبريد حلوقنا حقب كل كاس من المشروب مباشرة • وعدنا لشيشتنا فنفثنا دخانا كثيفا كون سحابة ضخمة في الغرفة ، وراح كل واحد منا ينظر لملآخر نظرات السرور والتفكه فالشراب عند المسلمين نوع من الخطايا الجالية لمتفكه والسرور

لقد كان اليوزباشي الألباني مخمورا ثملا منذ البداية عندما شرعت في مباراة الشرب معه ، ومع هذا فقد استمر يملأ كروسه ويفرغها في جوفه دون تبصر للعواقب ٠٠ وكنت اتوقع لمفترة ــ عبثا ــ أن يصدر عنه مزاح خشين أو طرائف فاحشة ، وهو ما يصاحب الشرب بشكل عام عند الجنوبيين الشرقيين ٠ لكن على أغا ــ في الحقيقة ــ لــم يزد على ملء كف يده اليمنى بالعطر ينثره في وجهى ، وكنت أفعل مثل ذلك ٠

وبعد ذلك بدأ صديقى مشروعه الكبير ، فطلب منى أنه يجب أن اغرى الحاج والى الرجل المحترم - بالمقدوم للغرفة لنجبره على الشرب وكانت الفكرة طريفة مضحكة فستجعل قاضى شارع بو الوقور يرقص البولكا (١٩) فى الكازينو (٢٠) · وبدأت أفتش عن الحاج (الحاجى) والى، وعندما رجعت وهو معى (أى الحاج والى) وجدت على أغا قد وصل الى مرحلة جديدة من مراحل « انبساط السكارى » فقد أقام فرع شجرة اخضر ، وأوقفه على الأرض (بسناد) وراح يقلب الماء ، ليصدر صوت المقرقرة ، وراح يسكب الماء ببطء لميكون مجرى غير عريض من ماء يجرى تحت الخضرة (فرع الشجرة الذي أقامه) ، بينما هو يجلس محدقا متأملاً ... وهو منتفخ في أبهة زائفة تذكرنا بأوهام دون كيشوت الضعيفة ... متأملاً اشجار مزرعة أبيه وبين غدرانها ، وربما يكون قد أسكن هذه

⁽١٩) البولكا رقصة بوهيمية مقعمة بالحيوية (عن معجم المورد) - (المترجم) ٠-

⁽۲۰) أو في أحد نوادي القمار وهو ما تفيده أيضًا كلمة (Casino) . (المترجم) ·

الأرض وعمرها « بالبرابرة الشبان » لأبنى ما حقيقة ما ظننت أن بمعة كانت تتالق في عينه المتحجرة الله!

الا أن ظهور الحاج والى _ فجاة _ قد غير المشهد كله ، فقد تققر على اغا ، وحاصر الزائر (المقصود الحاج والى) بكتفه وأجبره على الحاوس وانتهز فرصة فزع الرجل العجوز عند رؤية المنظر ، ومالا كاسنا ، وقلب سحنته بشكل خيالى ، وأصر أن يشربه الحاج ، الا أنه رفض بعناد عندند وضع على أغا الكاس عند شفتيه وافرغه في جوفه ، فتضرر الرجل وتفزز ووبخنا ، وقد جعلنا صديقنا غير المرح (الحاج والى) يتخد بعض انفاس قليلة من الشيشة ، ثم عدنا سيرتنا الأولى ، ولم تجد توسيلات الحاج بانه لم يقترف أثم شرب المخمر طول حياته ، كما لم بجد قوله بانه سيشرب معنا غدا ، ولم يجد استشهاده بأيات القرآن الكريم ، فراح يلاطفنا حينا ، ويهددنا بالشرطة أحيانا أخرى ، وأخيرا هب الحاج يلاطفنا حينا ، ويهددنا بالشرطة أحيانا أخرى ، وأخيرا هب الحاج واندفع خارجا لا يلوى على شيء ، تاركا طربوشه ، وخفه (صندله) وشيشته في أيدى الأعداء ! ولم يجرق على أغا على متابعة الحاج بعد باب الغرفة ، فعاد يسكب السائل الدنس (الخمر) على كابه (غطاء باب الغرفة ، فعاد يسكب السائل الدنس (الخمر) على كابه (غطاء بعرفها بانه حمار .

ثم هيانا انفسنا لمتناول العشاء فجهزنا الحساء واللحم المسلوق والسلطة ، وشربنا قليلا من الكئوس ، ودخنا الشيشة قليلا ، لتحاشى عسر الهضم ، الا أن على أغا هب واقفا بشكل ملوكى مهيب ، وقال أنه يريد مجموعة من الراقصات ليمتم ناظريه بالرقص .

فأعلنت أن هذا الأمر ممنوع في الخان فسأل بعنف رزين : « من الذي منعه ٢ ، فقلت لمه : « الباشا » وبعد اجابتي هذه حرك على اغا كابه (غطاء رأسه) بهدوء ، وفركه بساعده الأيمن وثبته على جبهته ، وتقدم للأمام ، وبرم شاربيه ، ووضع الشيشة على كتفه ، وتحرك ناحية الباب ، وصرخ قائلا انه سيجعل الباشا نفسه يأتي ليرقص أمامنا ·

لأننى كنت اتوقع حدوث جلبة وعراك ، فقد شعرت بالامتنان لأن صديقى المرح (السكران) نسى خنجره ، وهتف هاتف المحكمة نى نفسى أن أعود لمغرفتى لأغلق بابى وأوى الى فراشى ، الا أن تفكيرى الواعى هدانى الا أترك الألبانى فى وضعه الحالى حيث لا يجدى تقديم أى عون له ، لذلك فقد تبعته فى الممر المخارجي وجررته نحو المحجرة ، وتوسلت لليه أن يعود لمغرفته ، كما تفعل الزوجة اليائسة لاجبار زوجها المخمور على العودة لبيته ، الا أنه سمثله فى ذلك مثل الزوج البريطانى سفضب على العودة لبيته ، الا أنه سمثله فى ذلك مثل الزوج البريطاني سفضب

غضيا شديدا بسبب هذه النصيحة غير المحبية ، وضرب - فورا - بأنبويا شيشته اول شخص قابله في المر ، وجعله يولى هاريا هابطا السلم ، وراح يصيح صيحات مخيفة قائلا: «يا مصريين " يا ملاعين " يا جنس فرعون يا جنس علي " يا مصريين " يا جنس فرعون يا جنس علي " يا مصريين "

ثم اندفع وفتح بابا بكتفه وترنح داخل الغسرفة حيث كانت سيدتان عجوزان تستريحان بهدوء الى جوار زوجيهما اللذين كانا يعملان فى صناعة السلال ، سرعان ما استيقظوا ولما رأوا غريبا فى غرفتهم وسمعوا الفاظه البذيئة ردوا عليه بوابل حار من الشتائم والتوبيخ .

لقد حسم السان العجوزين المعركة ، ورغم كل محاولاتى فان على أغا هبط السلم مترنحا وسقط فوق فراش حارس الليل (بواب الليل) ، ولحسن حظ على أغا فقد كان خادمه وهو حسبى ألبانى قوى ... منطرحا على حصيرة فى مدخل قريب ، فقام بسبب الجلبة الحادثة ، وقفز ووجد اليوزباشى فى حالة غضب شديد ، وكان من الواضح أن الخادم معتاد على مزاج سيده ، فطلب منا جميعا ... دون تأخير ... المساعدة ، فمددنا ايدينا للمساعدة وراح نصفنا يجر اليوزباشى الألبانى ، ونصفنا الآخر يحمله حتى وصلنا به لغرفته ، ورغم وضعه الحقير هذا ، فقد حمرخ بأعلى صوته ، حمخة الحرب القديمة (التى قالها آنفا) « أه يا مصريين ، يا جنس كلب ، ٠٠ لقد لوثت شرف كل نساء الاسكندرية ، وكل نساء القاهرة ، وكل نساء القاهرة ، وكل نساء الموين الظاهرة ، وكل نساء العرف من المنا ويلزيا (من ويلز) لم يتخرج فى اكسفورد ... فى ظروف مشابهة ... يمكن أن يسبب متاعب أكثر من هذا ٠

وقابلنى الحاج والى فى صبيحة اليوم التالى بابتسامة صفراء وقال لى : « لقد قمت بأفضل بداية لرحلة حجك ! » •

وقد كان على حق ، فقد ظل الحديث فى الخان طوال اسبوع تقريبا يكاد يقتصر على ما فعله اليوزباشى غير النظامى ، الألبانى الكريه، وعلى نفاق الطبيب الهندى مدعى الوقار · هذا عزيزى القارىء ما فقدته فى القاهرة ، لقد فقدت سمعتى كرجل محترم جاد · اذ كان على أن ابين للجميع لل من خلال الخبرة الشخصية للتيجة شرب المسكر مع البانى

ولم اضع الا وقتا يسيرا في استئذان اصدقائي واخبرتهم على سبيل الاحتياط به ان هدفي هو ان اصبل اللي مكة المكرمة ، عن طريق جدة ،

بيتما كان مدفى المقيقي هو الوصول للمدينة المنورة عن طريق ينبع أن المكنني ذلك • فالمثل العربي يقول :

اكتم ذهبك ومذهبك وترهايك

(71) Conceal Thy Tenets Thy Treasure and Thy travelling.

⁽٢١) هذا بالتأكيد ليس مثلا عربيا ، وإنما هو قول يردده الشيعة الفرس من باب التقية ، وقد راجعت كتاب الامثال للميداني على سبيل المثال ، قلم أجب هذا المثل ضمن الامثال العربية ، ويبدو أن ثقافة بيرتون الواسعة (العربية والفارسية والفارسية والهندية والاوربية) جعلته يخلط بين عناصر الثقافيات المختلفة فالعرب يشكل عام لم يصلوا في التقية الى حد قول عكس ما ينوون فعله ، وأن كانوا يقولون أحيانا أقوالا على شاكله ، وأستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، أو (دارى على شمعتك) ١٠٠٠ المن (المترجم) .

القميسل الثامن

من القاهرة للسويس

الاتفاق مع الشيخ نصار (بدوى من الطور) - حضور الشهيخ الاففائي للوداع - العيون النيلية - قبائل سيناء - وصف الطريق الصحراوي من القاهرة للسويس - لقاء محمد البسيوني مرة اخرى - مقام الدكرورى - لقاء مجارية بالسين في الطريق - جهود محمد على لمتامين الطريق - قلعة العجرودي - بير السويس - بوابة السويس - خان جرجس الزهر -

وافق الشيخ نصار وهو بدوى من الطور (جبل سيناء) كان فى طريقه لبلده سان يعطينى جملين ، مقابل خمسين قرشا (حوالى عشرة شالمات انجليزية) للجمل الواحد ، ولأننى كنت أرغب فى أن أبدو بعظهر مجترم ، فقد قبلت هذه الشروط : رجل متواضع يسافر راكبا جملا ، ويچر الجمال خلفه ، ولكن بالإضافة للتفاخر والتباهى ، فقد أردت لمرافقي (تابعى) أن يكون راكبا ، فقد نخسطر للمشى القسرى ، وذلك لأتأكد بالتجرية العملية الى أى مدى أضاعت أربع سنوات من الحياة الأوربية اللينة (المخنثة) قدرتى على التحمل ، وقد يعتقد القارىء جازما أن مناك محكات (تجارب) أخرى قليلة أفضل من الركوب فى عز الصيف مسافة أربعة وثمانين ميلا على سرج خشبى يحمله جمل سيىء ، عبدر صحراء السويس ، أنه حتيه حامل الدروع القوى التابع للفارس المشهور بصفائحه النحاسية ، قد لا يزدرى (يستسهل) تجربة من هذا النوع .

وقد جعلت صبيى الهندى ، والمتعتى الثقيلة تسببقنى للسسويس بيومين ، فالجمال المحملة بيشكل عام به تستغرق خمسا وخمسين ساعة السين ساعة لانجاز هذه الرحلة ، وقد قضيت الفترة ما بين انطلاق صبيى الهندى والمتعتى الثقيلة من ناحية ، ورحيلى من ناحية اخرى مسع المحاج والى ، وقد نصحنى أن اركب منطلقا في حوالي الساعة الثالثة عصرا ، قبذلك ربما اصل للسويس في مساء اليوم التالى ، وساعدنى في

تجهيز ما احتاجه للرحلة من ماء وتمباك ومؤن ، وفي الصباح الباكر في يوم رحيلي حضر الشيخ الأفغاني الى الخان ، وتناول طعام افطاره معنا « فهذه ارادة الله » وبعد أن أفطر بشراهة ، وضع يده على في وضع من يمنح البركة ، وأراد معانقتي ، ولكنني أبعدت يده بتواضع ، وبمجرد أن أعطانا قفاه ، اشار الحاج والني بسبابته وانفجر ضاحكا بشكل ساخر · وحزنت لهذا · وفي الساعة الثالثة حضر نصار البدوي ليعلنني أن الجمال قد اسرجت و فارتديت ملابسي ، ووضعت مسدسي في حزامي ، وجعلت الخيط الحريري القرمزي الذي ربطت فيه (الحمايل) أو الكيس الذي يحمل فيه المصحف - ظاهرا على كتفى دلالة على الذي حاج • ثم وزعت قليلا من الهدايا البسيطة لملاصدقاء والخدم ، وهنطت السلم هبوط الأشخاص المهمين ، مصحوبًا بالشبيخ محمد والحاج والي . وفي الساحة وجدت الجمال جاثمة ، ووجدت أن الجمال الثاني هو الذي سيمبحبنا • وقد اعترضت على هذا لأن البدوى الرئيسي (الجمال الأساسي) كان يتوقع بطبيعة الحال أن أطعمه على نفقتي ، الا أن نصار أقسم أن هذا الرجل (الجمال الثاني) أخوه ، ولما كان من النادر ان تفوز عند الدخول في أي خلاف مع هؤلاء الناس ، فقد سمحت للجمال الثاني بقيادة جملي ٠

ثم أتى وقت الاستعداد للوداع ، فعانقنى الحاج والى بحرارة ، وفعل الشيء نفسه شيخى العجوز الفقير الذي أصر على اصطحابني حتى بوابة القاهرة ، رغم ضعفه ، ورغم اعتراضى ، وركبت الجمل ، وعبرت ساقى قبل الحنو (۱) (وهو القسم من السرج المقوس المرتفع من قدام السرج ومن مؤخره) والركاب ، وهو اسلوب عير معتاد في مصر ، وتقدمت صديقى ، وهبطت الشارع المؤدى للصحراء ، ولما برزنا من البوابة الضخمة للخان فان كل المشاهدين – ما عدا البواب – الذين كانوا يعتقدون أننى فارسى ، والذين كانوا قد راونى مع اليوزباشي الألباني السحكير ، قد صاحوا قائلين : « الله يبارك فيك يا الحاج (٢) ، ويعيدك لبلدك وأخبابك ! » ولما مررت عبر بوابة النصر القيت السحلام على الخفير ، والضابط المسئول عن الحراسة ، فدعيا لى بالتوسيق بحرارة فمباركة الحاج والدعاء له في اسيا – كدعوات النسوة العجائز في

⁽١) أو القريوس

⁽Y) يا حاج ، واضافة الالف واللام في مثل هذه الصياغة لا تزال مستخدمة حتى الآن في شبه الجزيرة العربية ٠٠ « يا المدرس يا الحاج ٠٠ يا السائق ٠٠ وهكذا ، ... (المترجم)

اوربا ، من المفترض أن لها تأثيرا خاصا · وخارج البوابة ودعنى اصدقائى الوداع الشهائى ، ولا أنكر أنتى شغرت بالأسى لقنراق وجوههم الأمينة التى بدأت تخبو عن تأفرى كلمًا ابتعدت ·

لكن الشيخ نصارا غمز كتف جمله أوبدا انه يميل لأخف زمام البادرة النه تجربة لاختبار التحمل والرجولة فلا وقت الغيواطف ولا يمكن اضاعة لحظة أو استبدالها بلحظة أخرى حتى لو كان ذلك لتذكر ما جرى ، فركلت جملى الذى هرول بسبب وكزة قدمى وحاول البدوى بضحكة مدوية أن يمر بجانبى ليطمئننى ، الا أننى قاومت ، واستمررنا حكالاطفال حندو حتى وصلت الجمال لاقصى سرعتها ، مع النه مازال أمامنا أربعة وثمانين ميلا ، كما أن الجو كان ملتهبا كنفح الاتون وكان الطريق خاليا في هذه الساعة ، والا لانبنا المسافرون من المسلمين الجادين (لارهاق الجمال بالسرعة الشديدة في هذا الجو المتافيل أن الشرطة هي التي تصلح مع أمثالنا ،

وسرعان ما أرخينا العنان وغيرنا خطو الجمال بما هو أكثر ملاءمة لوسم الصيف ، بينما كانت الشمس قد بدأت تنم عن ضعف الانسان والحيوان (الجمل والجمال) ، فالحرارة المنعكسة تصفعنا بشكل محسوس والوهج المنبعث من حصباء الطريق يكيل لنا مزيدا من الحرارة . وبدأ البدو يدخنون لانعاش أنفسهم ، وملأوا الشيبوك (ما يشبه الشيشة) الخاص بى وأوقدوه بالقدح (ضرب حجر الصوان بقطعة من الصلب) ، وقطعة قطن مغروسة فى محلول البارود (٣) ، ومرروه لى (الشيبوك) . وبعد بضعة أنفاس قليلة أعدته اليهم ، فأداروه بينهم ، ثم بدءوا للملل فى توجيه الأسئلة التى بدت مع مرور الوقت ، وكأنها لا تنتهى ، لأنهم لا يرضون الا اذا عرفوا منك ، أكثر مما تعرفه عن نفسك . ثم عادوا بعد ذلك للحديث عن الأكل ، فالطعام منع هذا الجنس الجائع يحل فى النقاش محل النقود فى البلاد الأسعد حظا ، وأخيرا ، وحتى بعد استنفاد الحديث فى هذا الموضوع (الأكل) ، لجأوا للغناء وغذاؤهم Modinha لهنون الفنى » .

فاذا استمعت للكلمات ، فكانك بالتأكيد تسمع ايحاءات بالخضرة النضرة ، والظل المنعش ، والغدران ذوات الخرير أو شيء بعيد عن المنال تتمناه النفس .

and Cotton dipped in Solution of Gunpowder.

والآن بيينما ناجس واخوه بييننيان مما لمينا ثنائيا بالمان البلازمة - المادرة المكرورة بعد كل مقطع من مقاطع الأغنية) هي :

والأرش بللها المطر

د والأرض بيلول يمطر ۽ (٤) ٠

واود أن أثرك استطرادى هذا ، لأتجدث بايجاز عن القبائل العربية في سيناء ، رغم أنه موضوع ممل ·

فبالإضافة المقبائل التي تشغل الأجزاء الشمالية من شبه جزيرة سبياء ، عبد بوركهارت خمس عشائر رئيسية ، وقد قسم نصار ، ومصادر الحري في السويس هذه العشائر الى ست ، هي :

- ا ـ قرشى ـ مثلهم مثل الجارا Gara (11) في شرق شبه الجزيرة العربية يدعون الانتساب الى قبيلة قريش العظيمة ـ وهو انتساب مشكوك فبه
 - ٢ صالحى Salihi وهي الأسرة الرئيسية بين بدو سيناء ٠
- ٣ ـ عارفى : ووفقا لما ذكره بوركهارت فان هذه العشيرة مجرد فرع من الصوالحة Sawalihahs
- ٤ ــ سعيدى : وقد أسلماهم بوركهارت أولاد سلعد (ولاد سلعد أو ولمد سلعد) وجعلهم أيضا فرعا من الصوالحة ·
 - ه _ العليقى Aliqi . :
- آ ـ واخيرا : مزينة Muzaynah وتنطق بشكل عام مزينة Muzaynah وتدعى انها فرع من قبيلة جهينة الكبيرة ، التى تسكن الساحل عند يبنع الى الداخل قليلا منها ووفقا لما تقوله المرويات الشفهية ، فان الثار الجا جدود مزينة الحالية ، وكانو خمسة الى ترك وطنهم الاصلى (نجـد وما حولها) ، فحطوا رحالهم عند الشروم

Wa'al arz mablul bi matar

ولا شك أن بيرتون أساء المسمع ، فالمبدو ، والعرب عامة لا يذكرون الأرخس ، فيقولون الأرخس (مبلولة) وليس (مبلول) • وعلى أية حال فان بيرتون نقل المعنى للانجليزية محيجا :

^(£) النص :

^{&#}x27;And the earth wet with rain.

(جمع شرم) وانتشروا الآن في الأجزاء الشرقية لشبه جزيرة سيناء · ومزينة في الحجاز ، قبيلة عسريقة ونبيلة · فقد انجبت كعب الأحبار الشباعر الشهير ، الذي قدم له محمد (صلى الله عليه وسلم) خلعة يعتقد العثمانيون أن السلطان سليم قد اخسدها من مصر ، واصبح اسمها الخرقة الشريفة ، وأصبحت رمزا ومصدر الهام للعثمانيين في حروبهم الوطنية ·

وثمة بعض الملاحظات الاثنوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) المشوقة المتعلقة بعشائر سيناء وهي ـ اي هذه الملاحظات ـ مشوقة على الأقل بالنسبة لمن قد يتتبعون انساب القبائل العربية الكبرى • فكل من يعرف البدو يمكنه أن يرى أن مزينة قبيلة ذات دم نقى (تشكل عرقا) فجياههم عريضة ووجوههم نحيلة (ضيقة) وملامحهم منتظمة وعيونهم ذوات حجم معتدل ، بينما عشائر الطواره Tawarah الآخرين (أي باقي أهل سيناء) فيشبهون المحريين بشكل واضح · فلا يحتفظون باستدارة وجوههم التي ربما لا تزال تتجلى في وجه ابي الهول ، وفي وجوه الأقباط المحدثين ، كما أن لعيونهم ذلك الحجم المميز ، والشكل المميز ، والنظرة المميزة ، التي حاول الفنان المصرى القديم التعبير عنها برسمها على جانب الوجه بشكل كامل • وقد كان على أن أركز بشدة على هذا الملمح الذي يعد أحد خصائص الجنس النيلي Nilotic race فليس من رحالة الف العيوف المصرية الحقيقية يمكن أن يخطىء تميزها فهي طويلة ، تشبه حبة اللوز ، عميقة الأهداب ، ترتفع ارتفاعا طفيفا عند ركنها الخارجي ، وتنخفض من الأمام (من واجهتها) كالمعين الصينية • وترى هذه العيون عند العناصر المولدة (الهجنة) فقد سبق لى أن رأيت هذه العيون تزين وجسوه اسر استقرت الأجيال في الأراضي المقدسة بالمجاز وترجع في 1 مسولها لضفاف النيل

لكل هذا فاننى اعتقد ان بدو الطور (بدو سيناء) ليسهوا بدوا خلصها ، انهم عناصر مصرية شامية مختلطة ، بينما جيرانهم من بدو العجاز عناصر شامية أو عراقية خالصة ·

لقد حدث تغييس مدهش فى قبائل الطواره Tawarah (شبه خزيرة سيناء) ، ففيما مضى وصفهم المسير جون ماندفيل Mandeville بانهم قطعان شريرة، وكتب نيبور عن المشاكل اللتى سببوها له، وميلهم الشديد للقتل والنهب وحتى فى اوائل عهد الراحل محمد على، لم يكن أى مدير للسويس يجرؤ على أن يضرب بالسياط أى طورى (سيناوى) ولا أن يجبره على رفع يديه ، وكل ما كان يمكنه عمله ازاءه هو التحفظ عليه داخل اسوار السويس ، اما الآن فان السلطات تأخذ سيف الطورى من عندى .

- (المتوحش) قبل أن تسمح له بدخول البوابات ، وكان جعفر بك أحسد معارفي القدماء يظن أنه ليس أكثر من مهاجمة البدو الاضرب الفلاحين بالسياط • تلك هي نتيجة سياسة محمد على النشطة وهذا هو الاتر الذي تتركه حتى الوسائل نصف المتحضرة عند توجيه جل اهتمامها وحشد كل طاقاتها لاصلاح الجماعات المتبربرة •

ولأنهى هذا الموضوع ، أذكر أن الطواره (أهل سيناء) لازالوا يحتفظون بكثير من خصائص البدو (٥) فهم اجتماعيون ومحبون لملدعابة ، وهم يبتهجون لسماع النكات (الدعابات) وقد يمكن توجيههم وادارتهم بالملطف والكياسة ، بل انهم قوم يمكن استثارتهم بالأمور المتعلقة بالشرف ، وهم محبون لملانتقام ، ومن المسهل اغضابهم اذا أسىء فهم اراثهم واحكامهم المسبقة ، وقد وجدتهم رفاقا ودودين يستحقون الاحترام لمقلوبهم الطيبة وشجاعتهم التى لا يتطرق اليها الشك ، أما هؤلاء الرحالة المذين يشكون من عجرفتهم وابتزازهم فاما أنهم يجهلون لمغتهم أو يستثيرونهم بتعاليهم أو أن أشكالهم (لباسهم مثلا) غير مناسب ، لا يدفع البدو لاحترامهم ،

لقد استمررنا في رحلتنا حتى قرب الغروب خلال البراري المقفرة دون أن يعترينا الملل ٠ أنه لأمر غريب أن ينشغل المعقل ويسعد بمشهر لا يضم الا عناصر قليلة ١ الاأن كل شكل بسيط ، وكل لون يلفت الانتياء ، فالحواس مرهفة ، والقدرة على الادراك تتوهج عندما تستثيرها القدرة على استيعاب كل التفاصيل • وأكثر من هذا فالمناظر الصحراوية ببروزها وضخامتها الهائلة ، مناظر موحية مثيرة • انها مناظر تحتكم للمستقبل لا الى الماضى انها توقظ العقل والشعور لأنها بلا شكك ما لا تنسى • وبالنسبة لعسابي السبيل الذي يسافر وحيدا فانه يجد متعة في القفار لا يجدها في الرءوس (الأراضي الداخلة في البحر أو المحيط) ولا في أنهار الجليسد الألبية (نسبة الى جبال الألب الأوربية) ولا حتى في البراري الشاسعة فالاثارة المستمرة تصل بطاقات المعقل وقدراته الى ذروتها · وفوق ذلك فان السماء كانت رهيبة رغم صفائها الجميل ، فسناها القاسي يعمى الأبصار ، ورياح السموم تداعبك ، كما يداعب الأسد فريسته بانفاسه المارة • وحولنا تتجمع أكوام الرمال التي ذرتها الرياح فتركت كل هبة منها أثرا واضحا على هيئة موجات قاسية ممثلة في الصخور المنحوتة والمخدوشة والجدال التي اثرت فيها الرياح فجعلتها كالهياكل العظمية ، والهول الصلدة التي تجعل من يركب دابه فيها تلح عليه فكرة انفجار قربة الماء أو آلام حادة في خف الجمل تعوقه عن المسير ، فهذه أو تلك

⁽٥) النص : الجنس البدوى

تؤدى الى موت شنيع مؤكد ١٠٠٠ فهذه الأرض الشرسة قد ابتليت بالمحيوانات المتوحشة ، والبشر الأكثر توحشا ، انها أرض تتمتم عيون الماء فيها بهذه الكلمات التحذيرية « اشرب وابتعد » أو « اشرب وغادر المكان فورا » اى شيء يمكن أن يكون أكثر اثارة من هذا ؟ وأي شيء يمكن أن يكون مهيبا مروعا أكثر من هذا ؟ فقلب المرء مقيد في صدره بفكرة أنه ضئيل أمسام اتساع المصحراء ، كما أنه مشغول بالمخروج من تجربة السعور فيهما منتصرا · وهذا يفسر المثل العربي (السفر انتصار) أو (الرحلة نصر) · وفي الصحراء تجد الموت حاضرا – أكثر حتى مما لو كنت تساقر في وفي الصحراء تجد الموت حاضرا – أكثر حتى مما لو كنت تساقر في يمكن أن تضل الطريق ، وكل هذا يوردك موارد التهلكة ، فتموت وحيدا يعكن أن تضل الطريق ، وكل هذا يوردك موارد التهلكة ، فتموت وحيدا منعزلا ، مما يضيع عليك فرصة الموت وحولك جمع غفير ، فالموت كما يقول الفرس « مهرجان » Death's Festival وكل هذه الأخطار المفعمة بالمعاني لا تغيب أبدا ·

دع المسافر الذى يظن فى قولنا مبالغة يغادر طريق السويس لساعة و ساعتين ، ويتجه شمالا فوق الرمال ، حيث الصمت الموحش ، والوحدة القاتلة ، والعزلة الخيالية ـ ساعتها سيشعر بمعنى الصحراء ،

ثم وصلنا الى الواحات ، وبعض المناطق القليلة ذوات الخصوبة ، المتى كانت ناعمة وجميلة ، فحتى «وادى الورد» رغم أنه مجرد اسم يطلق على بعض المناطق الكالمحة التي ينمو فيها قليل من الأشجار المزهرة التي تكافع لتبقى على قيد الحياة خلال موسم الشتاء ، الا أن العقل عند رؤية هذه المشاهد يتأثر بفعل تأثر جسده بالمشهد فرغم أن فمك يكاد يحترق ، ورغم أن جسدك يكاد يشوى فانك تشعر بانتعاش ، وتحس أن المرارة قد تخللتها الرطوبة ، فتنتعش رئتاك ، ويبتهج بصرك ، وتستعيد ذاكرتك نشاطها ، وتصبيح روحك يقظة مفعمة بالحياة ، وينشط خيالك وينطلق كنشيد منا يكسون النشساط والانطسلاق ، كمسنا أن الروح البرية للمناظر وعظمتها تحرك كل طاقات روحك - سرواء بالاحساس بالاجهاد او المخطر او الرغبة في المكفاح ، فروحك المعنوية تؤكد انك اصبحت واضحا صريحا لا لبس فيك ولا غموض ، وأنك أصبحت ودودا محيا كريما متفرد العقل ، ولا غرو فقد خلفت خلفك في المدينة روح الرياء وعبودية المحضارة ، وتحس أن كل حواسك قد اسرعت وأشرابت للانطلاق فهي لا تحتاج لما يحفزها أكثر من الهواء والحركة - انهما كثوس الانعاش الصحراوي • والسعادة - كل السعادة - في مجرد وجود حيوانات الصحراء ، ويقيل الانسان بشهية حتى على اكثر الأطعمسة عسرا في مضمها ، وترى الرمال انعم واكثر راحة من أي فراش ، ونقاء الهواء يذب عنك فجأة جيوشا من الأمراض ولههذا فان كل المبشر ، رجسالا ونساء ، شيبا وشبابا ، ذوى الخيال المنطلق والحالمين ، بل وأكثر الخلق جنوحا للمادية ، والكهنة ، وأهل المدن الوديعين ، والخادمة العجوز ، والطالب المسالم ، والطفل المدلل الذى افسدته الحضارة . كل اولئك يشعرون وهم ينظرون من فوق جعالهم للصحراء العظيمة أن قلوبهم تتمدد ، وأن نبضهم يزداد قوة ، فأين سمعنا عن مسافر خيبت الصحراء رجاءه ؟ انه تفسير آخر للصدق القديم الذى قدمته الطبيعة للانسان . وصدقنى أنك اذا ما ألمفت مثل هذه الرحلات ، فانك ستعانى معاناة مقيقية عند العودة لصخب الحضارة وازعاجاتها . وستنظر باشدئزاز ومسرتها الزائفة ، وستظل للقرة للمعد عودتك تشعر بعدم قدرتك على ومسرتها الزائفة ، وستظل للقرة للمعد يعد عودتك تشعر بعدم قدرتك على تحمل الاجهاد العقلى أو البدنى ، نتيجة الضغوط الواقعة على روحك ، فهواء المدن سيصيبك بالاكتئاب ، وتأنق أهل المدن وشدوب سدختهم سيلازمانك كأنهما قدر لا فكاك منه .

وحالما اعتلى المظل الأسود السماء الشرقية ، انحرفت عن الطريق ، وتلقيت في فجأة لل تحيية من شخص لم اتبين ملامحه : « السلام عليكم » وقالها بلسان عربى مبين ، ونظرت لمن القى على التحية للحظة دون ان اتعرف عليه و فتقدم وملامح السعادة والمزاح على وجهه ودعانى الشرب ، وأمسك بلجام جملى دون انتظار اجابتى ، وأناخه ، وجعلنى أسرع الى بساط افترشه على الرمال ، وتخلصت من خفى (صندلى) وقدم لى ماء باردا للوضوء ، وأخبرنى أنه أخطأ التعرف على من بعد ، فقد خنني شريفا (أميرا) أو شيخا للعرب ، ولكنه أحس بالمسعادة عندما اكتشف أنه كان على خطأ وحثنى على الاسراع فى الوضوء ، والا أدركنا الليل قبل أداء الصلاة ، لقد كان هو محمد البسيونى ، المفتى المكى الذى كنت قد اشتريت منه ملابس الاحرام فى القاهرة ، وقد كنت قد رفضت المشديدة للمال ، فانه لم يطلب الاذن ، وعندما صلى وقف ورائى مما يدل الشديدة للمال ، فانه لم يطلب الاذن ، وعندما صلى وقف ورائى مما يدل على مرونة فى ضميره (قابليته للتكيف مع الظروف) لأنه شك فى منذ البداية شكا جعله يظن عمل على الاقل له النفى عير صحيح الاعتقاد ،

وبعد الصلاة اوقد الشيشة ، وقدم لى ليها (خرطومها) الشبيه بالمتعبان واضعا اياه فى يدى ، وهو اغراء قلما يستطيع المسافر المرهق مقاومته ، ثم بدأ يبحث بدقة فى خرجى بعيرى ، وسحب منه مخزون مؤنى ، لفافات وبطيخ وبيض مسلوق وتمور ، واثناء اشعال النار واعداد القهوة ، دبر أمر توزيع المؤن الخاصة به حولم تكن وفيرة ولا جيدة ح

على الجمالة · ونظر الشديخ نصار وأخوه بذعر لمهذه « الحركة » ولكن الولد محمدا كان عنيدا · وقد لمح الشيخ نصار وأخوه تلميحات فظة ، فتحاشاها الولد محمد بغناء مقطع من أغنية هندوستانية مما يؤكد استهزاءه برءوسهم المدهونة بزيت المياسمين ، وقد تشككوا في قدرته على الشم ، فراح يسخر منهم قائلا : « لقد سمعت عن اناس يتسمون باسم نصر ، وآخرون باسم ناصر ، او منصور ، ولكن أن شاء أله يبدلني من هو خير من نصار » لقد قال ذلك واثقا من تاييدى له · وقد حثثته على الاستمرار لرغبتي في أن أرى كيف يعامل عرب المدينة (لا يقصد المدينة المنورة) الريفى • وبمجرد أن أحس بتشجيعي لمه أخذ كيس التمياك الخاص بي من البدوي الغاضب ووبخنى ممسسا لثقتى في امثال هؤلاء اللمسومي ، وأصر في الوقت نفسه - على شرب القهوة كلها حتى يضطر هؤلاء الأدلاء (الجمالة) المفقراء لاعداد بعض القهوة لأنفسهم لقد كان الولد محمد يبرهن في كل مناسبة على انه مصدر ازعاج • وصاح نصار: « لقد أكلنا بطيخة » وربت على بطنه دلالة الشبع · فقال الواد محمد : « أسمعت يا سيدي ما يقوله هذا المتوحش ٠٠ انه يقول : لقد أكلنها بطيخة ، لذلك يجب أن نأكل لحما » · فقال لمه البدوى وقد بلغ به الحنق مبلغه : « لا تثق بنفسك هكذا بين تلالنا » · فنزع المولد محمد سيفه ويدأ بقفز على نسق، قفزات أهل شرق الهند وهم يحملون اسلحتهم ، وتباهى انه يستطيع أن يهاجم بيد واحدة عشيرة كاملة ، فانتزع قوله هذا من سىامعيه سىخرية عبروا عنها بقولهم : « الله ! الله » ٠

وبعد قضاء ساعة كانت اكثر ساعات الطريق طرافة وتسلية ، نهضت مصرا على ركوب بعيرى مما سبب سخط ادلائي كثيرا لرغبتهم البيت هناك فقد كان الشيخ نصار واخوه قد رتبوا أمورهم على المعيشة مجانا على حسابى ، ظنا منهم اننى باعتبارى (افندى) لم يتعود التقشف من غير المحتمل أن اتعجل السفر ولما رأيا الأمل يتلاشى ، بدءا فى الاحتيال لتحقيق هدفهم فاوعزا للجمال الذى كان يجرى الى جانب جمل الولد محمد أن يسبق الجمل (يبتعد عنه) ، وهى مناورة مفضلة لمنعنا من الاسراع ، قدرته على المعودة للسير الى جانب جمل محمد تعلل بالمتعب وعدم قدرته على المشى وسرعان ما سالنى الولد محمد ان كان لدى اعتراض على نزول احد دليلى ، على أن يركب الجمال المتعب لساعة أو نحوها ، ووافقت على ذلك مباشرة واطاعنى البدوى وهو يتمتم متذمرا و وعندما استانفنا مسيرنا لم يجد العرب (البدو) الساخطون أى اغنية يغنونها ، بينما راح الولد محمد يرفع صوته بصخب واختار كلمات هندوستانية سيئة واخرى فارسية اسوا منها ، حتى فرض الصمت جبروته عليه ، وتلكا الجمالون وتخلفوا عنى فى السير لمنع جملى من الاسراع كثيرا ،

أما دليل (أو جمال) الولر محمد بعد أن أنزل من فوق الجمل، فقد راح يمشى بخطى واسعة أمامنا بحجة أنه يرينا الطريق · ولهذا فقد كنا نعدو بجمالنا ، وأصبحنا الآن نمشى ، وأحيانا نهرول حتى بدأت الجمال تتلكأ نتجة التعب وراح العرب (البدو) يثيرون الجلبة طالبين التوقف ·

وفى منتصف الليل وصلنا لمحطة التوقف الوسسطى فترجلنا عن جمالنا لنرتاح قليلا عند اسوارها · لقد كان المدى يتساقط كثيفا ، فبال. أغطيتنا ، لكن من يهتم بهذه الأمور البسيطة في الصحراء ؟! فالقمر يتالق والنسائم تهب باردة ، وغنى ابن أوى اغديته التى تغرى بالندوم العميق · ونهضنا حالما ظهر ذيل الذئب في السسماء وأعطى الضسباب الرقيق الذي كان يغلف التلال الشمالية ، (دار البيداء) - وهو الاسم الذي يطلقونه على قصر الباشا في هذه الانحاء - منظر بعض قلاع الاقطاع القديمة (في أوربا) • لقد كان الضباب الرقيق يغلف الجو ، وكان جميلا رغم أنه زأد من الاحساس باقفار المكان ، وانطلقت طيور القطا الرشيقة في أسراب محدثة أصواتا ، وخطت الغزلان الشاردة برشاقة وجمال في. السهل الصخرى · وحالما مررنا بشجرة الحجاج ، وضعت دثارا أخر فوق معطفي البالى ، ثم طلبنا البركة متوسلين من قبر المولى الصالح الدكروري، وهو (أى القبر) مطلى بالملون الاصفر الشاحب (الكريمي) ، ثم ركبنا جمالنا واستأنفنا المسير بجسد حقيقى • وانقضى المفجر ببرودته الاطيفة واقبسل الصبيح بحرارته الشديدة ، ثم تالق النهار بحرارته الملتهبة وجعلت شمس. الظهيرة ، السهل يتوهج بحرارة مرعبة • ولازلنا نتقدم باحرار •

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر انحرفنا تاركين الطريق لندخل فى مجرى مائى جاف لا يبعد عن المحطة رقم ١٧ ، حيث تناثرت أوراق نبات الداتورا Datura الجافة ، ونبات المشيح ذو الرائحة المنفاذة وهو أحلى عشب صحراوى ، وأشحار الميموزا Rimosa (السخط غالبا) توجد هنا ، ورغم أن ظلها فى هذا الموسم كان قليلا فانه أفضدل من ظلل أشحار الكاكاو ، ولم يكن من الممكن أن يتجاهل البدو ظلل أشجار السنط هذه ، فانطرحنا على الأرض لنستريح مع جماعة من الحجاج المغاربة كانوا فى طريقهم للسويس ، وبدو فقراء وكان عددهم حوالى اثنى عشر حاجا ، ويبدون من أدنى الطبقات الاجتماعية ، وكان لباس الواحد منهم عبارة عن برنس عن المنى الطبقات الاجتماعية ، وكان الموحيد عبارة عن سكين طويلة ولا تزيد مؤونة الواحد منهم عن حقيبة الموحيد عبارة عن سكين طويلة ولا تزيد مؤونة الواحد منهم عن حقيبة (كيس) من النواشف (الأطعمة المجففة) ومع كل واحد منهم آذية خشدية كبيرة ، ولا يحمل أي واحد منهم ماء معه ، وكان من المستحيل مساعدتهم كبيرة ، ولا يحمل التي تدعو الملشفاق ، كما لم أكن أستطيع أن أكل أمامهم

وانا أراهم جوعي وعطشي ، أضناهم السفر · لذا فان نصارا قدم لكيل واحد منهم رشفة ماء وقليلا من الخبز ، فطلبوا مزيدا فلم نعط احدا منهم مزيدا ، فصاحوا طالبين مالا ، فقررت أن أكون كريما في حدود بنسات قليلة • وقد جرت العادة على تقديم الصدقات ، بالإضافة للميل الطبيعي لمذلك ، لكن عندما نقدم المصدقات بناء على طلبها ، وأن يكون طلبها مدءما بنظرات نارية ، وشنخير ساخر ، أو تحت تهديد سكاكينهم ، فخذ حنارك وانج بنفسك ، وقد جعلتهم مسدساتي في مأزق فلم يبذلوا سوى مداولة الخافتي ، ورغم أنى اتخذت حذرى فجلست بعيدا عنهم فلم يكن منهم خطر حقيقي ١٠ لقد الصبح طريق السبويس بفضل الاجراءات الحكيمة التي اتخدها محمد على طريقا آمنا للمسافرين الأوربيين كالطريق بين همبستيد Highgate ، بل امنا للمسيافرين Hampstead رهايجيت الشرقيين ، فلم يعد فيه ما يخيفهم سوى ما تخلقه مخاوفهم هم • ولان خادمی الهندی کان ممتلئا رعبا ، فقد جری مبتعدا ، وعلی آیة حال فاننی لم اثق في هؤلاء المغاربة . وقد سمعت بعد ذلك أن هذا المكان شهد محساولة المغاربة اخسافة (افزاع) ما ظنوه تركيا رعديدا كان مشسهورا بالسلب والقتل . ويتقابل - هذا - أنفا (رعنا) جبلين متواجهين في سهل ، يعد مكانا الثيرا لمنصب الكمائن البدوية • وسوق يكون لدى كثير مما يمكنني قوله عن هؤلاء المغاربة عند حديثي عن رحساتي في سسفينة. الحج • فقد كانوا هم المسافرين الوحيدين الذين القينا منهم أكبر قدر من الازعاج ، فالجماعات الأخرى العديدة من ترك وعرب وافغان وقلة من المل شرق الهند كانوا جميعا ، لا يقصدون - مثلنا - الا الحج · فجميعهم كانوا يقرؤوننا السلام كلما مررنا بهم ، ذلك السلام الذي يذكر الانسان بواجيه الديثي ٠

وقبل غروب الشمس بحوالى نصف ساعة خرجت عن الطريق نحو الشيمال بحجة تدبير ماء للجمال ، وركبت لأبحث عن قلعة العجرودى Al-Ajrudi الها مبنى رباعى الزوايا دو ابراج اسطوانية عنس بوابته ، واركانه قد بنيت مجددا مبالأحجار والملاط ، وهى مليئة الآن بالمشقوق بحيث لا تصمد أمام قذائف المدفعية زنة اثنى عتم رطلا ، وليس بالقلعة مدافع أو مدفعيون وانما يشعلها حوالى اثنى عثم فلاحا يعملون كخفراء Ghaffirs ، وكانوا يتوقعون في ذلك الوقت أن يأتيهم من القاهرة تعزيز بمجموعة من الباش بوزوق (الجنود غير النظاميين) ، وهناك من أقنع أهل المنطقة بأن الأسطول الانجليزي سيظهر قريبا جدا في البحر الأحمر ، وان هذه القلعة بفضل جهودهم تعتبر مفتاح السويس ، وهو قول يدعو للسخرية ، وكما هو المعتاد في هذه الأراضي التي تنقصها موارد مائية دائمة فان البثر التي يمد القلعة بالماء تقع في مبنى بعيد ومنعزل ،

يستطيع العدو أن يتسلل اليه بأمان كامل · وفوق بواية القلعة كتابات قديمة مقلوبة · وكان الماء تعتريه الملوحة ومن نوعية سيئة ·

واستأنفنا طريقنا ، فالسويس - الآن - غدت قريبة ، فعلى البعد حيث الزرقــة : ترتفــع قمم جبـال Rahah ذوات القـلاع ٠٠٠ أصدقاع رملية يظهر عليها الطريق المؤدى للحجان ، وتجلى أمامنا منظر عزيز على العيون الانجليزية - انه قطاع من بحدر ذى زرقة سلماوية رائعة ، تمخر عبابه باخرة انيقة • وعن ايماننا المنحدرات المعريضة (۱) (۱) مسلسلة من التلال على جانبي -لجبل المقطم الطريق من القاهرة لمسبويس ، وهنو (المقطم) (٧) يشكل في هذه السباعة مشهدا لا يمكن نسيانه يسهولة • فالسلسلة الغريبة من صخور طباشيرية ورملية ترتدى حلة خمرية (دات لون اسمر محمر) فاذا ما سقطت عليه أشعة الشمس عند الغروب غدت مذهبة ، بينما تظلل كهوفها العميقة باللون الأرجواني كاثرى ما يكون الماون الأرجواني ، ويشكل جبل الطوارة ـ المعروف عموما باسم جبل (أبو دراج) الذي بدا أزرق سماويا ، مخططا بلون برقوقي فاتح - خلفية للتلال الأكثر ارتفاعا من سواها • واتجهنا صناعدين الى مبنى صغير (بير السويس) Suways بحجة سقى الدواب وجلست نصف ساعة أمتع نفسي بمنظر الصحراء الرائع ١ ان المعين لا تشبع من هذه الألوان المتدرجة في بهاء ، كما أن الذاكرة لا تنسى بشاعة منظر هذه التلال اذا كشفت الشمس عن ملامحها الكالحة الجرداء ، لكن منظرها في الساء يعطيها جاذبية ٠

لقد مررنا عبر بوابة المسويس ذات النوافذ المست المقلوبة (٢) عندما حل الليل ولا زال باقيا أن أبحث عن خادمى وممتلكاتى الشخصية المنقولة وبعد البحث عنه في كل الوكالات بالقرية ، وخلال ذلك أثبت الولد محمد أنه مقيد جدا مما جعلنى أقبل مرافقته لى متجاوزا عن كل المخاطر الناتجة عن ذلك ، وقد سمعنا أن هنديا قد احتجز مكانا في خان يصعل اسم « خان جرجس الزهر » Jirjis al-zahar وعند وصوائل الدي هذا الخان تلاشى أملنا لأن الأخبار أتتنا أن هذا الهندى نفسه قد أغلق حجرته وخرج مع أصدقائه الى الميناء ، وفي الحقيقة أنه قد اتخذ العدة للهرب ، فترجلت عن بعيرى وحاولت أن أفتح باب غرفته الخشبي بالكسر ولكن البواب رفض بشدة وهددني بابلاغ الشرطة ، وفي هدنه بالكسر ولكن البواب رفض بشدة وهددني بابلاغ الشرطة ، وفي هدنه الدينة

⁽٦) ما الذي اتى بالقطم هذا ١٩ -- (المترجم) ٠

⁽٧) التعليق السابق ٩١

(المنورة) عائدين لأداء الحج بعد أن قاموا بجولة تسول في مصر وتركيا وكان لقاؤه بهم لقاء مميزا حيث الاستفسارات المتلهفة والقهقهة المساخية والأحضان الحارة و دعائي الولد محمد لمشاركتهم عشاءهم ومهجعهم سوهو عبارة عن صالمة غير مغطاة متفرعة من المر الكائن فوق الصالة المربعة في الطابق الأرضى ولم يكن لدى الشهية أو الروح العالمية لهذه المشاركة الاجتماعية فأراني البواب ببعد أن بذلت جهدا في اقناعه غرفة خالية ففرشت فيها بساطى لقد كانت لميلة حزينة فقد كانت عظامي كلها تؤلمني نتيجة الركوب طوال أربعة وشمانين ميلا لقد فقدت بشرتي الطبيعية فاحرقت الشمس كل جزء من جسدى تعرض لها لذا فقد رحت الدب أيام انحللي (انحرافي) والأثر السييء الذي تركته الاقامة بأوربا أربع سنوات على بدني كما انشغل عقلي بمصير مقتنياتي الذا فقد رحت في نوم قلق غير مريح في المناه في نوم قلق غير مريح في المناه المن



الفصل التاسيع

السسويس

البحث عن الأمتعة الضائعة . مقابلة المدير .. عمر افندى الداغستاني (من مكة) .. سعد الجنى .. حامد السمان .. صالح شكار .. بيرتون يريح من تحويل العملن .. طريق الحج بالابحار من السويس .. طريق الحج البرى ... طريق القصير .. بقاء نظام الاحتكار في ميناء السويس .. فطومة .. الجوارى .. تجارة الرقيق .. تقرير عن السويس وتجارتها .. صفات المصرى .

لقدد استيقظت مبكرا في صباح اليوم المتالى لموصولى ، وتذاقشت مع معارفى الجدد عن الوسسائل التي يجب اتخسادها لاعادة مقتنيساتى الضائعة ، فنصحونى جميعا بزيارة المدير (المحافظ) مع أنهم وصفوه بأنه (كلب ابن كلب) لا يرد سلام المسلمين ويظن أن كل الناس أوساخ لابد أن يدوسهم الأتراك باقدامهم ، لقد اظهر الولد محمد لباقة اجتماعية فأخرج من سحارته (صندوقه الكبير) طاقية جميلة مطرزة ومعطفا قرنفليا ، فلبستهما على الفور ، كما اتخذ هو زينته بلباس بهى كاللباس الذي قدمه لى ، ثم خرجنا قاصدين قصر المدير ،

لقد كان جعفر بك يشغل منصب القاضى والقائد العسكرى ، وجامع المكوس (الجمارك) وحاكم السويس ، لقد كان جعفر بك أمير لمواء (مير لموا Mir-Liwn)) وحقق بعض الشهرة كعسكرى بالاضافة لمعرفته السطحية باللغات والعلوم الأوربية ، واستقبلنى هذا التركى العجوز بكير شديد وترفع عن رد السلام ، وحملق فى بعينين صغيرتين كانهما مثقابان وسالمنى عن طلبى ، فقلت ان شخصا اسمه الشيخ نور وهو خادمى الهندى قد خدعنى وانى اطلب اذنا لأكسر باب غرفته والدخلها لأنى أن بها مقتنياتى ، فسألنى عن مهنتى ، فأجبت اننى طبيب ، فجعله هذا يسالنى ان كان لدى اى دواء للعيون ، فأكدت له ذلك فأرسل معى

مندوبا لالزام البواب بالطاعة وتنفيذ الأمر · وعلى أية حال فان هذا الاجراء البغيض كان غير ضرورى ، فحالما دخلنا الخان ظهر عند الباب وجه الشيخ نور الأسود ناظرا بفزع كما لو كان يتوقع بل ويستحق لن يضرب بالمخيزرانة ، رغم وجوده بين عدد كبير من اهل بلده · لقدد كان بوفقا لروايته بقد أجبر على حضور مهرجان فى باخرة نقل فحم عمل بحاروها على جمع الرجال لمحضوره · وكنت قد عقدت العزم على عقابه ، لكن شدة احساسه بالذنب أنقذه من عقابى ·

ويجب أن أصف الآن باختصار جماعة رجال مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) الذين ساقهم القدر في طريقي · وستظهر أسماؤهم متتابعة في الصفحات التاليات ، لكن بضع كلمات عن طبائعهم لا تخلو من فائدة ·

فأول هؤلاء هو عمر افتدى وتطلق عليه من باب التشريف الداغستاني. (من الجراكسة الشرقيين) حفيد المفتى الحنفى في المدينة (المنورة) وابن الشيخ رجب Rakb (؟) الضابط المستول عن قيادة قوافسل الجمال • انه يجلس فوق سرير خفيف وهو قصير وضعيل وممتلىء الجسم ، أصفر البشرة ، صفراوى المزاج ، عيونه رمادية ، وملامحه ناعمة (رقيقة) وهو أمرد لا لحية له - وهذا ينعكس على احساسه ويبدو في الخامسة عشرة من عمره مع أنه في الثامنة والعشرين • ويتصرف كالتلاميذ ، وملابسه محترمة ،ويؤدى الصلوات في مواقيتها ويكره الجنس اللطيف ، مثله في ذلك مثل العرب يتسمون بالتطرف في حبهم وفي كرههم دائما ، وهو رجل (جاد) ذو سلوك معتدل ، ومشية متواضعة وصدوته رقيق خفيض • فاذا ما استثاره أحد غضب غضبا عارما كنمر بنغالي وقد أجبره والداه على الزواج ، ولكنه _ مثله في ذلك مثل قمر الزمان _ أخبر والده أنه شخص « كبير المسن قليل الفهم » ، واكثر من هذا فقد ترك موطن والديه وجعل من نفسه وطالب علم » فقيرا في المجامع الأزهر . لأن والده أراد أن يجبره على التفرغ للدراسة في المدينة (المنورة) -وأرسل أصدقاؤه الذين انفطرت قلوبهم لفراقه ، وكذلك اقاربه المفجوعون لبعده عنهم - رجلا ليتحدث اليه بصفة شخصية ويعيده لأهله ، بالقوة اذا لزم الأمر ، وقد استسلم للضغط الواقع عليه ، وهو الآن في انتظار أول فرصة تسنح ليسافر - مجانا - الى المدينة المنورة .

وذلك الشخص الموثوق به الذي أرسلوه لاقناع عمر افندى بالمعودة هو خادم زنجى اسمه سعد مشهور بين أهل بلده (المدينة المنورة) باسم

Al-Jinni . (١) • وقد ولمد، وترعرع كعبد بين أفزاد أسرة. الجني عمر افندى ، وحصل على حريته اذ اعتقته الأسرة فأصبح جنديا في الحجاز ولكنه استاء من تأخر دفع المعاشسات (الرواتب) المستحقة ، فعمل بالتجارة ، وجال البلاد طولا وعرضا ، فارتحل الى روسيا والى جبل. طارق ، والى بغداد ، وهو أفريقي خالص يبدو سعيدا ذا صخب في لحظة ، ويبدو صامتا متجهما في لحظة أخرى ، ويبدو حنونا رقيقا ثم ينقلب على حين غرة بذيئًا فاحشا ، ويكون شجاعا متبجحا ، واذا به طائش ، وسرعان ما تجده ماكرا وهو مشاكس ، ومنعدم الضمير تماما ٠ والجانب المضيء في شخصيته هو حبه واحترامه لسيده الشاب عمر أفندى. حتر اذا ويخه في نوبة غضب ، وهو يسرق منه (من سيده عمر أفندي) كل ما تطوله يداه ٬ وهو سخى بما لمديه ، لكنه دائما يقترض ولا يرد ما اخده ، أما عن لباسه فهو يلبس كالمتسولين ويضع على رأسه التي. تتدلى من مؤخرتها خصلات شعره ، أقذر طربوش يمكن تصوره ، ولا يستر جلده الاسود المقاتم الاقميص من قطن ـ في الوقت الذي يمتلىء صندوقاه بالملابس الجميلة الخاصة به وبزوجاته الثلاث في المدينة (المنورة) • وهو لا يخاف على شيء خوفه على هذين الصندوقين ، وقد فرض نفسه على حضرة جعفر بك حيث حط من قدر نفسه بصفاقته ، حتى اننا توقعنا أن ذراه يعرج نتيجة ضرب قدميه (بالفلكة) . وعلى أية حال فأن صفاقته لم تؤد الا الى التسرية عن جعفر بك · وتراه طوال اليوم يتجول في السوق ، يتحدث عن الشحن والمرور ، لأنه كان قد قرر أن يسافر مجانا ، والحق أنه لابد أن ينجح في تحقيق هدفه هذا ، مادام يمتك هذا القدر الكبير من العناد والصفاقة ٠

الما الشيخ حامد السعان - ويعنى لقبه بائع السمن - فيرجع فى نسبه الى الولى والصوفى القادرى (نسبة للطريقة القادرية) الشهير ، الذى ترك ذرية كثيرة من الأولياء والصوفية فى المدينة المنورة · والشيخ حامد السعان يجثم فوق صندوق ملىء بالهدايا لابنة عمه (زوجته) وهو مثال حى لعرب المدن · فقذاله (مؤخرة راسه) مزدحمة (بشوشة)

⁽۱) جعل بيرتون مقابلا لكلمة Al-Jinni ، اللفظ الانجليزى Demon وقد يكون هذا غير صحيح ، والاقرب الى الصحة أن الجنى نسبة الى مدينة (جنى) فى ميجيريا . والنسبة للموطن معروفة فى شبه الجسزيرة العربيسة وغيرها (التكرورى) التمبكتو سنسبة لتمبكتو سالكنوى سنسبة الى كانوا ، الداغستانى سنسبة لداغستان ... بهكذا) س (لمترجم) .

Shushah غير مهدبة (مهوشة) أما وجهمه فقدر ، وهمو بنسى اللون ، وأما لحيته الصغيرة التي تشبه لحية العنز سغير مهذبة ، وهو حافي القدمين ، وعباءته الوحيدة التي لها لون العملات الذهبية ففي الغاية من القذارة ، وهو لن يصلى لأنه لا يرغب في اخراج ملابس (طاهرة) من صندوقه ، ولكنه يدخن اذا استطاع أن يحصل على تمباك الناس وهو بكح ويئن بين كل نفخة وأخرى (بين كل نفس وآخر) وهو ذو عقل نشط لذلك فهو يقضى يومه كاملا في تصريف الأفعال (٢) وهو يستطيع ان يميز بين الحروف ، ويحمل في صدره مخطوطا صغيرا مطويا اثر الاهمال فيه ، مملوءا بالقصص الجادة والدعوات الغبية ، والمخطوط قديم ومكتوب بخط ردىء ، وهو يخرجه من صدره في بعض الأوقات ، ويتمتم بمسوت واهن قارئًا ما به للحظة ، ثم يقبله بتبجيل ويعيده لمكانه في صدره بتوقير كتوقير العامة لكتاب • وهو يستطيع أن يغنى ، ويستطيم ذبح الشاة ببراعة ، ويدعوه الناس للصلاة بحرارة ، ويستطيع أن يحلق ويطبخ ويحارب ، وهو بارع في « علم » الهجاء ، وهو مثل سعد لا يؤدي الصلاة أبدا الا عند الضرورة للحفاظ على المظاهر والشكليات ، ورغم أنه أقسم أن يموت قبل أن ينسى نذره (وعده) لابنة عمه الا أننى أشك كثيرا أنه لن يكون أفضل مما هو عليه • وإذا ما ذكر لفظ النبيذ تجعد جبينه ، وتلمظ بفمه ، وقد عاش في استانبول بضعة اشهر دون أن بتعلم عشر كلمات من اللغة التركية ، مع أن استانبول مدينة شهيرة بقدرتها على تغيير سلوك من يعيش فيها • وأخيرا فليس في جيبه أكثر من قرش أو قرشين لأنه بدد المبالغ الكبيرة التي وهبتها لمه سيدات الطبقة الراقية في القاهرة واستانبول باعتباره رئيسا للشعائر حول قبر الرسول ﴿ صلى الله عليه وسلم) •

أما صالح شكار Shakkar فتراه ممددا على البساط ، يدخن طوال النهار الفليون العجمى (شيشة عجمى) ، وهدو من مواليد المدينة (المنورة) من أب تركى وأم عربية وهو شاب طويل ونحيل وبه هزال ، ريما كان في السادسة عشرة من عمره لكن أفكاره أفكار رجل في السادسة والأربعين ، وهو طماع الى أقصى حدود الطمع ، وأنانى ، ولا يعرف الكرم ، ومتكبر كالأتراك ، وجشع نشيط في جشعه كالمعرب وهو يصلى المفروض والسنة غالبا ، ويلبس لباسا أكثر احتراما من لباس ال السمان (الذين أشرنا لواحد منهم أنفا) ويفضل أسلوب أهل استأنبول عند

⁽٢) السخرية واضحة في التعبير - (المترجم) ٠

قضاء حاجته (التواليت) وهيئته ، ولمونه الأصفر المشرق يجعل الناس يعتبرونه شخصا غير عادى • وقد كانت بيننا صداقة حميمة بدرجة كافية اثناء الطريق عندما اقترض منى مبلغا ضئيلا • لكنه في المدينة (المنورة) قاطعني بقسوة ، كما يفعل اهل المدن الذين تعارفوا بالصدفة في حديقة Hyde Park كما أنه بالطبع حاول ــ عبثا ــ أن يروغ من رد ما عليه من دين • ولديه لون من الوان المثقافة ، ويبدو انه درس دراسة نقدية موضوع السخاء • وهو لا يكف عن ترديد مثل هذا القول الجليل: « الكريم حبيب المرحمن ، نعم ، حتى لو كان آثما ، والبخيل عدو الله ! أي نعم احتى لو كان قديسا » وقد أخبرني أيضا أن فرعون - رغم انه كافر قد ذكره الله بالاسم في القرآن الكريم بسبب كرمه وتحرره بينما نمرود وهو كافر ظهالم فان الله مسبحانه اكتفى بالاشهارة اليه لأنه كان طاغية شديد الطغيان (*) . وأم يكن ثمة حاجة غالبًا للقول أن صالح شمكار كان - كما يقول أهل شرق الهند - « ذبابة مصاصمة » (١) بكل ما يعنيه هذا القول من معنى • وكان هناك رجلان اخران من أهل المدينة المنورة في وكالة جرجس ، لكننى أهملت وصفهما ، وقد كانا مفلسين عندما غسادرنا السويس . وكان أحدهما هدو مدمد شقابها قابلته بعد ذلك في مكة (المكرمة) وقلما رأيت من هو اكثر امانة ، واشد مرارة في المساقة ، فعندما ركبنا سفينتنا في السويس وجدته يلقى بنفسه على صدر حامد ، وراح كلاهما يبكى بمرارة لأنهما سيفترقان - حتى ولمو كان هذا الفراق لأيام قلائل .

ولم يضع كل هؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم وقتا في فتح باب الاسئلة عن الفوائد والقروض · لقد كان درسا في الميتافيزيقا المسرقية لأرى احوالهم ، لقد كان المامهم اثنا عشر يوما واربعة ايام عليهم ان يواجهوا فيها تكاليف حمل صناديقهم ، والمكوس التي عليهم دفعها في مراكز الجمارك · وأمعاءهم التي تطلب الامتلاء ـ ومع هذا فانني اعتفد انهم جميعا ، لم يكن معهم من النقود السائلة الجاهزة ما يساوى دولارين · مع ان صناديقهم كانت مليئة بكل ما هو ثمين من اسلحة وملابس ، وشيش مع ان صناديقهم كانت جمع شيشة) واخفاف (جمع خف) وحلوى وغيرها ، لكن شيئا ما لا يدفعهم ـ عدا الموت جوعا ـ لاستهلاك اقل قدر مما يحملون ·

ولاننى توقعت أن يكون فى صحبتهم مزايا لى ، فقد اعرب طلبهم لبعض الكرونات (٣) القليلة أذنا ودودة لكن المولد محمد حصل على سنة دولارات ، أما حامد فحصل على حوالى خمسة جنيهات لأننى كنت أذوى

⁽٣) الكرون Crown ، خمسة شلنان ـ (المترجم) .

^{(﴿} عَنَى عَنَ القَرَلُ أَنْ هَذَهُ خَرَاهَاتُ ، وَأَنْ كَلَمَةً (هَرَعُونُ) تَعْنَى مَلَكُ سـ (المترجم) *

الاقامة بمنزله في المدينة المنورة ، وحصل عمر أفندى على ثلاثة دولارات . وحصل سعد العملاق على دولارين سوقد أعطيتهم هذه النقود في ينبم ، أما صالح شكار فقد اعطيته خمسين قرشا ، ولأن القاعدة في هذه البلاد أن أحدا لا يرد ما اقترضه أو حتى استعاره ، فقد حرصت على المحصول على أكبر قدر من الخدمات من الأول (الولد محمد) وأن أحصل على معطفين ثمينين من الثاني (حامد) وشيشة جميلة من الثالث (عمر أفندي) وسيفا تركيا (يطغان) ويسمونه بالا bala من الرابع (سعد العملاق) ، وشالا من الكشمير غير الأصلى (المحاكي) من المفامس (صالح شكار) • وبعد ذلك جلسينا واستمرت اتفاقاتنا • لقد كان مفيدا لى أن أعطيهم نقودا مصرية ، وأساومهم على دفعها بعملة المحاز ، فمققت بذلك ربحا وصل في بعض الأحيان الى ستة عشر في المائة • ولم أفعل ذلك بقصد الربع في المقام الأول ، كما لم أفعله لأتقمص شخصَية حاتم (الطائي) وانما فعلته ترقبا لميوم الاقامة في المديثة المنورة • فان رفاقي لما تلقوا منى هذه البالغ البسيطة اصبحوا متعاطفين معى ولهجت السنتهم بالثداء على ، وغمروني بالمطلبات والحوا في طلب مدايا من الحلوى ، وكانهم اكتشفوا اننى رجل عظيم يخطر تحت السحاب ، وريما كانت ادعاءاتي بانني درويش قد مهدت لهم هذا الاكتشاف ، فراحوا يعلنون اننى لابد ـ بحكم المظروف ـ ان اكون ضيفهم في مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) • وفي الأحوال كلها ، فرضوا على مكانة الصدارة ، فكان رايي هو أول الآراء المتي يناقشونها وما كانوا لميقروا مشروعا دون موافقتى ، وياختصار فان عبد الله الدرويش (٤) قد وجد نفسه _ فجأة _ شخصا مهما ٠ وقد أدت بي هذه المكانة السامية الي عمل أحمق ربما كلفني كثيرا ، إذ أثار الشك الوحيد حولي والذي طالما عبروا عنه أثناء رحلة الصيف ، فقد راح أصدقائي ينظرون الى ثيابي ويتفحصون صندوق الدواء الخاص بي يتركين ، وانتقدوا مسدساتي ، وسخروا من ساعتى ذات الغطاء النحاسي (٥) ، وتذكروا أنهم رأوا بوصلة في استأنبول ، لذا فقد تخيلت أنهم لا يعرفون الا قليلا عن السدسية (٦) . وكان هذا خطأ منى فالمولد محمد قد علم بعد ذلك بخبر ساعتى ، غانتظر حتى خرجت من

⁽٤) يقصد نفسه ... (المترجم) .

⁽٥) المقصود السدسية التي سنورد عنها بعض الملاحظات في حاشية تالية - (المترجم) .

⁽٢) السدسية أو ذات السدس أو الكوكبة الجنوبية هي آلة بصرية ذات مقياس مدرج على شكل قوس دائرية وطوله اسدس محيط الدائرة وتستعمل السدسية لقياس الابعاد وانظر معجم المصطلحات العلمين الذي المحقة يوسف غياط بطبعته لمسان العرب مادة سدسية وعن صورة السدسية انظر معجم المصطلحات العلمية والفنية عداد الحمد الخطيب وعن الفرق بين السدسية وغيرها من الاجهزة اللازمة للرحالة نظر رحلة بلي للرياض وترجمة دو عبد الرحمن الشيخ ودو عويضة الجهني بـ (المترجم) والمناز المترجم والمتراز المترجم) والمترجم والمتراز المترجم والمتراز والمت

المغرفة ليعلن أن الحاج المرتقب (٧) كان أحد الكفرة نى المهند ، وجالس القنصل (٨) لمناقشة هذا الأمر · ولحسن حظى أن عمر أفندى كان قد طالع خطابا كنت قد كتبته للحاج والى هذا الصباح كما أننى كنت قد أجبت عمر أفندى فى أوقات مختلفة عن أسئلة معينة تدور حول التوحيد ، فوجد من واجبه بحكم وضعه أن يعلن أن ما ذكره محمد غير معقول · أما الشيخ حامد الذى كان يترقب أن يستضيفنى ويكون دليلى ومدينا لى عموما ، وربما كان قليل الاهتمام بالمامى بأمور العقيدة اقسم أن نور الاسلام يشع من محياى · ومن ثم فان الولد محمد كان عالمة فقيرا ، وكان بومة ، وتعرض للمقاطعة ، وبدا غريبا وهابيا (المقصود غير سليم العقيدة) وتعرض للمقاطعة ، وبدا غريبا وهابيا (المقصود غير سليم العقيدة) لطعنه فى عقيدة أخ فى الدين ، وانتهى المشهد بادانة عامة للشاب المتوقد ذهنه فقد قالوا له جميعا انه لا يستحى ، ولابد أن « يخاف الله » ، وكنت دهنه فقد قالوا له جميعا انه لا يستحى ، ولابد أن « يخاف الله » ، وكنت معجبا بالتعبيرات البادية على وجوه أصدقائى عندما رأوا السدسية ، فقررت متحسرا أن أتركها ، وبعدها ظللت مواظبا على أداء الصلوات الخمس قرابة أسبوع .

واتفقنا جميعا ألا نضيع ساعة واحدة وأن نعمل على تأمين اماكن لنا على ظهر بعض السفن المتجهة الى ينبع ، ولما سمع أصدقائي أن جواز سفری کهندی بریطانی قد لا یحظی بالقبول نصدونی جادین ان اوقعه من مدير السويس (المحافظ) بلا تأخير ، وحدروني من انني اذا اظهرت التذكرة التركية التي حصلت عليها في القاهرة من القلعة ، فان السلطات ستجبرني على انتظار القافلة ، وافقد بالتالي مرافقتهم وصداقتهم ، فالحجاج الذين يصلون للاسكندرية يقسمون الى ثلاث مجموعات ، مجموعة تتخذ طريق السويس ، والأخرى طريق القصير ، والثالثة طريق الحج المبرى حول خليج المعقبة ، وبعد أن يكون هذا التقسيم لا تعير الحكومة الا الذنة صماء لمزاعم الأفراد وطلباتهم ، فلدى بك السويس اوامر بتعطيل الصجاج بقدر ما يستطيع حتى نهاية الموسم مما يجعلهم يهرعون سالكين ذلك الطريق مخافة أن يفوتهم الوصول لمكة المكرمة في الوقت المناسب ، وذلك لأن معظم المستولين المصريين الكبار يمتلكون قوارب تبدر في نهر الذيل محملة بالمحجاج وتعود محملة بالقمح ، لذا فمن المطبيعي أن تبذل الحكومة قصارى جهدها لفرض التأخير والقلق على الغرباء الذين يسلكون هذا الطريق (البرى) ولأن أولئك الذين

⁽V) المقمسود بيرتون نفسه ... (المترجم) ·

⁽٨) تعبير ساخر ، والمقصود الولد محمد ... (المترجم) .

يسلكون الطريق البرى لابد أن ينفقوا أموالهم داخل الحدود المصرية - على الأقل لمدة خمسة عشر يوما ، أكثر من أولئك الذين سيركبون السفن من السبويس مباشرة ، فان البك يسهل أمور حجاج البر ، ويضع العقبات أمام الذين سيستقلون سفنا من السويس · ولما علمت بهذه الحقائق عرفت أن المشاكل باتت وشبيكة • فكانت المخطوة الأولى أن أخذ جواز سفر الشبيخ نور النظامي وجوازى غير النظامي الي البك لتوقيعه ، فقلب الأوراق كما لموكان لا يستطيع قراءتها وأحالها لكاتبه دلالمة فقدان الأمل • ولما رأى الكاتب أن الموثيقة غير نظامية سألنى لم لم أحصال على المتأشيرة (المفيزا) في المقاهرة ، فأجبت أن ضغط المظروف هو الذي منعني وان الدك (في القاهرة) لم يكن لديه ما يمنع من منحى التأشيرة (الفيزا) ولما حاولت اقناعه ، زادت غطرسته ، فخشیت أنه ربما كان من الضروری أن أسافر عن طريق القصير ، والوقت لا يكفى لذلك الا بشق الأنفس ، أو أن استقل جملا بنفسى الى ميناء الطور وأنتظر هناك حتى تلوح فرصة وجود موضم لى في بعض السفن نصف المحملة - وهذا بطبيعة الحال يتوقف على المطروف • وكان أملى الأخير في السويس هو الحصول على مساعدة السبيد وست Mr. West مساعد القنصل البريطاني وقتها ، وأصبح قنصلا بعد ذلك • وعلى هذا فقد أخذت معى الولد محمد واخترته لتحقيق هدف خاص ، واستأذنت زملائي في اتخاذ الخطوة التالية ذلك انني لمفقت حكاية خرافية عن تبرعي للأمة البريطانية عندما كنت في أفغانســـتان ٠ واتخذنا طريقا للقنصلية · وكان أوغسطس برنال Augustus Bernal وهـ شخص غير حكيم ، قد نبه نائب القنصل الى توقع مقابلتى لمه .. فاكتشف نائب القنصل تنكرى رغم رطانتى (تعمدى الا انطق الانجليزية بشكل سليم) ، وقرر أن يراعى الرسميات شيئًا ما ، ولم يكن هناك افضل. من الاجراء الذي اتخذه ، فقد وجه كاتبه أن يتصل بمستخدم البك فاذا ما اعترض على توقيع تذكرة الاسكندرية ، فان نائب القنصل يمكنه على مسئوليته المخاصة أن يقدم لي جواز سفر جديدا _ باعتباري أحد الرعايا البريطانيين ـ به تأشيرة للسفر من السويس الى شبه الجزيرة العربية ٠ وفى الدوم المتالي رجعت لي الوثيقة معتمدة • وسرني هـذا التعهد الذي تعهده المسيد وسب على نفسه واثناء رحلاتي ، كنت غالبا القي منه رعاية حارة واهتماما ودودا وبينما كانت مشاكل جواز السفر في طريقها للزوال ، كان بقية جماعتنا مشغولين بالمور السفر وتحويلات المنقود . وتتطلب الاجراءات الخاصة في ميناء السويس بضع كلمات شارحة ٠ « فمنذ خمس وثلاثين سنة (حوالى سنة ١٨١٨) اقتراح اصمحاب السفن على المحكومة القائمة وقتئد ـ رغبة منهم في تحميل سفنهم بحمولات كبيرة - وضع فرضة Fardah أو نظام (للدور) ، وكان من المفروض ان

الباشا سيرفض اعتماد هذا الاجراء ، لأن هدفه كما هو معروف أن يحتقظ. بكل الاحتكارات في يديه • لكن حدث في تلك الأيام أن كل أفراد حاشيته. كانوا يمتلكون سفنا في السويس ، فقد كان ابراهيم باشا بمفرده يمتلك اربع سنفن أو خمسا . لذا فقد كان افراد الحاشية يتوقعون أن يشاركوا التجار في الأرباح ، وهذا يعوضهم عن نقص رسوم الميناء ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا سجلت كل السفن في الميناء وصدرت الأوامر أن تبخر على التعاقب (بالدور) in rotation وقد ربح من هذا التنظيم صاحب السفينة فقد أعطاه في المقابل احتكارا مؤقتا ، بالاضافة لكثرة الطلب ، واتاح له فرصنة التحميل الثقيل لدرجة أن أبسط اهتزاز غير محسوب يعرض السفينة للغرق مما يكلف شركات التأمين مبالغ طائلة ، وفي المقابل فان العامة كانوا هم الخاسرين دائما من نظام (الفرضة) وقد لا توافق بعض النقابات على مثل هذا الاجراء في مكان آخر ، ولكن أهل السويس من المسلمين والنصارى على سواء مرتبطون معا برباط المودة والمحبة من خلال نظام (الفرضة) هذا ٠ ان هذا النظام قد أضر بالتاجر الذي يتاجر مع أماكن مختلفة ، كما أضر بتاجر البحر الأحمر . ليس فقط بسبب الارتفاع الدائم لمتكاليف الشحن وانما أيضا لأن هذا النظام يسبب في بعض فترات العام ركودا في المبيعات وفي تصدير البضائع لسوق جدة الكبير . وفي هذه الأيام (نوفمبر ١٨٥٣) فان السفينة التي جاء دورها (التي عليها الدور) قد تكون سفينة ضخمة وقد يكون هناك نقص في البضائع المصدرة للحجاز ، ومن الطبيعي أن ينتظر مالكها أي فترة مهما طالت حتى يتم تحميلها تحميلا كاملا ، ونتج عن هذا انه لم تبحر سفينة حاملة بضائع من ميناء السويس طوال الاثنين والسبعين يوما الماضية · فالذين اشتروا بضائع لتصريفها في سوق جدة بدين يستحق بعد ثلاثة أشهر عليهم أن يواجهوا قبولهم لبضائع لازالت مخزونة في الميناء المصرى وهذا التناقض الغريب لمبدأ حرية التجارة دليل أخر على أن حماية مكاسب جانب واحد (المجانب المحمى) فقط ، تلحق المضرر بمصالح المجانب الآخر (الجمهور) وبالاضافة لملاحظات السيد ليفك Levick هذه ، أضيف فقط أن المحكم يدعم نظام (المفرضسة) بكل. طاقة المستفيدين (المحميين) • وقد كان خطاب من السيد (حصل الآن على اقب سير) جون دراموند هاى Hay كافيا لدفع بك السدويس على اختراق نظام الفرضة لصالح امسراء معينين من مراكش ، ولم تستطع توصیات لورد شــتاتفورد دی رتکایف توصیات لورد ولا تمنيات السبيد وست الطيبة أن تمكنني من ركوب سفينة في غير دونها . فكنا مضطرين للتعويل على جهدنا الشخصى ونشاط سعد العملاق وبراعته

- فهو جدير بالثناء فبعد تعويقات ومشاكل مختافة بنتجت غالبا عن اصراره على أن يسافر مجانا ، وأن ندفع نحن أجرة كبيرة معقد اندافا مع مالك السنبوك (السلك النهبى) ، لقد حجز لنا أماكن فى مؤخرة السنفينة ، وهو اكثر الأماكن ملاءمة لنا فى هذا الفصل من العام ، وقد افترض أننا لن نكون مرتاحين تماما لأن الحجاج المغاربة سيزاحموننا ، لكن « ربنا يسهل الأمور » ، وقد دفعت لحجاز مكانين لى تمانيه عشر ريالا ، ولمرافقى سبعة ريالات لكل واحد ، بينما استطاع سعد العملاق حبيكل سرى ان يدرج نفسه فى قائمة التجار المقتدرين ، وكنا مضطرين لترك محمد شقلبها لانه لم يكن يستطيع به ويريد مدفع الأجرة ، ولم يكن احد منا على استعداد لدفعها له ، ولم أضن عليه بمبلغ بسيط على سبيل الاحسان ، لأننى أعلم أنه الأكثر أمانة واخلاصا (لقد اسرتنى سبيل الاحسان ، لأننى أعلم أنه الأكثر أمانة واخلاصا (لقد اسرتنى رقته فى مكة المكرمة) ،

لم يكن هناك ما هو أكثر ازعاجا من أيامنا وليالينا في خان جرجس • فجدران غرفنا المشققة كانت رطبة وقذرة ، وعوارض السقف الخشبية لموثها الدخان وعشش فيها العنكبوت ، وتناثرت على الأرضية الدلاء (جمع دلو) وأشياء أخرى في فوضى مزعجة ، وكانت الجدران سوداء عامرة بالصراصير والنمل والذباب وعشسش الحمام على النتوءات المجرية للنوافذ ، وراح يعزف المحان الغرام المزينة طوال اليوم ، أما القطط فكانت كالمنمور ، وكانت تزحف للغرفة من خلال ثقب غي الياب ، وجعل مواؤها الليل بشعا · وجاء دور العنزة المزعجـة ، والحمار المفضولي لميتسللا للغرفة فلاحظا انها مستأجرة ، فرجعا بوقار ، ويغنى البعوض اغنيات النصر فوق مضاجعنا طول أربع وعشرين ساعة • وأعفى القارىء من تعداد البلاوي المصرية الأخرى التي ابتلي بها المكان • وبعد أن خضنا تجربة اليوم الأول قررنا أن نقضى ساعات النهار في الممرات متمددين فوق صناديقنا أو فوق الأبسطة ندخن ونتشاحن ويفتش كل واحد منا في مقتنيات الآخر ، وكان هذا التصرف الأخير مادة خصبة المنزاع ، فليس هناك ما هو أكثر انتشارا من أن يستولى الصديق على شيء يخص الآخر ثم يقسم بلحية النبي أن هذا الشيء قد اعجبه ، ومن ثم يستولمي عليه ولا يعيده ٠ وكان الولد محمد والشيخ نور قد ابتليا (عانيا من الاقامة سي المغرفة) في اليوم الأول ، واختلفا في الراي في اليسوم الثاني وفي اليوم الثالث اتيا ليدفع كل منهما الآخر صوب الحائط • وفي بعض الأحيان كنا نذهب للسوق ، وهو عبارة عن شارع ظليل تحف به دكاكين صغيرة متواضعة ، أو نجلس في المقهى نشرب ماء جار اعترته ملوحة له لون الفول المحروق ، أو أن نصلي في واحد من المساجد الثلاثة الآيلة للسقوط ، أو أن نجلس على رصيف خليج السويس نتفجع لحاجتنا

الى الاستحمام ، فنستحم في ماء البحر الفاتر · وانتهيت الى نتيجــه مؤداها أن السويس كمنتجع أو مصح مائي Watering place ، اسبوا حتى من دوفر Dover · والجماعة الوحيدة التي وجدناها ـ غير الزائرين الموسميين - كانت جماعة من النسوة المصريات يشغلن مع الزواجهن واولادهن بعض الغرف المجاورة لمغرفتنا وفي بداية الأمر كن شرسات يستخدمن لغة فظة ، وغامرت أنا والولد محمد - منتهزين فرصة انشاخال عمر افندى بالصالة ، وانشغال الآخرين بالتجول في السويس - بالمشي ببطء في الممر البارد حيث كن مجتمعات أو لتوجيسه العبارات الطريفة لهن . لكنهن لما سمعن اننى حكيم باشي Hakim-bashi رقیت بسبب شهرتی الی رتبة طبیب عام - اکتشفن جمیعا آنهن مصابات يبعض المعلل ، فبدأن يطلبن منى بحذر أن أظهر لهن تأثيرات دوائي يان أتناوله شخصيا ، ولكنهن في خاتمة المطاف ابتلعن ـ مذعنات ـ مركبات طبية ضد الغثيان ودوار البحر ، واعقب ذلك نوع من الغنج البدائي المكشوف وكانت أكثرهن جانبية هي فطومة وهي سيدة سمينة تقارب الثلاثين ، شعوفة بالمعزل المخفيف ، ولها لمسان ذرب مهزار كاشد ما تكون الذرابة والهزر كسائر المصريين • وكانت الملازمة التي تلازم حواري معها هي « تزوجيني يا فطومة ٠٠ يا بنت يا فطومة ٠٠ يا حاجة ۽ وعبثا حاولت فانها بحركة دلال من وسطها ، حركت رأسها للوراء بحركة مفاجئة فتحرك غطاء راسها بدلال متقن وقالب : « أنا متزوجة يا شاب ! » - انه من المتفق عليه أنها - باعتبارها امرأة ذات نزعات طبيعية لتعدد الأزواج ـ يمكنها أن تدعم وزن ثلاثة ارتباطات زوجية ـ على الأقل · وفي بعض الأحيان يقطع دخول الفلاحين هذه المناقشات البسيطة ، لكن الناس (الشبعوب) من الفئات المحترمة ، والمتنا ، لا يجب أن ينخدعوا يمشل هؤلاء الأزواج ، ففي حضورهم غيرنا - فقط - أسلوب الحديث - فسالنا عن المهر أو العفش (الأثاث) (عش الزوجية) ساخرين من رخص سعر المراة في مصر وطالبين أن نؤسس مستعمرة للعرائس بعشرة شلنات للراس (للواحدة) ، وفي الغالب الأعم فان فطومة - رغم سلهولة انقيادها واعتدال مزاجها سستضحك لموقاحتنا ، وتدخلنا فيما لا يعنينا • وفي بعض الأحيان كنا نستثير فطومة يتقليدنا لهجتها المصرية ومحاكاة ايماءاتها ، ونقال من قيمة المصريات ، فيتعاظم غضبها وتأمرنا بالذهاب بعيدا وترفع اصبعها السبابة دلالة على أنها تريد (تخزيق) عيوننا، او ان تدعو الله أن يقطع قلوبنا خارج صدورنا ، فأقول لها : « تزوجيني -با فطومة ١٠ يا بنت يا فطومة ١٠ يا حاجة ١ » وقد يؤدي هذا الي ان اقول لها : (يا المعجورورز ، « يا كركوبة ٪ يا بنت ستين أب ، انت

لا تصلحين الا لحمل الحطب الى السوق) فتنفجر غضبا تصبه علينا ، فنشب على أقدامنا كالأطفال مبتعدين وقد اتخذ كل منا طريق الآخر . ولكن عندما نتقابل مرة ثانية يكون كل ما فعلناه سابقا قد دخل حيز النسيان ، فنعود ونكرر الحكاية القديمة . وكانت هذه هي تسلية النهار ، وفي الليل نجلس نحن الرجال متجمعين في الشرفة الصغيرة نشرب الشاى ، ونحكي الحكايات ونقرأ الكتب ونتحدث عن أسفارنا ، ونخوض في أمور مختلفة تبعث على السرور . وكانت الفكاهة الكبيرة أن الولد محمد قد سب كل رفاقه في مواجهتهم باللغة الهندوستانية التي لم يكن أحد يقدر على فهمها الا الشيخ نور وأنا ، الا أن الآخرين _ على أية حال _ يضنون المعنى الذي يقصده ، وثاروا لأنفسهم بردود سريعة فظة مقحمة بأسلوب حجازي خالص .

وأود أن أقدم مزيدا من المستخلصات القليلة عن السويس وأهل السويس من خطاب السيد ليفيك Levick : «يظهر أن عدد الحجاج الذين يمرون بالسويس في طريقهم الى مكة المكرمة راح يتناقص باضطراد مؤخرا · فلما أتيت الى السويس للمرة الأولى (١٨٣٨) كان عدد الحجاج الذين يركبون السفن من السويس يتراوح بين ١٠٠٠ و ١٢٠٠٠ و كانت السفن أكثر عددا ، وكان التجار أكثر عددا وأغنى · وقد تأكد لى من خلال سجلات خاصة محفوظة في الأرشيفات الحكومية أنه في المسام الهجرى ١٢٧٩ (الموافق ١٨٥١/١٨٥١ للميلاد) كان عدد الحجاج الذين مروا بالسويس هي ٤٨٩٣ يالضيط » ·

« وفى سنة ١٢٦٩ للهجرة (١٨٥٢ / ١٨٥٣ للميلاد) تناقص العدد الى ٣١٣٦ ، ويرجع أهل البلاد هذا التناقص السباب مختلفة ، وان كنت أعزو هذا للتأثير غير المباشر للحضارة الغربية على القوى الاسلامية المتصلة بها .

ان جحافل الحجاز غير المتجانسة تتكون من اناس من كل الطبقات ، وكل الألوان ، يرتدون كل الأرياء ، فالمرء لا يرى من بينهم أهل البلاد المجاورة لمصر فحسب ، وانما يرى أيضا نسبة كبيرة من أهل وسط آسيا ؟ من بخارا وفارس وبلاد المجراكسة وتركيا والقرم ، وهم يفضلون هذا الطريق (طريق السحويس) عن طريق استانبول ، نظرا للصحاب والأخطار التي تعترض قوافل المحج البرية من دمشق وبغداد ، وارتفاع والأخطار التي تعترض قوافل المحج البرية من دمشق وبغداد ، وارتفاع تكاليفها ، ويأتينا (أي الى السويس) من الغرب الحجاج المراكشيون والمجرائريون والتونسيون ، وحجاج أعماق أفريقيا من التكارته

(التكروريين) السود ، وأخسرون من بورنو والسسودان وغسدامس. Ghadamah بالقرب من النيجر ، والجبرت من الحبشة » ·

« وبناة السفن في السويس جماعة ذات نفوذ وتأثير ، وهم في الأصل كانديون Candiots وسيكندريون · وعندما جهز محمد على اسطوله لخوض حرب الحجاز نقل عددا من اليونانيين الى السويس . ويمارس الأبناء الآن حرفة أبائهم (بناء السدفن) ويوجد الآن في السويس ثلاثة كبار من بناة السفن · والصعوبة الرئيسية التي يواجهونها هي نقص المواد اللازمة لصناعتهم • فخشب الساج يرد من الهند عن طريق جدة ، والألواح الخشبية البندقية أغلى هنا بنسبة ١٠٠٪ عنها في الاسكندرية بسبب ارتفاع نقلها على الجمال • وتمد تريست Trieste وتركيا ، السويس بالمصواري القائمة (الساريات) ، وتمدها جدة بالقمشة الأشرعة ، وصناع السفن رجال من السويس ، أما أطقم البحارة فخليط من العرب والمصريين ، والريس (أو القبطان) فمن ينبع أن كانت. السفينة كبيرة ، أما أن كأنت عادية فقد يكون عربيا أو مصريا • ويوجد نوعان من السنفن يتم التمييز بينهما وفقا للحمولة لا طريقة البناء ٠ الذوع الأول يسمى (البغلة) وتحمل أكثر من خمسين طنا ، والنوع الثاني (السنبوك) وحمولته من خمسة عشر طنا الى خمسين طنا • ويرشع مالك السفينة امير البحر ، وناظر السفاين ليحمل سفينته أكبر حمولة ممكنة ، فاذا ما دفع الثمن (الرشوة) سمح له بالتحميل باعتبار الطن يساوى تسعة ارادب - ويصل عدد السفن التابعة لميناء السويس. ٩٢ سنفينة ، وتتراوح حمولتها بين ٢٥ و ٢٥٠ طنا وكان عدد السفن. المغادرة في العام الهجري ١٢٦٩ (١٨٥٣/١٨٥٢ للميلاد) ٣٨ لأن كل سفينة تعود من رحلتها تخرج من الخدمة الفعلية لمدة تبلغ حوالى. عامين ، وفي الفترة التي يمر خلالها الحجيج بالسويس _ يقال ان هذه الفترة تستمر اربعة اشهر لم يبلغ عدد السفن المفادرة سفينتين. فى الأسبوع ، وفى الشهور الباقية من العام يتراوح عدد السفن المغادرة في الفترة كلها ما بين ست سفن وعشر سفن · والتجارة في رحلة العودة للوطن تشمدن ـ بشكل رئيسي ـ في سفن جدة ، اذ يسمح لهذه السفن لحمل بضائع لمسويس ، ولكن لا يشحنون شدحنات من السويس في. المقابل ، اذ يجب ألا يتدخلوا في نظام الدور (نظام التناوب أو الفرضة المشار اليه آنفا) ولا أن يحققوا ارباحا من خلاله » •

« وخلال العام الحالي كانت الواردات تشتمل على ٣٩٥ر ٤ طردا ، بينما بلغت الصادرات ١٥٩٨٥ · ويزداد الدخل الى حدد ما نتيجة

رجمان كفة الواردات • ففي كل عام يخرج من مصر مبلغ يتراوح بين ٠٠٠و ٣٠ و ٢٠٠٠ من الكرونات أو دولارات ماريا تريزا الى شسبه الجزيرة العربية والحبشة وانحاء افريقية أخرى • وأنا أقدر قيمة الواردات يحوالي ٢٥٠ ٠٠٠ جنيه استرليني ، وتجارة الصادرات الي جدة بحوالي ۲۰۰ ،۰۰ جنيه استرليني سنويا • وتتكون الواردات بشكل الساسي من المبن والصمغ المعربي ، ١٧٤٦٠ بالمة (جوال) بن و ١٩٢٢ر١٥ بالة (جوال) صمغ عربي ، والقيمة الاجمالية لكل سلعة تتسراوح بين ٧٠٠ر٥٥ و ٧٠٠٠ر جنيه استرليني ، واجمالي سعر السلعتين هو ٠٠٠ر ١٦٠ جنيه استرليني ٠ وفي العام الماضي كانت الواردات تشتمل على ٥٤٨ر٢٦ طردا والصادرات٩٨٥ر١٦ طردا ، من بينالبضائع الرئيسية فيها البن والصمغ المعربي: ١٥٤٩٩ بالمة بن و ١٤١٢٩ بالمة صمغ عربي، وكان سعر البالمة الواحدة حوالي خمسة جنيهات استرلينية • ويأتي في المقام المثانى من حيث الأهمية الشمع الوارد من اليمن والحجاز ، وعرق اللؤلؤ من البحر الأحمر ويتم ارساله لانجلترا خاما كما هو ، والفلفل من الملابار ، والقرنفل الذي يجلبه الحجاج السلمون من جاوة وبورنيو وسنغافورة ، وانابيب المشيش (جمع شبيشة) العجمية من خشب الكرز من بلاد فارس و Bussora والتمباك العجمى أو المجلوب من سورات Surat واقسدر قيمسة هده البضائع بمبلغ ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً • وكان هناك أيضاً (سنة ١٨٥٣) ٧٠٨ بالات قرنفل و ٩٤٨ باللة فلفل مالاباري قد يبلغ ثمنها (القرنفل والفلفل) حوالي ٧٠٠٠ جنيه استرليني • ومواد التصدير ذات القيمة المحدودة هي ـ وهي في معظمها بهارات (زنجييل ، وحب الهيل ٠٠٠ النخ) ، وعطور شرقية كخشب المسرر ، وعطر الورد ، وعطر القرنفل وغيرها ، والتمر هندي من الهند واليمن ، وقصدير البنكا Bancatin والجلود المدبوغة التي يعدها البدو ، وأوراق السنا من اليمن والحجاز ، و (الملايات اللف) الخاصة بالنساء من قطن عليه مربعات زرقاء ، مصنوعة في جنوب شبه الجزيرة العربية ، واجمالي هذه الواردات المتنافرة قد يصل الي ٢٠،٠٠ جنيه استرلینی سنویا » •

أما المسادرات فتتكون بشكسل اسساسى من الأدوات المنزلية والشيلان الكشميرية (*) ، وأغطية الرأس ، والموسلين (القماش الموصل منسوب تاريخيا للموصل بالعراق ، ولا عملاقة لمسه بالعراق

^(★) ذكر الكاتب من بين الصادرات هنا bleached Madipilams ولم نعرف. المقصود منها ــ (المترجم) *

الآن) الذى يستخدم فى لف العمائم ، والباقى : دهانات منشستر والكحل والصابون الشامى وحلقات الحديد ، والأدوات المعدنية والخرز البندقى او التريستى (من تريست) ويستخدم فى الزينة فى شعبه الجزيرة العربية والحبشة وأوراق الكتابة ، والطرابيش والصنادل والأخفاف (جمع خف) وغيرها من انواع الثياب وادوات الزينة » ·

ومتوسط درجة الحسرارة السنوى فى السويس حوالى ١٥٥ فهرنهيت ويمثل شهرا يناير وأغسطس طرفى النقيض من حيث الحرارة والبرودة ، فخلال شهر يناير تتراوح درجة الحرارة بين ٣٨٥ كدد الادنى و ٢٨٥ كدد أقصى ، وخلال شهر أغسطس تتراوح درجة الحرارة بين ١٨٥ و ١٠٠٠ بل وتصل الى ١٠٠٥ فيكون الحر ظالما لا يطاق ونادرا ما يكون هناك مغادرون خلال هذين الشهرين ولا أذكر أننى رأيت الترمومتر يرتفع فوق درجة ١٠٨ فهرنهيت خلال فترة رياح الخماسين القاسية ، كما لا أذكر أنه هبط عن ١٣٥ حتى عند هبوب أشد الرياح برودة وتهب العواصف الهوجاء من الجنوب فى شهر مارس أما المطر فمتغير تغيرا شديدا ، ففى بعض الأحيان تمر ثلاث سنوات دون ذرول وابل من المطر ، بينما فى سنة ١٩٨١ استمرت السيول لتسعة أيام متتالية واغرقت المدينة (السويس) وهدمت منازل كثيرة » .

« وسكان السويس يبلغ عددهم الآن حوالي ٤٨٠٠ ولميس هناك احصاء رسمى كما هو معتاد في بلاد العالم الاسلامي ومن هنا ، فان البعض يقدر عددهم بحوالى ٠٠٠ر٦ ٠ ومنذ ستين عاما كان من. المفترض انهم اقل من ٣٠٠٠ ، الا انهم اندادوا بعد ذلك بسرعة حتى سنة ١٨٥٠ عندما اجتاحهم وباء الكوليرا فانقصهم الى حوالي نصف عددهم الآنف ذكره • وتبلغ نسبة الوفيات حوالي اثني عشر شهريا • والأمراض. المتوطنة هي حمي التيفود وانواع من المحمى المتقطعة (الراجعة) في الربيع ، وعندما تهب الرياح الشمالية القوية التي تتسبب في انحسار مياه المخليج تتخلف مستنقعات تتصاعد منهما الروائح النتنة • وفي شهرى أكتوبر ونوفمبر تهاجم المحمى المسكان مهاجمة عنيفة ، وكذلك الرمد ، وإن كانت أمراض العيون أقل شيوعا هنا منها في القاهرة ، وإن كانت أعراضها هنا أكثر حدة • وفي بعض الأحيان كانت أمراض العيون من الأمراض المتوطنة بضراوة بحيث كانت تنتهي اما بالعمي الكامل أو الاعتسام الجزئي للقرنية مما يؤدى الى ضعف دائم في العينين • ففي شهر واحد فقد ثلاثة من معارفي ابصارهم • ومرض الدوسنتاريا أيضا من الأمراض المنتشرة ، وكذلك الدمامل البشعة ، والقرحة · وفصل الشداء

.فصل طيب ففيه يقوم هواء الصحراء النقى بدور المنعش ، ويجلب معه الدفء » ·

«وأسىوار السنويس وبواباتها ودفاعاتها في حالة يرثى لها فلم تعد تصلح حتى لمنع بدو سيناء من الدخول اليها • ويبلغ عدد منازلها حوالي ٠٠٠ ، وأن كان سكان كثيرون من الهلها يفضلون شغل الطوابق المعليسا في الوكالات ، وغرف الطوابق الأرضية تستخدم كمخازن لبضائع معينة كالأخشاب والتمور والقطن وما الى ذلك • ويعيش أهل السويس معيشة رغدة فأسواقهم عامرة بالملحوم والزبد المجلوب من سيناء والطيور والذرة والخضروات الآتية من مديرية الشرقية ، والفاكهة الآتية من القاهرة والشرقية ، والقمح الذي يأتى الى القاهرة عن طريق النيل يحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى السويس · واذا ما أشرقت الشسمس تناول أهل السرويس افطارهم الذي يتكون في فصل الصيف من فطيرة ، أما في الشتاء فوجبة الافطار اكثر اهمية وهي طبق من الكشرى (عدس وارز وسيمن وبصل مقطع مسوى على نار هادئة أو ليمون مخلل) • وفى هذا الفصل يسعدهم كثيرا تناول الفول المدمس ويضعون عليه كثيرا من الزيت الحار (زيت بذرة الكتان) ويغمسون لقم الخبز فيه • والفول يعتبر - بما يولده من كربون - وجبة غذائية عالمية القيمة وإذا استطاعت المعدة هضمه _ فهم يدمسونه بقشره ولا ينزعون القشر أبدا _ فانه يعطى أكله قوة عظيمة • وحوالي منتصف النهار يأتي ميعاد الغداء ، وهو وجبة خفيفة من خبز القمح مع المتمور والبصل أو المجبن ، وفي موسم الصيف يفضلون على الغداء بطيخا وفاكهة مبردة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يتعرضون للشمس . أما وجبة العشاء فبعد غروب الشمس بحوالي نصف ساعة ، ويتناول الجميع - خلا أشد الناس فقرا - في هذه الوجية اللحوم ، والفضل انواع اللحوم عندهم - كما هو الحال في هذا الجزء من المعالم سرهو الضائن (لمحوم المخراف) ولا يقضلون كثيرا لمحوم الأبقسار والماعز ٠ وأهل السويس أكثر رقة وتحررا من القاهريين فأهل السويس الهم مظهر يجعلهم أقرب للعرب ، فملابسهم أكثر جمالا وتميزا وعيونهم مكملة بعناية ، ويلبسون في أقدامهم الصنادل والأخفاف (جمع خف) • وهم بكل المقاييس مشاغبون متمردون ومتعصبون شيئا ما ، شغوفون بالعراك ومدمنون للمياهاة واصدار التصريحات الى حد ما ٠ (يقصد الهتافات) فالبرنامج العام للواحد من هذه الفئة الأخيرة (مدمنة الهتافات) يختلف من شخص لآخر كالتالى : يرسل الآباء أولادهم أولا ، فيتجمهرون بغير نظام ، ويأمرونهم بالمهتاف « طال عمر السلطان » "و « عاش السلطان» . ويعقبون هذا بهتاف آخر هو « الموت للكفرة » وقد يثير هدا القول

« المحفرة » فيضطر مدير السويس للأمر بسجن صببي أو صبيين من الهاتفين ، أو يأمر الشرطة بضربهم بالخيزرانة • لذلك فان بعض الأثرياء اق علماء الدين ذوى الشهرة يشكون علنا من أن الدول الأوربية أصبحت الآن هي « المكل في المكل الله all in all » » وأن الاسلام يبدو واهنا ضعيفا في هذه الأيام السود · وفي هذه المناسبة فان المتحدث قد يضمع تفسيه موضيع المفسر كان يقول ان المدير مضطر لحيسه (أو حجزه) مما يزيد من سخط العامة • وتعقد اجتماعات سرية من المفترض أن لزعماء الطوائف والجماعات ، دورا بارزا فيها • فاذا ما تم اخماد الاضطرابات بهدوء عن طريق مثيريها ، تم الافراج عن المتآمرين · انهم سيشربون كثيرا ليصبحوا اسودا بالليل ، ارانب قبل ظهر اليوم التالي • لكن اذا كان المقصود الحاق الضررر والأذى ، سادت حالة تراق فيها الدماء وعندئذ لا شيء يمكن أن يوقف الاضطرابات العامة ، فالمصرى رغم نكاته وروحه المرحة ولامبالاته ، مشهور بالعناد عند استثارته أو على حدد التعبير المصرى الشعبي « اذا فار دمه أو اذا فور أحد دمه » (٩) . والحقيقة أن هاذه هي الميزة الرئيسية في المصرى كجندى ولدى المصرى وابلا من الرصاص ، صائبا ، كما لو كان فوجا في شوبام المصرى وابلا من الرصاص ، صائبا ، كما لو كان فوجا في شام لكن المصرى يفشل فشلا ذريعا اذا تطلب الأمر استخدام رأسمه لا يديه · فسبب تفوقه في الميدان ، هو عناده الذي يتميز به ، بالاضافة الى قدرته على الاستيعاب ، وقدرته على العطاء وتحمل مشاق السبير في طوابير ، وهي صفات تجعله مرهوبا من الأتراك غزاته الأقدمين (١٠) ٠

⁽٩) اتخذت الحكومة اجراءات لمنع سفك المدماء في المدن بنزع سلاح أهل البلاد • (موجز تعليق بيرتون) •

⁽۱۰) موجز تعليق الطبعة الثالثة (۱۸۷۳) لقد زرت السويس مرة الخرى فى سبتمبر ۱۸۲۹ ووجدتها تغيرت لما هو افضل ، وزاد عدد سكانها من ۲۰۰۰ الى ۲۰۰۰ وقد اعطتنى محطة السكك المحديدية والمستشفى البريطانى الجديد والكازينو اليونانى الصاخب والمحلات الأوربية والبواخر - اعطتنى روحا روائية » •

موجز تعليق الطبعة الرابعة (۱۸۷۹) : « لقد زرت السويس مرة آخرى ۱۸۷۷ ـ ۱۸۷۸ ووجدت السويس القديمة قد انتهت بعد حفر القناة ، والحق أن هناك (سويس) جديدة » • انظر ·

The Gold Mines of Midian by R. Burton.



الفصل العاشر

سفينة الحج

الوداع والمفوضى - المبك يفحص جوازات السفر - الحجاج المغاربة - المبقشيش - النظرة للحجاج الفرس - معركة على السفينة - عيون موسى - حمامات فرعون - اذان الشيعة - التوسل بالأولياء - البو زئيمة الولى حامى البحار - سكان الطور +

مرسى السفن الكبيرة ، يبعد ثلاثة أميال أو أربعة عن رصيف السويس الممتد في البحر ، لذلك فمن الضرورى أن تصل اليه بواسطة مركب صغير أو زورق من زوارق الساحل ·

لقد كانت ساعة مغادرتنا مفمعة بالأحداث ، كما كانت الفوضى ضارية اطنابها • فلتتصور اننا متجمعون على الساحل في صباح يوم قائظ من أيام شمهر يوليو ، نراقب بحذر بالغ أمتعتنا وبضائعنا التي حزمت في عجلة ، وقد أحاط بها رهط من المتشردين المذين لا يأنفون من نشال. كل شاردة وواردة ، بينما المحجاج يندفعون بجنون واضح ، والأصدقاء ببكون ، والمعارف يضجون مودعين ، واصحاب القوارب يطلبون الأجرة ، واصحاب الدكاكين يدعون ديونا لهم ، والنسوة تولولن ، وتتحدثن بطريقة تنم عن طاقة لا ينفد معينها ، والأطفال يصيحون · باختصار ، فقد كذا طوال ساعة أو نحوها في وسط رُخم بشرى عارم ، وقد أبعد أصحاب. الزوارق زوارقهم ست ياردات عن الشاطى ، تجنبا للفوضى والزحام مخافة ألا يستطيع الواحد من العتالين (الحمالين) تحصيل ما يزيد عن ضعف أجرته من الحجاج • ومرة أخرى صدرت عن نسوة تركيات أصوات شنيعة ، وهن يصرخن ، والأطفال يصرخون لأن أمهاتهم تصرخن ، والرجال يويخ بعضهم بعضهم الآخر ، ويقسمون ، ففي مثل هذا المجو من المستبعد أن يلزم أحد جانب المصمت • وقد وجد كل واحد منا بعد أن ركب الزورق انه فقد شيئًا ذا اهمية حيوية : غليون أو طفل أو صندوق أو بطيخة ، ومن الطبيعي أن كل الخدم كانوا في الأسواق في الوقت الذي كان يجب أن

يكونوا في القارب · وباختصار ، فرغم غضب البحارة الشديد ، خوفا من أن نتأخر كثيرا عن الرحلة الثانية ، فقد وقفنا لبعض الوقت على الشاطيء قبل أن نغادر الميناء ·

وتم دفعنا من الشاطىء الى رصيف صغير ممتد ، حيث جلس البك the Bey شخصيا ليفحص ـ للمرة الأخيرة ـ جوازات سيفرنا ، وقد ضبط أفرادا عديدين لا يحملون معهم الوثائق الضرورية ، فضرب بعضهم بالمفلكة على أخامص اقدامهم ، وأجبر آخرين ـ بشكل حاسم ـ على العودة الى القاهرة ، أما الباقون فقد سمح لهم باكمال رحلتهم ، وفي حوالى السناعة العاشرة ، في السادس من شهر يوليو نشرنا الشراع واجتزنا بتمهل قناة تؤدى الى مرسى السنفن (المكلا) ، وفي طريقنا ركب معنا بعض المغاربة ، وقد ازدحم القارب بهولاء المتوحشين الذين ركب معنا بعض المغاربة ، وقد ازدحم القارب بهولاء المتوحشين الذين قبل أن نتخذ الاحتياطات الدفاعية ، لقد حملوا معهم اشياء كثيرة ، وبدوا مستبدين وسخروا منا ، كما بدوا مستعدين تماما للدخول في عراك ، وقد حدث أن همهم صبيي الهندي بكلمة (بربر) فنجا من ضربة بجريدة نخل هوت غير بعيدة عنه ، وكانت ضربة شديدة كافية لاسقاط بعير ، لقد فاقونا عددا ، وكانوا مسلحين ، وقد كنا مضطرين في بعض بعير ، لقد فاقونا عددا ، وكانوا مسلحين ، وقد كنا مضطرين في بعض بعير ، لقد فاقونا عددا ، وكانوا مسلحين ، وقد كنا مضطرين في بعض الأحيان لابداء شيء من التصدى لغرورهم ،

وكانت سفينة الحج التى ركبناها تسمى سلك الذهب وهى سنبوك (١) حمولة ٠٠٠ اردب (خمسين طنا) تقريبا وله ــ أى السنبوك ــ انحناءات اسفينية ضيقة ، وعلى جانبيه خطوط ماء (٢) ، وله عارضة حادة ممتدة على طول قعره ، وليس له سطح علوى الا فوق المؤخرة فهو مرتفع بما فيه الكفاية ليقوم بدور الشراع في مواجهة الريح العاتية ولهذه السفينة صاريان ، يكادان يميلان نحو مقدم السفينة ، والصارى الرئيسى أكبر بكثير من الصارى المزيني شاكتير من الصارى المزيني (٣) فبالنسبة لسفينتنا هذه نجد

⁽۱) السنبوك (والجمع سنابيك) بفتح السين ، واصلها غير عربى ، لكن العرب يعرفون هذا النوع من السفن بهذا الاسم ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخايج العربى تأليف سيف مرزوق الشملان ، ج ١ ص ٢٧١ ، ويلاحظ أن بعض المؤلفين يكتبها بالميم وهو خطأ ، انظر الصور - (المترجم) ،

⁽Y) خطوط الماء water line ، هو خطوط على جانبى السفينة لقياس الجزء الغاطس في الماء وهي فارغة أو وهي محملة ـ (المترجم) •

⁽٣) وهو الصارى الأقرب الى مؤخرة السفينة _ (المترجم) •

أن صاريها الأقرب للمؤخرة مزود بمثلث خشبى ضخم ، أما الشراع الثانى فلا وجود له ، ولميس هناك تبرير معقول لذلك • ولميس فى هذه السفينة وسائل لمثنى الشراع ، ولميس بها بوصلة ولا جهاز لقياس سرعتها ، ولا حبال أو أسلاك لسبر غور الأعماق ، ولا حبال احتياطية ، ولا حتى ما يشبه الخريطة • وهذه السفينة بقمرتها (كابينتها) الشبيهة بالصندوق ، ومخزنها المضلع ، تجعل الانسان يحس بعلاقة قوية بين طرازها (أى طراز هذه السفينة) والسفن الهندية المعروفة باسم التونى Toni (3) أو الزورق الشجرى (٥) •

وريما كانت سفينة من هذا النوع هي التي حملت سيزوستريس Deir (٢) القديم عبر البحر الأحمر الي دير كومثلها أيضا السفن الطوافة التي كانت تغادر مرة كل ثلاث سنوات ميناء ازيون جبر Ezion-Gober قاصدة طرشيش Tarshish اليوس جاليوس Bakhshish المشيش Aelius Gallus المشرة الاف وقد كانت كلمة بقشيش الهلاه العشرة الاف وقد كانت كلمة بقشيش الهلاه المها بغيضة سمعتها في مصر ، كما كانت أيضا أول كلمة بغيضة سمعتها فيها و فمالك قارب الشاطيء لم يكن ليسمح لنا أن نصل الي سفينتنا قبل أن ندفع له أجرته ، وبعد أن دفعنا له أجرة طالبنا بالبقشيش و أد لو أن الشرقيين حذوا للهقط حذو الأوربيين لتخلصنا سريعا من هذا الازعاج ، فأنا لم أر أبدا انجليزيا يدفع بقشيشا لشخص ما وفي أوقات أخرى يزلم هذه المناسبة استجاب كل رفاقي لطلب البقشيش ، وفي أوقات أخرى يزلم

⁽³⁾ التونى Toni أو الكانو (الجمع كانوات Crnoe) الهندى هو جذع شجرة جوف ليكون سفينة _ خاصة من جذوع أشجار المانجو القريبة من بمباى ، وقد تطورت هذه الوسيلة البدائية فى الابحار فصصنعوا سعفا أكثر تطورا هى الكاتاماران وهذا النوع الأخير متوفى فى مدراس وعدن · (موجز تعليق بيرتون)

^{• (} موجز تعليق بيرتون) • Catamaran وهذا النوع الأخير متوفر في مدراس وعدن • (موجز تعليق بيرتون)

 ^(°) الزورق الشجرى adugout هو زورق يصنع بتجويف جذع شجرة · عن
 معجم المورد ـ (المترجم) ·

⁽۱) المقصود سنوسرت الثالث الذى اسماه اليونانيين سيزوستريس ، وقد امر بحفر فناة فى شرق الدلتا تصل بين النيل وخليج السويس ، والمشهور ان حتشبسوت هى التى ارسلت اسطولا من خمس سفن كبيرة الى بلاد (بنت) وصورت رحلتها وكتبت اخبارها على جدران معبدها بالدير البحرى ولم تكن حتشبسوت وحدها هى التى ارسلت بعثات تجارية الى بلاد (بنت) ،

محمد جمال الدین مختار وآخرون : مصر وحضارات العالم القدیم (وزارة التربیة) صاص ٦٦ ـ ٦٧ ٠

الانسان أن يطلب منه دون غيره دفع البقشيش · وقد أبدت النظرة الأولى على سفينتنا من الداخل ما لا يبعث على الأمل : فعلى مراد مالك السفينة الطماع ، كان قد وعد بأن يصطحب معه ستين مسافرا ، الا أنه زاد العدد الى سبع وتسعين · وقد ازدحمت السفينة بأكدوام الصناديق والأمتعة من مقدمتها الى مؤخرتها ، وكان سيل الحجاج الذين أقحموا اقحاما على جانبى السفينة كالنمل في سكريات (أواني السكر) بشرق المهند ، وحتى مؤخرة السفينة حيث اتخذنا أماكننا ، كانت مغطاة بالبضائع والأمتعة ، كما أن عددا من الحجاج قد فرضوا أنفسهم في هذا المكان بالمعنف لا بالحق ·

Saad ذو القوة والبراعة ، كيحار ماهر قدير وقد ظهر سعد وحقق ظهـوره رضانا ، فقد نظر بسخط الى صندوقين كبيرين ممتلئين بالبضائع الثمينة واستعد هذا الشخص الممتلىء حيوية لاتخاذ اجراء ، وبمعونة مجموعتنا الصغيرة أخلى مؤخرة السفينة من الطفيليين وأمتعتهم بدفعها أو القائها ببساطة في قاع السفينة · عندئذ استقر بنا المقام مرتاحين كما كنا نود ، وكنا ثلاثة سوريين ورجلا تركيا يصطحب زوجته وأولاده ، وريس (قبطان) السفينة ومعه جانب من طاقمها وخدمنا السبعة ، وبذلك كنا ثمانية عشر انسانا مكدسين في مساحة لا تزيد عن عشرة أقدام في ثمانية أقدام أما القمرة (الكابينة) - وكانت صندوها بائسا في مساحة مؤخرة السفينة ، وترتفع ثلاثة اقدام ... فمعدة على شاكلة المخازن في سفينة نقل العبيد ، وكان بها خمسة عشر شخصا بائسا من أطفال ونساء ، أما بقية السبعة والتسعين راكبا فقد تناثروا على الأمتعة أو على جانبي السفينة • وبسبب بعض الخيرة التي حصالتها في مثل هذه المواقف _ بالاضافة لمحالفة الحظ لمي _ وجدت قاعدة كهيئة السرير معلقة بجنب السفينة ، فمنحت صاحبها ـ وهو بحار ـ دولارا ، وكان هذا البحار قد وطن نفسه باعتبارها ملكه ، لينام عليها ، وسرعان ما جعلتها مناسبة لى مفضلا اى مشقة خارج السفينة عن الزحام الشبيه ينحام السردين المعلب في داخل السفينة - فبقائي داخل السفينة كان قطعة من العذاب ٠

لقد كان منظر رفاقنا المغاربة يدعو للسخرية فهم كحيوانات الصحراء القريبة من طرابلس وتونس ، انهم همج للغاية ، فمنذ أسابيع قليلة كانوا يحملقون في المركب الصغيرة ذات مجاديف (كوكبوت) (٧) ويعجبون

⁽٧) ينطقها عرب الخليج جالبوت ، والجمع جوالبيت ، وربما كان الأصل خلاب وهو نوع من السفن القديمة ، عن : سيف مرزوق الشملان : تاريخ النوص عن اللؤاؤ ، ص ١٧٧ ـ انظر الصورة ـ (المترجم) ،

كيف كبرت (أصبحت كبيرة) وأصبحت سفينة أوسلتهم الى الاسكندرية ٠ وكان معظمهم شبابا اقوياء ، ذوى رءوس مستديرة ، وأكتاف عريضة كما كانوا طوال القامة غلاظ الشفاه ، كما كانوا ذوى عيون عابسة ، أما أصواتهم فكزئير غير منقطع • وكانت طريقة تصرفهم فجة ، كما كانت وجوههم مليئة بكل معانى الغطرسة • وكان من بينهم قليل من المرجال كبار السن تعبر وجوههم عن الغلظة والضراوة ، وكانت النسوة على الشاكلة نفسها من القسوة والضراوة ولا يقللن رغبة في العسراك والاقتتال عن الرجال أما الصبية الظرفاء ذوو الأصوات الحادة الصاخبة فكانت أيديهم دائما على خناجرهم لقد كانت النسوة ترتدين أسمالا بيضاء قذرة ، أما الرجال فقد ارتدى الواحد منهم « برنس « Burnus - والبرانس معاطف صوفية بنية أو مخططة ، تتصل بها قلنسوات ٠ وهم - أى الرجال - لا يضعون على رءوسهم العمائم أو ااطرابيش ، فهم يثقون في قدرة شعورهم الجعدة والكثيفة وسماكة جلود رءوسهم على حمايتهم من أضرار الشمس ، ولم أر واحدا منهم ينتقل بخف او حداء • وعلى اية حال ، فقد كانوا جميعا مسلحين ، ولحسن حظنا فان سلاح الواحد منهم لا يزيد عن كونه خنجرا للقطع والطعن يبلغ طوله عشر بوصات ، ويسافر هؤلاء المغاربة في جماعات (قطعان) ، كل جماعة تحت امرة قائد يطلقون عليه لقبا مؤقتا هو (٨) (المولى) وهي كلمة تعنى الرئيس · وغالبا ما يكون المولى قد أدى الحج مرة أو مرتين وحصل قدرا من المعلومات السطحية التي تضمن له احترام جماعته ، وازدراء عميقا من مطوفى ومزورى (٩) مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ٠ وليس من بشر يتحملون المشاق في سبيل الحج اكثر مما يتحمله هؤلاء الأفارقة الذين يعتمدون تماما - في الغالب - على الصدقات وما تتيحه العناية الالهية لهم • لذا فليس امرا مستغربا أن يسرقوا اذا أتيحت لهم الفرصة • وقد حدثت عدة حوادث سرقة في سفينتنا (سلك الذهب) ، ولأن مثل هؤلاء السراق غالبا ما يبدون مقاومة عنيفة ، فريما يتهمون - بحق - بارتكاب بعض حودث القتل وهم في حالة هياج ٠

⁽ Λ) أى طالما كان رئيسا لاحدى الفرق أو الجماعات المسافرة ، فاذا انتهى السفر لم يعد (مولى) - (المترجم) •

⁽٩) المطوف هو الذى يدل الحجاج على كيفية الطواف حول الكعبة وغير ذلك من مناسك الحج والعمرة • والمزور هو الذى يرشد الحجاج وغيرهم على كيفية زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من المزارات فى المدينة المنورة • عن بوركهارت : محلات فى شبه جزيرة العرب ـ (المترجم) •

وأول ما يتعين على الانسان عمله بعد أن يحصل على مكان يقف فيه هو أن يكافح من أجل مزيد من الراحة ، فحتى سفينة الهوليهد التي كانت تنقل البريد والبضائع والركاب في الأزمنة القديمة تعد الفضل حالا ، والعراك والمشاكسة فيها اقل من سفينة الحج هذه ٠ لقد اختلط عدد قليل من الأتراك وبعض الرجال كبار السن من الأناضول والقرم بالمغاربة فشرع المفريق الأول (المترك والأناضوليون وأهل المقرم) نى العراك بدفع جيرانهم المتوحشين (المغاربة) بمراغقهم وتعنيفهم ، فقام المغاربة بزعامة قائدهم المولى على (وهو همجي تماما - واكتشفت ii هناك شبها يدعو للضحك بينه وبين الراحل شارلمز ديلافوس Delafosse ناظر المدرسة العجوز الذي نذكره جيدا) بالرد على ضرباتهم وتوبيخهم بقسوة شديدة ، فما هي الا دقائق قليلة الا واختلط الحابل بالمنابل فلم تعد تر الا أجسادا بشرية متلاحمة يصعب التميين بينها ، فهذا يخترق الجموع ، وذاك يدفع بعنف ، وثالت يخمش وجه آخر ، ورابع يعض ، وخامس ينطح اى يضرب بالرأس (يعطى لخصمه روسية) وسادس يطا خصمه بقدميه ، وتعالت صيحات الغضب والغيظ ، وكل أمر بغيض مصاحب للمعارك ٠ وقد قام واحد من جماعتنا عند مؤخرة السفينة ـ وهو سورى غير حدر الى حد ما - بالوثب لساعدة أحد مواطنيه باعادة النظام ، الا أنه سرعان ما غرق تحت أقدام المتعاركين ، وعندما أنقذناه كانت جبهته قد فتحت ، ونصف لحيته قد اختفى ، وظهرت علامات عض حادة من أسنان بعض المغاربة على ربلة (بطلة) ساقه ولم يبد الأعداء رغبة في مباراة شريفة متكافئة ، فظهر الهم لا يقنعون الا بان يبرك خمسة أو ستة منهم فوق فرد واحد من مناوئيهم ، وقد ساءت الامور نتجة لهذا ، اذ كان من الطبيعي أن تبرز الأطراف الضعيفة خناجرها ، وسرعان ما أدت الطعنات المتبادلة الى جروح قليلة قاسية · وفي غضون دقائق اصبيح خمسة رجال عاجزين عن الحركة تماما ، وبدأ المنتصرون يبثون المرعب في الناس نتيجة انتصارهم ٠

وعندئذ توقف القتال ، ولما كان كثيرون منا غير مستطيعين أن يجدو أماكن ، فقد وافق الجميع على أن تؤجل المفاوضات لحين حضور على مسراد مالك السفينة لاخباره بالزحام الشديد عليها · وبعد أن طال انتظارنا ما لا يقل عن ثلاث ساعات ، ظهر على مراد في قارب تجديف على بعد غير قليل من سفينتنا ، واخبرنا أن أي واحد منسا يرغب في مغادرة السفينة ، فانه سيرد له الأجر الذي دفعه · وادي قوله هذا الى أن أصبح الموضع على السفينة كما كان تماما قبل مجيئه ، فلم يكن أي من الركاب براغب في ترك جماعته والعودة للشاطيء · لذا فقد يكن أي من الركاب براغب في ترك جماعته والعودة للشاطيء · لذا فقد

جدف على مراد عائدا للسويس ، موجها لنا نصيحة بأن نكون طيبين ونترك الاقتتال ، ولنثق باس (سبحانه) فانه سيسهل لنا الأمور كلها وكان رحيل على مراد اشارة لمعركة ثانية ، وان اختلفت وقائعها قليلا عن المعركة الأولى كنا نحتفظ بأماكننا وفي عن المعركة الأولى كنا نحتفظ بأماكننا وفي ايدينا أسلحتنا وفي هذه المرة طلب منا المغاربة أن نأخذ عندنا حوالى ستة منهم لانقاذهم من متاعبهم وقد ظهر سعد العملاق فجأة مقسما باس ، ووزع علينا مجموعة من النبابيت (١٠) ـ وهي عصى رمسادية يبلغ طول الواحدة منها ستة أقدام ، ويبلغ سمكها سمك الرجل ، وكانت للنبابيت قد أحسان تشجيمها ، وتم تجربتها في كثير من المعارك المامية وصاح فينا سعد العملاق : « دافعوا عن أنفسكم اذا كنتم الحامية ، وصاح فينا سعد العملاق : « دافعوا عن أنفسكم اذا كنتم « يا كلاب ، يا أولاد الكلاب ، سوف ترون الآن من هم أولاد العرب » فأجبناه مرددين أسماءنا وأنسابنا :

- ـ أنا عمر الداغستاني
- ـ اذا عبد الله بن يوسىف !
 - ـ أنا سعد العملاق!

ولتكون عادلين في حق أعدائنا ، فانهم والحق يقال لم يبدوا أي علامة دالة على الاحجام ، فقد احتشدوا في اتجاه مؤخرة السفينة ، كالزنابير الغاضبة ، وراحوا يشجع بعضهم بعضهم الآخر بصيحات « الله أكبر » الا أننا كنا في موقع أكثر ارتفاعا من موقعهم بحوالي أربعة أقدام ، كما أن عصيهم من جريد النخل وخناجرهم القصيرة لم تكن لتصنع شيئا في مواجهة نبابيتنا المرعبة ، وعبثا حاول « الجاكيون Jacquerie (۱۱) أن يصعدوا الى مؤخرة السفينة وأن يتفوقوا علينا بكثرة العدد فلم تنفعهم شجاعتهم شيئا سوى حماية رءوسهم من التكسير،

وفى البداية بدأت أهاجم حاملا النبوت Main morte وكنت خائفا حقا أن أقتل أحدا بمثل هذا السيلاح لكن اتضح أن رءوس المغاربة

Nabbut نبوت (۱۰)

Jacquerie (۱۱) المصطلح يطلق على الثورة الجاكية أو ثورة الفلاحين في فرنسا عام ١٣٥٨ ، وأصبح هذا المصطلح يطلق على ثورة الفلاحين بشكل عام • وبيرتون هنا يسقط ثقافته التاريخية وغير التاريخية الواسعة على تشبيهاته فيرهق المترجم والقارىء ارهاقا شديدا ، والمقصود هنا وصف المغاربة بالغلظة والشدة مع قلة في العقل ـ (المترجم) •

واكتافهم تتحمل بل وتحتاج من المرء أن يضرب بقوة • وسرعان ما أتتنى فكرة • لقد كان ثمة زير فخارى ملىء بماء الشرب _ مثبتا في حمالة خشبية قد يصل وزنها الى مائة رطل ـ فوق مؤخرة السفينة ، فتسللت الى هذا الزير ـ ودون أن ألفت نظر أحد قلبته بدفعة ذكية من كتفى على جماعة المهاجمين (المغاربة) • وأحدث ستقوط المزير صنوتا طغى على صنوت المعراك وضبجيجه وتسبب في خدوش ورضسوض في المرءوس والشسفاء والأجساد ، مما دفع المغاربة للانسحاب الى آخر السفينة خوفا من حدوث ما هو أسعوا • وبعد دقائق قليلة جلسنا خلالها في صمت حزين اتانا وفد من ذوى البرانس البنية الشاحبة ليقدموا لنا « عصير الاستطلاع » على حد تعبير ميفيستوفيلز Mephis topheles فتوسلوا منا السلام فوافقنا على أمل أن يلزموا أنفسهم به • وقبلوا أيدينا واكتافنا ورءوسنا ، وعادوا ليضمدوا جروحهم بخرق قذرة ٠ لقد أرجعنا هذا الانتصار تماما لجهودنا الا أن عمرا Omar المعروف بالحلم كان أكثر المجموعة غضبا · أما (ريس السفينة) فكان _ كما علمنا بعد ذلك _ غبيا قديما فلم يكن يستطيع أن يفعل شيئا سبوى الدعوة لقراءة « الفاتحة » وطلب « البقشيش » في كل مكان نرسو فيه ليلا · وكان طاقم السفينة يتكون من ستة رجال مصريين لم يكونوا قادرين على الدفاع عن انفسهم اذ كان المغاربة يعاقبونهم بين الحين والآخر خاصة اذا حاولوا الطبخ أو جلب الماء أو اعداد الشيشة ٠

وأخسيرا في حوالى السساعة الثالثة من عصر السادس من يوليسو ١٨٥٣ نشرنا اشرعتنا التى انتفضت بالرياح المواتية ، ورفعنا أيدينا وقرانا الفاتحة ثم مسحنا وجوهنا بأيدينا و ولما تحركت (السلك الذهبى) لم اتمكن من القاء نظرة مشتاقة على العلم البريطانى الذي يرفرف فوق القنصلية وسرعان ما خنقت الأسف العابر الذي الم بي فقد كنت سعيدا حقا بمغادرة مصر فقد عشت في ارضها غريبا سيىء الحظ ، وكان كل من طالع وجهى في شوارعها اعتبره وجه عدو فارسى ، وكلما تعاملت مع الموظفين الوطنيين واجهت الغطرسة ، وكان تعودى على أن أعيش في جو من المودة والترحيب بين أهل بلدى جعلني أجد من غير المكن أن أسعد مصر .

وسفن البحر الأحمر تبحر نهارا بالقرب من الساحل ، وترسو ليلا عند أول خليج صغير تجده ، فالبحر الأحمر ذو سمعة سيئة بسبب شعابه المرجانية وصخوره القريبة من السطح وضحالته بالقرب من الساحل ، ولا يبحر البحارة فيه اذا كانت الريح عاصفة خاصة في الشتاء

حيث لا يدوم النهار طويلا ، وحيث الجو عاصف غالبا ، لذا تكون الرحلة بطيئة مملة بشكل لا يطاق • وعند غروب الشمس رسونا ـ ولا زالت السويس على مرأى منا ـ تحت جبل عتاقة متخذين منه ملاذا يحجب الريم عنا ، وعلى الساحل الشرقي كانت توجد قلمة من بساتين النخيل متجمعة حول (عيون موسى) أما في الغرب فيقع ـ بين حيدين برجيين ـ مصب وادى (مسيل) الطوارق أو وادى موسى أو وادى البادية - الذى _ (\Y) The Sea of Sedge خرج بنو اسرائیل منه الی بحر البردی • وكان المنظر يفتقد الى وفقا لما يقوله الآب سيكارد Sicard الأيهة البربرية تماما ٠ فلا خضرة البتة غير أنه تحت القبة السماوية التي تشكل خلفية بنفسجية وبرتقالية توجد الصخور الطباشيرية التي أصبحت _ يفضل انعكاس الألوان أنفة الذكر _ أكواما من التوبان Topaze ، كما أصبحت الحيود البنية التي سفعتها الشمس وكانها كتل من الجمثت (الحجار كريمة أرجوانية أو بنفسجية)، وكان الضباب الطالع فضيا أبيض في موضع ، وزهريا غامقا في موضع آخر ، وزرقة الأمواج الساحرة تحد اشرطة طويلة من الرمال الذهبية •

وفى صباح اليوم التالى (٧ يوليو) شرعنا فى الابحار قبل أن تتلاشى الالوان من قمم المتلال ولم يمض وقت طويل حتى كنا على وعى بموقعنا ولله لقد كان الصندوق الذى يضم مؤنى وافيرنى موجودا فى قاع الخرج الخاص به ، وهو موضع لا يمكن الاقتراب منه ، وهو امر مزعج لى خاصة بالنسبة للأفيون وعلى هذا فقد « سعدنا » بتناول افطار من جلد الفرس (المقصود قمر الدين) وقطع من البسكويت اليابس كالحجر اما طعمه فلا مذاق له وخلال النهار بينما كانت الشمس والحرارة تحكمان دون منازع ، كان اندفاع الماء قد بلل عشى برذان من الماء جعله رطبا دائما وفى الليل يشتد البرد ويتألق القمر ويتساقط الندى كثيفا ورطبا لدرجة أن الانسان يحس أن جلده لمن يتخلص من البلل أبدا ومن المبهج » تماما أن ينام المرء على سرير خفيف لا يزيد طوله على حوالى اربعة أقدام ولا يزيد عرضه عن قدمين مع يقين كامل بأن أية حركة غير محسوية ستقذف بك من فوق السفينة الى البحر ، ومع قناعة تامة أنك

⁽۱۲) الاسم المعبرى لمهذا الجزء من البحر الأحمر ، ويرى بيرتون أن الاغريق سمو! البحر الاحمر باسم البحر الارترى Ergthrach Sea نسبة الى حمير (بحر حمير) . السبمت Sea (عن بيرتون) ،

⁽١٣) رئيس بعثة الجزويت التي زارت المنطقة سنة ١٧٢٠ وكتبت عنها مجلدا معروفا • (عن بيرتون) •

اذا سقطت من السفينة (السنبوك) تحت المشراع غليس من قوة مستميتة يمكنها انقانك ، ففى المشرق _ تحت كل الظروف _ تجد أن التراخى والكسل هما الوظيفتان الأساسيتان للانسان المشرقى ، وسيفهم القارىء أن الحاجة للتراخى والكسل قد جعلتنى متراخيا كسولا تماما ·

لقد كانت الرياح خفيفة هذا النهار ، وكانت الشدعة المشمس نارا وفضل طاقم السفينة الاقتراب من ظل الشراع ليتمتعوا بالهواء فى هذا المكان · ورغم تململنا فلم نقطع الا مسافة يسيرة وقرب المساء رست السفينة عند لسان رملى على بعد حوالى ميلين من مرتفعات مشهورة جديرة بالتصوير يسميها العرب حمام فرعون :

« تقف كالمارد ،

لتحمى أرض السحر والجمال »

فمن الواضع أن شريط المرو (الكوارتز) الضندن وكتل الأحجار الرملية قد جرفتها بعض السيول من الجبل • انها تمتد ناحية الجنوب وربما كان مسارها في هذا الاتجاه بفعل التيارات البحرية وهي تتلقى هذه المرواسب • ولمقد منعنى بعد هذا « المحمام الكاذب » من زيارته وأنى لآسف لعجز المتعبير بالمقلم عن مجاراته لموصف المجهد والواقع •

لقد سعدنا هذه الليلة باستلقائنا على الرمال النظيفة التى جعلتها الرياح تتخذ شكل أمواج صغراء صغيرة ، والتى يمكن أن تتحول الى مخادع مريحة باردة بقليل من الحفر والاعداد ، والحقيقة أنه بعد أن عانينا من حرارة النهار الشديدة ورجرجة سفينتنا السيئة ، فقد كان علينا الا نطمع في كثير من الترف ، لقد جمعنا الوقود (الحطب) بالفعل ، وبينما كان بعضنا يستحم كان الآخرون يجهزون النار في كانون أو مصطلى وهو عبارة عن ثلاث أثافي (أحجار) مع ترك فجوة في اتجاه الريح ، وأشعلوا النار ووضعوا فوقها الاناء لميغلي ، وكان مع الشيخ نور للريح ، وأشعلوا النار ووضعوا فوقها الاناء لميغلي ، وكان مع الشيخ نور من الأرز وشوينا على الفحم النباتي اسماك القد التد تحيش على الساحل بين الصخور ، وهيأنا غداء جعل كل من ذاقه ينسي الظلم المفادح الذي بين الصخور ، وهيأنا غداء جعل كل من ذاقه ينسي الظلم المفادح الذي لحقنا بأكل جلد الفرس (المقصود قمر الدين) والبسكويت الذي يضارع الأحجار في صلابته ، وغامرت قلة من المغاربة بالتجول على الشساطيء ، فأرهب « المريس » المباقين بتهديدهم « بالمغيلان » وهو يقصد البدو — وقدم انا المغاربة الكسكنيو المعادي المعاربة المعاربة المعاربة المعاربة الكسكنيو وقدم انا المعاربة الكسكنيو ، وهيأه لهم من سمك ، ولما حل

المساء صممنا ـ قبل أن ننام - على التأثير في معنويات هؤلاء المغاربة بشكل جاد فهزأنا من تكوينهم الجسماني وهيأتهم • وقام الشيخ حامد برفع الأذان بنغم أهل المدينة المنورة ، فتجمعوا لأداء الصلاة واتخذوا صفوفهم خلفنا (جعلوا انفسهم في الصفوف الأخيرة في الصلاة) كمظهر من مظاهر الاحترام ، ولما انتهت المعلاة وجهوا لمنا أسئلة عن المدينة المدورة حتى تعبنا من الاجابة ، فراحوا يقبلون رؤوسنا وأكتافنا وأيدينا وركبنا لميس اعتذارا هذه المرة ، وانما ايمانا وحبا لمن يعرف عن المدينة المنورة اكثر مما يعرفون • وكان رفاقي يستطيعون بشق الأنفس فهم نصف الكلمات الوعرة التي يستخدمها المغاربة فلهجتهم لهجة صحراوية طازجة (قادمة لتوها من الصحراء) • لقد نجدنا في جعل أنفسنا واضحين لهم وتبجحنا بشرافتنا كابناء للرسول (صلى الله عليه وسلم) وفخرنا عليهم بقداسة أرضنا التي تحمى أبناءها من الخداع والعنف، • ووعدناهم ـ متفضلين ـ أن نكون اللتهم (مزوريهم) في المدينة المنورة ، وأن المولمد محمدا سيكون مطوقهم في مكة المكرمة فكانوا يبدون أسفهم وندمهم على ما بدر منهم من اثم في حقنا في الأيام السابقة وتعهدوا بأن هذا لن يتكرر ، ووعدوا أن يؤدوا ما عليهم كحجاج صالحين مؤمنين • وسرعان ما انضم « الريس » الى جمعنا ، وبدأ قص القصيص كما هو معتاد • لقد كان الرجل العجوز يعرف اسم كل تل ولديه تفسير لمكل ركن وزاوية يقم عليها اليصر · وقد أسهب بافاضة عن حياة « أبو زليمة » Abu Zulaymah-الثبيخ الحامي لهذه البحار والذي يقع مقامه (قبرره) الصغير غير بعيد من المكان الذي نعسكر فيه ، وأخبرنا كيف أنه يجلس لمحمى البحارة الأتقياء في كهف بين الصخور المجاورة وأنه يشرب قهوته التي تجليها له من مكة المكرمة طيور خضراء ، وهي ـ أي حبوب البن -بحالتها الطبيعية أي غير مقشورة ، وأن الملائكة هي التي تعد له القهوة بايديها المباركة ، بالطريقة المعتادة · وأرانا البقعة التي غرق فيها المفرعدون المصرى وذهب الى « جحيم الماء hell of waters عندما تعقب أطفال بنى اسرائيل ، وحذرنا من أنه في اليوم المتالى سيكرن مسار منفينتنا عبر موجات محطمة وشعاب وصخور وتيارات مائية خطيرة تتحرك فوق اعماق مرعبة لأنه منذ ذلك اليوم الرهيب (الذي أغرق فيه فرعون مصر) لم يتوقف عفريت العاصفة أبدا عن تحريك جناحه الأسود . وتجلى خوف السامعين مما يبرهن على أن رماح كلمات الرجل العجوز كانت حادة • لكن كلما اقترب الليل ، رحنا الواحد تلو الآخر نفرش ابسطتنا واستغرقنا في النوم فوق الرمال وكنا جميعا سعداء لأننا طعمنا وشربنا • ولأن الانسسان حيوان ملىء بالأمل ، فقد كذا متأكدين أن العفريت سيكون غدا رحيما وسيسمح لنا بأن ناكل رطبا في ميناء الطور . Tur

لقد ضاع منا منظر البلح الجميل - الذي كنا نتوقع رؤيته في الطور يسبب الاهمال • ففي الفجر الأغبر لليوم الثامن من يوليو هبطت عليذا صعوبات ، فقد كان الماء عميقا بالقرب من الساحل وكذا قد رسونا عندما كان المد عاليا ولما جاء الجزر انسحب الماء وترك سفينتنا على اليابسة في مكان مرتفع ، وقد اعتزم المغاربة أن يجلدوا « الريس » على قدميه (بالفلكة) - لولا تدخلنا - لأنه كان يجب أن يكون أكثر علما وخبرة • وبعد أن انتهت موجة الغضب وظفوا جهودهم البدنية لانقسان الموقف ، فقام الجميع - ما عدا النسوة والأطفال - بجهود كبيرة فألقى بعضهم بنفسه في الماء ، وراح آخرون يدفعون ، وآخرون استخدموا اكتافهم لتحريك السفينة من جانبها • لقد أجهدوا انفسهم غاية الجهد ، والنسوة والأطفال يشجعونهم وهم جالسون على الشاطى بالصياح والدعاء · ولكن « السلك الذهبي » أبت الحركة ، كما أن جهودهم في تصريكها لم تكن منتظمة ، ولما فشلت جهودهم العضلية قرروا تغيير تكنيكاتهم فبناء على اقتراح مولاهم their Maula اعدوا البخور لاحراقها ارضاء للشيخ « أبو زليمة » ولم يكن البخور متوفرا فاستخدوا البن ، لكن ذلك لم يرض الولى الصالح « أبو زليمة » ، لذلك تذكر «الريس» أن كل جهودهم السابقة لم تكن مجدية لأنهم لم يقرءوا « الفأتحـة » فقرءوها تم شرعوا في العمل من جديد ، لكنهم الخفقوا في تحريك « السلك الذهبي » وأخيرا شرع كل رجل يتوسل بصوت عال « لوليه » أو « شيخه » أو مرشده الروحي ، وراح يدفع « السلك الذهبي » وكانما يقع على عاتقه وحده عبء تحريكها • وراح الشيخ حامد ـ بحمق ـ يتوسل لجده الأعلى مائع السمن (السمان) الا أن « السلك الذهبي » العنيدة أبت الحركة فتراجع حامد مضطربا

لقد كانت الساعة الآن حوالى التاسعة صباحا ، وكان الماء قد ارتفع بشكل ملحوظ ، وقد قضيت صباحى فى مراقبة تدفق المد ، ومراقبة الجهود المشتتة التى بذلها المغاربة لتحريك السفينة ، ولما لاحظت أن السنفينة بدأت تتقلقل من مكانها قليلا نهضت واقفا وسرت نحوها بعظمة وخيلاء وجعلت الحجاج يلتفون حول السفينة ويدفعونها بأكتافهم وأخبرتهم أن يرفعوا بشدة عندما يسمعوننى أتضرع باسم الشيخ الحامى (الوالى) ورفعت يدى وصوتى وصحت : « يا بيران بير Ya piran Pir .. يا عبد القادر الجيلانى (١٥) » • لقد كان كل مغربى يدفع بكل قوته وكأنه أطلس (١٥)

⁽١٤) أصبح معروفا الآن لدى المسلمين المتعلمين ، والمسلمين السنة بشكل عام أن التوسل بغير الله حرام - ويلاحظ أنه كلما انتشر التعليم تراجعت هده الخرافات المناهضة للعقل والدين على سواء - (المترجم) *

⁽١٥) حامل السماوات في الأساطير الاغريقية · معجم الأساطير اليونانية والرومانية تأليف أمين سلامة ... (المترجم) ·

فارتفعت السفینة ثم راحت تنزلق ثقیلة علی الرمال ثم طفت علی سطح الماء • واعتبر هذا بمثابة معجــزة صغیرة لی ، وأصبح الأفندی (بیرتون نفسه) موضع احترام لیوم أو یومین •

كانت الريح تهب رخاء لكن كان لابد أن نركب جميعا وهي عملية تستمر الى وقت الظهيرة • ولما بدأت الابحار عرفت السبب « الطبيعى » لتسمية هذا الموضع بالاسم السيىء « بركة فرعون » فالخليج هنا ضيق ، والرياح - التى تدفع الى أسفل شقوق الجبال الشامخة ووديانها في السواحل الشرقية والغربية - تتقابل مع التيارات المائية المحاكسة dunter-Currents وهمع المدد المرتفع ، فيسبب همذا التصادم هياجا مناخيا دائما • وفي ذلك اليوم غطى زبد البحر فراشي بشكل متكرر فجعله غير مريح وفي المساء أو قبيل حلول المساء بقليل رست سفينتنا تحت حيد صخرى يقع خلفه سهل الطور ، وأثار رسوها قرفنا واشمئزازنا بشكل لا حد لم • وقد روع « الريس » جميع المسافرين من التوغل في بشكل لا حد لم • وقد روع « الريس » جميع المسافرين من التوغل في حكايات مرعبة ، بالاضافة الى أنه لا توجد رمال عند هذا الشماطيء وابحرنا في صباح اليوم التالى مبكرا ، وروعتنا الشعب المرجانية ورمال الساحل ظهرا عند مدخل الطور الخطير والمعقد •

لا شيء أكثر تفاهة من المنظر الحالى لهذه المستعمرة الفينيقية القديمة رغم أن موقعها كميناء ووفرة مؤنها من الفاكهة والماء - يجعلها من بين اهم موانىء البحر الأحمر · والآثار الوحيدة الباقية - باستثناء الآبار _ هي التحصينات التي اقامها البرتغاليون لابعاد خطر البدو . وتقع اليلدة الصغيرة فوق السهل الذي يمتد بارتفاع تدريجي من البحر الي عقدة جبال سيناء الشامخة • وتذكرني المنطقة حولى _ بشدة _ بمنطقة السند البحرية ، فثمة مسطح من طمى ورمل مكسو بطبقة متناثرة من Salsolae وتشير تكويناته الى انه حديث على حد قول سالسول الجيولوجيين • وسكان الطور في الأساس يونانيون ومسيحيون من بلاد الخرى ويتعيشون من بيع الماء والمؤن للسفن • وعندما حل المساء كانت ثمة غمامة ناعمة فوق قمة جبل الطور المهيبة وظهرت الخطوط الخارجية للتلال العملاقة تغطيها صفحة السماء الزرقاء الصافية · وحذرنا «الريس» خبير المناخ أن هذه الظواهر تنبىء بعاصفة فان كانت شديدة فلن يغاسر الطور • ولم اكن آسفا لسماع ذلك ، فقد قضينا يوما بهيجا فشربنا ماء عذبا واكلنا بلحا وعنبا ورمانا حمله السكان الى الساحل لأطعام الحجاج الجوعى وبالاضافة لهذا فقد كانت هناك مناظر مختلفة تستحق أن أراها ،

وقد يكون مفيدا أن نقضى فترة الصباح هنا أيضا · لذا فقد نصبنا خيامنا فوق الرمال وشغلنا أنفسنا بفتح صناديق المؤن ، وتم العمل بهدوء لغياب المغاربة عنا ، فقد كان بعضهم يتجول على الشاطىء وبعضهم الآخر نهب لملء قربهم بالماء · لقد وجدنا أن فظاظة طباعهم لا تطاق حتى عندما كنا نمر من مؤخرة السفينة الى مقدمتها ، كانوا متعبين فى الحل والترحال ، وكانوا يتذمرون ويدمدمون معبرين عن سخطهم .

ولم يكن « الريس » مخطئا في تنبؤاته فالمسحابة الناعمة فوق قمم الطور كانت نذيرا حقيقيا • ولما اشرق صباح اليوم التاسيع من يوليد وجدنا الريح عاتية والبحر هائجا اعتلى سطحه الزبد الأبيض • ولم يفكر غالبنا الا قليلا في هذا الرعب الا أن « ريسنا » الشجاع أقسم أنه لا يجسر على عبور مخرج خليج العقبة المشئوم في هذه العاصفة - حفاظا على حياته • وعلى هذا فقد تناولنا افطارنا ثم خرجنا لزيارة عيون موسى الساخنة فركبنا حميرا هزيلة عليها برادع (جمع بردعة) وليس لأى حمار منها ركاب ولا ذيول (!! كذا بالنص) ، وكنا نحن نعانى - بشكل عام - من البثور التي جعلت منظرنا غير ملائم • وكان طريقنا يتخذ اتجاها شماليا عبر السهل في اتجاه شريط طويل ضيق به نخيل وتحيطه السدوار طينية مهدمة •

وبعد أن ركبنا الحمير زهاء ميلين أو ثلاثة دخلنا منطقة بساتين ووصلنا مياشرة للحمام وكان مبنى صغيرا من طابق وأحد يشبه ما هو موجود في الريف الانجليزي او الأحياء الفقيرة في لندن ، بناه عياس باشا ليستخدمه كاستراحة ، وكان مطليا باللون الأبيض الساطع ومزينا بســـتائر من قماش الكالميكو Calico ذوات الوان متدرجـة رائعة • وكان الحارس قد أحيط علما بزيارتنا فاستعد لمتزويدنا بملابس الاستحمام وغيرها من المضروريات • ودخلنا الحوض واحدا اثر الآخس ، والحوض موجود الآن في الغرفة الداخلية للمبنى • وكان الماء في الحوض بعمق حوالي اربعة اقدام ، دافيء في الشتاء وبارد في الصيف له طعم مالح ومن لكنه مشهور بخواصه المنشطة اذا استعمل في الاستصمام ٠ وعلى أحد جوانب الصخرة الكلسية بالقرب من الأرض يوجد الثقب المفتوح على الينبوع بفعل عصا موسى التي لابد انها كانت كصاري المركب ، وبالقرب من هذا الثقب توجد علامات اظافر موسى (عليه السلام) وهي فجوات عميقة في الصخور ريما كانت بفعل يعض الحيوانات المنقرضة · واخبرنا دليلنا أن أثر اصبع موسى (عليه السلام) كانت حوجودة ايضا فيما مضى ، وانها - أى الأثر - كانت كافية ليتمدد الانسان فيها • حتى التجهيزات الصحية للعيون ارجعوها لبركاد النبي (موسى

عليه السلام) • ولما سالنا لماذا لم يجعل موسى الماء العذب ينبع هنا أخبرنا أن المشرع العظيم great Lawgiver (يقصد موسى عليه السلم) كان يريد أن يستحم الناس هذا لا أن يشربوا • وجلسنا مع الدليل نأكل بلح الطور الصغير الأصفر الذي يذوب في الفم كعسل النحل ، وبعد أن دخنا عددا من الشيش وشربنا فناجين قهوة ، أعطينا لمعامل الحمام بضعة قروش قليلة وركبنا حميرنا متجهين شرقا الى « بير موسى » فوصلناه في غضون نصف ساعة • انه بناء جميل قديم مشيد حول البئر ، ولمه قبهة تعلوه من أحجار مربعة غير صقيلة ، ويشبه كثيرا ما قد نراه في بعض النحاء الريف جنوب انجلترا ، وكانت جوانب الحفرة فظة ومشققة بحيث يمكن للانسان الدخول فيها ، اما في القاع فيوجد الماء عذبا وغزيرا ٠ ونوينا المكوث هنا وتامل التصوير الجصى على الجدران والسقف ، لمكن وجوه رفاقنا المغاربة المكفهرة واجهتنا عند المدخال فقتلت مشروعنا في مهده • فاتجهنا الى مقهى مجاورة لنحتمى من الشمس المحرقة ، وكانت المقهى عيارة عن ظلة من جريد النخيل لرجل من الطور فجلسنا على الحصير والتهمنا كل ما في سلالنا من طعام وأثناء تناولنا الطعام قدم بعض البدو وانضموا الينا عندما دعوناهم ١ لقد كان هؤلاء البدو يرتدون اسمالا بالية وكانوا مسلحين بالسكاكين والسيوف الضالعة (١٦) الرخيصة علقوها في حزام كتف جلدي عريض • وتبدو في لهجتهم وتصرفهم بقايا من ضراوتهم القديمة • وكان هؤلاء البدو منذ أيام محمد على يعملون في مجال البحث عن السفن الغارقة لنهبها أو انقاذها ، أما قبل ذلك فكانوا قراصنة من الطراز الأول ، أما الآن فهم أسدود بأنيابهم ومخالبهم المسحوبة • وفي المساء عدنا لخيمتنا فأتى الينا أحد السوريين من مجموعتنا في مؤخرة السفينة ليخبرنا بمعلومات مفادها أن عدة سفن كبيرات قد وصلت من السويس يقال انها فارغة نسبيا . وان قبطان (ريس) احداها يمكن أن ينزلنا في ينبع لقاء ثلاثة دولارات للشخص الواحد • لقد كان العرض مغريا • لكن سرعان ما ظهر أن رفاقي غير راغبين في نقل صناديقهم النفيسة ، وأكثر من هذا فقد اضطر للدفع الأولئك الذين لا يرغبون أو لا يريدون الدفع عن أنفسهم مما يعرض ميزانيتي للاختلال ، لذا فقد رفضت الفكرة متحسرا • وكان بين السفن الكبيرة ثمة شخص يتعارك مع حجاج فرس ـ والحجـاج الفرس هـم اكثر العناصي غير المقبولة يمكن اصطحابهم في رحلة ، لقد رفضوا النزول من السفينة في البداية لمفوفهم من البدو ولم يأخذوا ماء من أهل

⁽١٦) السيف الضالع هو سيف وحيد الحد معقوف قليلا - عن معجم المورد - (المترجم)

الطور لأن عددا من سكانها مسيحيون ، وأكثر من هذا فقد أصروا على القامة الأذان للصلاة لأنفسهم ولم يعتمدوا اذان الآخرين • واذان هـ ولاء الفرس يحوى خمس كلمات تزيد عن آذان أهل السنة الذين يفضلون الموت على السماح بها (أى بهذه الكلمات) ، وعندما شرع رجل ذابل الوجه منهم في الأذان ، ونطق بهذه الكلمات :

« in quel tenore

Che fa Cappon quando talvolta Canéa »

فاستقبانا قوله بصيحات ساخرة ، ونزع بعضنا اسلحته ليقدم له المؤنن) فرصة الاستشهاد ولما سمع المغاربة نلك تجمعوا ساخطين للقيام بعملية «جهاد» صغيرة ضد هؤلاء الفرس «الرفضة» ::Rafax وتعنى الزنادقة واتخذ الفرس ذوو اللحى الطويلة حذرهم والحد كانوا ضعف عدد مجموعتنا لذا فقد راحوا يختالون حولنا لا مبالين وراحوا يحملقون فينا ويحطون من قدر انفسهم بطريقة غير محتشمة ، لكنهم عندما ادركوا اقتراب لحظة المواجهة رفعوا الراية البيضاء والمد صاحبنا هؤلاء الفرس الى نهاية الرحلة ولما اقتربنا من الأرض المقدسة تسبب منظر نبابيتنا في تغيير سلوكهم لما هو افضل وفي مهر Mahar تلقوا الاهانات المختلفة بخذوع ، وفي ينبع تذللوا لنا كالكلاب و

⁽۱۷) يضيف بعض الفرس عبارة « خان الأمين الرسالة » أى أن جبريل عليه السلام نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، خطأ ، وكان المفروض أن ينزل على على (رضى الله عنه) ، وهو قول قاحش ، (المترجم) .

القصل الحادى عشر

الى ينبيع

مغادرة الطور _ وصف الطبيعة _ حالة الملل _ حزب البحر _ الاحترام في الشرق يقوم على الخوف _ عبور العقبة _ مرسى دمغة _ جهينة وهتيم _ ميناء الوجه _ مقام الشيخ حسن المرابط _ الشعب المرجانية · جزيرة حسانى _ قبيلة هتيم _ جيل رضوى ·

غادرنا الطور فى الحادى عشر من شهر يولية سنة ١٨٥٣ ، فى الفجر تقريبا ، بعد أن قضينا فترة استراحة مبهجة ، وأن كان القلق قد اعترانا ـ يقينا ـ لمعرفتنا أننا أن نلامس الأرض طوال ست وثلاثين ساعة • لقد قضيت وقتى فى تأمل نسيج مظلتى وفى رصد الأحوال الجوية كالتالى :

صياحا: الهواء معتدل ومنعش ، كهواء الربيع في ايطاليا والضباب الكثيف ينتشر في الوديان على طول ساحل البحر ، والسديم (الضباب الرقيق) يتوج الألسنة المعتدة في البحر كانه عرق اللؤلؤ ، أما الصخور المتباعدة فتبدو كاسوار هائلة وبروج محصنة نوات شموخ ، كما تبدو الخنادق حول هذه الأسوار ملأي بالظلال العميقة ، ويجرى بحر ارجواني أو بنفسجي عند سفوح هذه الأسوار وتلك الصخور ، وعندما تستقبل الأرض أول خيوط الضوء ، فان قممها غالبا ما تكون واضحة وهي مختلطة (ممتزجة) بقبة السماء ، لا شيء يمكن أن يكون أجمل من هذه السماعة ولا أبهى لكن هذا الصباح رائع الجمال سرعان ما ولي ، فالشمس حالك العدو القاسي حابزغ مطلة من ناحية البر ، وسرعان ما ستجبر كلا منا على الانحناء أمام قسوتها ، لقد صبغ هذا العدو (الشمس) كلا منا على الانحناء أمام قسوتها ، القدمزي) فقد أصبح سطحه الهائي السماء باللون البرتقالي ، أما البحر (القرمزي) فقد أصبح سطحه الهائي مشربا باشعة هذا العدو (الشمس) الذي بدد عنه حبقسوة حالضباب والسديم وكتل السحاب التي اعتراها على نحو ما لون العقيق ، والتي كانت تسبح في قبة السماء الزرقاء ، لقد كان الجو صافيا جدا حتى ان

الكواكب تبدو واضحة مرئية بين الحين والآخر وبالنسبة للساعتين التاليتين للشروق ، فان الأشعة يمكن احتمالها ، أما بعد ذلك فقد صارت محنة قاسية وأشعة الصباح تشعرك بالحزن وتجلب لك الشعور بالمرض فتعكس المياه المغاضبة توهجها المضطرد الذي يعمى عيونك وتحرق جلدك وتجفف حلقك ولقد أصبحت الآن تعانى من سيطرة فكرة واحدة عليك لا تستطيع منها فكاكا وفائت لا تفعل شيئا سعوى أن تحسب الساعات البطيئة التي يجب أن تدون انطباعك عنها ، قبل أن تحس بالمراحة بعد تخلصك منها والمناهدة المناهدة المناه

ظهرا: والريح - وقد عكستها التلال الملتهبة - تغدو كالهبات الحارة المنبعثة من أفران من الجير (الكلسى) • وتتلاشى كل الألوان وتختلط ، فالسماء ذات لون فاقد الحياة ، فقد اتخذت لونا أبيض كبياض الحليب ، والبحر كسطح المرآة يعكس لون السماء الباهت فلا تكاد تتبين خط الأفق ، وبعد الظهر تنام الرياح على الساحل الذي أصابه بخر الماء بالوخم ، فتحس بخمول عميق ، فالصوت الرحيد الذي تسمعه خفقات الشراع الكئيبة ، ولا ينام الركاب كثيرا ، وانما يسترخون فاقدين نصف احساسهم فهم يشعرون أنهم قد يلقون حتوفهم اذا زادت الحرارة عن ذلك بدرجات فلها قد

وقت الغروب: ويغوص العدو(۱) خلف البحر اللازوردى العميق ،تحت ظلة من قوس قرح هائل يغطى نصف وجه السماء • وثمة قوس برتقالى تعتريه صفرة مسمرة اقرب ما يكون الى الأفق يكمن فوقه قوس آخر ذهبى باهت ، وفوقها نصف دائرة زرقة واهنة تعتريها خضرة ، امتزجت بما لاحصر له من الوان على نحو متدرج ، كل ذلك في سماء زرقاء لازوردية مستها خضرة رقيقة • وتلقى الشمس باشعتها لتنفذ في قوس قزح على شكل غجلة عملاقة عليها مسحة من لون أحمر قرنفلي جميل • والسماء من جهة الشرق قد اعترتها حمرة ارجوانية متوردة تحاكى اشكال الصحاري الغامضة والتلال واضحة المعالم • ان اللغة تبدو بليدة باردة، وبائسة عاجزة فهي لا تسعف في التعبير عن هذه السيمفونية وتلك العظمة التي تتجلى في هذه السياعة سريعة الزوال مع ان فرط الشوق لها والتدله فيها يجعل المرء يتمنى بقاءها دوما • وهبط الليل سريعا فظهر فجاة الضوء فيها يجعل المرء يتمنى بقاءها دوما • وهبط الليل سريعا فظهر فجاة الضوء التلال

⁽١) يقصد الشعس _ (المترجم) •

⁽Y) الضوء البروجي Zodiacal Light وهج يظهر في السفاء جهة الغرب بعد غروب الشعسى ال جهة الشرق قبل شروقها .. (المترجم) .

الرهادية والصخور الكالحة ، وردية أو ذهبية ، وتصبح النخيل خضرا ، وتصبح الرمال زعفرانية (برتقالية) ويلبس البحر رداء ليليلكيا الماد (نسبة الى زهرة الليلك العطرة ذات اللون الأرجواني الفاتج) من أمواج متغايرة (يغمز بعضها بعضا) ٠٠ لكن بعد حوالي ربع الساعة عاد المخمول ليلف كل شيء فترى الجروف (جمع جرف) عارية شاحبة في ضوء القمر الذي يغمر هذه البراري المقفرة بصخورها وقممها ـ فيدهو المنظر غريبا مفعما بالغموض ٠

الليل: الأفق مظلم تماما ، ويعكس البحر محيا شمس الليل كما لو كان مرآة من الصلب المصقول · ونرى فى الجو ، اعمدة عملاقة من انوار شاحبة تتخذ من الأمواج نيلية اللون قاعدة لها ، بينما تضيع تيجانها فى الفضاء اللانهائى · وتتلألأ النجوم متألقة تألقا لا يحده حد ، ففى هدنه الساعة :

« river & hill & wood « يكون النهر والتل والغابة « with at the numberless going on مع ما لا حصر له من أشكال الحياة of life « inaudible as dreams هي حالة هدوء هامس كأنها حلم

بينما تطل عليك النجوم بوجوه اصدقاء باسمة ، فتشعر « بالتأثير المحلو لبنات اطلس السبع اللائي حولن الى نجوم » (٣) فتجد نفسك مشدودا لرباط الجوزاء » « bond of Orion» والزهرة (نجمة المساء) تصغى الى الجوزاء باناة وتبثها آلاف الأشياء (المعانى) • وبتأمل الجوزاء والزهرة تمضى ساعاتك سريعة هينة حتى يأتى الندى الكثيف محذرا اياك لتغطى وجهك ، وتستغرق في النوم • وبنظرة واحدة المنجمة صغيرة بعينها ناحية الشمال يقع تحتها كل ما يجعل الحياة جديرة يأن تحياها المخلوقات ـ فمن المؤكد أنه خوف لا عقلانى (خرافى) يمكن تجاوزه اذا نمت وعيناك موجهة صوب القبلة (الكعبة) - لقد سقطت في السهو! (وقعت في خطأ غير مقصود!) •

ان هذه الساعات الثلاثين والست ، كانت عقابا (أو محنة) حتى بالنسبة للبدو ذوى الرءوس العنيدة ، فقد سقط السورى وصديقاه مرضى وكان لدى عمر أفندى ـ وهذا حقيقى ـ الشجاعة الكافية لأداء صدلاة المغرب وان كان الانهاك قد بلغ به كل مبلغ فبدا رجلا آخر غير السدى

⁽٣) أسطورة اغريقية ·

[&]quot;The Sweet influence of The Pleiades".

⁽ المترجم)

عرفناه · أما صالح شكار Shakkar فراح يأكل التمر بنهم يائس حتى هدده الزحار (مرض الدوسنتاريا) وقد أعد سسعيد العملاق لنفسه سريرا نقالا يبلغ ثلاثة أقدام طولا، وجعل فوقه بوصا مقوسا عليه عباءة فضفاضة من الجانب المثقل ، ولكن الصرير العالى المنبعث من عشمه برهن على أن احتياطاته لم تكن كافية • وحتى الولد محمد نسى أن يثرثر ، كما نسى سلاطة لسانه ، ونسى أن يدخن ، ونسى بشكل عام أن يجعل من نفسه شخصا لا يطاق • وقد بدا الطفل التركي وكأنه يحتضر ، فلم تـكن لديه الطاقة الكافية للبكاء ، كيف استطاعت الأم البائسة أن تواجه محنتها برباطة جأش! لقد كان هذا موضع عجب من الجميع · وكان أكثر ما يدعو للراحة هو تضامن رفاقي معها وعطفهم عليها واهتمامهم بأطفالها • فكلما سحب واحد من الجماعة قليلا من طعام شهى ، كقليل من تمر أو رمانة - جعلوا للأطفال نصيبا منه ، كما كان كل واحد من الجماعة يأخذ دوره في تمريض الطفل • لقد كان هذا رقة حقيقية غير زائفة ـ انه طيبة في القلب • وقد يكون من المفيد لأولئك الذين يتهمون الشرقيين بانعــدام الكياسمة ، أن يقارنوا هذه السمة من سمات الشخصية بالمناظر الوحشية للحضارة التي نجدها بين قاطني البر في القاهرة والسويس • وليس في وسمع اي أجنبي يكون حاضرا هذه المشاهد ، دون أن يحمل انطباعا أبديا بأن أهل الجزر البريطانية ليسوا الا برابرة محدثين • وكان صالح شكار هو الوحيد على ظهر السفينة (السلك الذهبي) الذي يعد استثناء من القاعدة العامة المتمثلة في كزم رفاقي ولطفهم •

فحالما تبدأ الشمس في الاتجاه صوب الغرب مسقطة اذاها على رؤوسنا ، فاننا نقوم ـ ومازلنا منهكين ، مصابين بالدوار ، عطاشا نطلب الماء ، فلم تكن لدينا القوة ـ قبل ذلك ـ لنتمكن من الشرب ، أو التدخين ، وتناول القهوة وما شابههما من الترف، ومطبخنا البدائي عبارة عنصندوق خشبي مربع محفوف بالطين ، ومملوء بالرمال ، وقد وضعت فوقه ثلاث اثافي ضضام أو أربعـة ، لتكون مصطلحا (موقدا أو كانونا) . فالاستعدادات تجرى الآن لاعداد وجبة العشاء بأنسط صورها ، فقليل من الأرز ، وقليل من التمر أو بصلة ستحفظ للانسان حياته في وضعنا هذا ، فوجبة عشاء واحدة جيدة قد تبرر البقاء دون طعام حتى مساء اليوم التـالى ،

وأكثر من هذا ، فمن المستحيل في مثل هذه الحالات أن يكون لديك شهية حوذلك من حسن الحظ ، فمخزوننا من التموين خعئيل ويعتبر العرب أن من المفضل تناول وجبة ساخنة مرة كل اربع وعشرين ساعة خلال الرحلة ، لذا فقد قررنا أن نطبخ رغم كل الصعاب وعلى أية حال قان

عملية الطبخ كانت مرضية تماما فقد تحلق حول النار عشرون شخصا اختيروا لذلك ، وكان من المتوقع أن يتعاركوا كل خمس دقائق •

وحالما برد النسيم بفعل الندى ، تيداً وجوهنا الجافة المرهقة فى التمتع بالهواء، فتستعيد الرواحنا بهجتها ، فيغنى الرفاق أغانيهم، ويحكون حكاياتهم ، ويتقاذفون بالدعابات الثقيلة ، فالحس الشرقى مرتبط بها على محوم موجع وان كان هذا ليس دائما ، أو عندما نرى منظر عاصفة أو سكون ، فاننا ننسحب ونلجأ لنتابع بتقوى « حزب البحر البحر Hizb al-Bahr » ومن المقترض أن هذا الحزب « أو الورد » يجلب الأمان للجميع على أمواج البحر أو المحيط ، ولن تعمينى الأنانية فتجعلنى اخس بهذا « الحرب » على القارىء الانجليزى ، ولكى يحظى المرء بكل بركاته ومزاياه ، لابد أن يتلقاه على يد مرشده أو قائده الروحى ، وأن يتلوه فى فترة الصيام التى تستمر اربعين يوما والتى تعرف بالشيلة

the Chillah ، ولا يقدر على هذا الصوم سوى ابناء الثيران (الأشخاص الأقوياء جدا) ، وهذه على هذا الصوم سوى ابناء الثيران (الأشخاص الأقوياء جدا) ، وهذه اللاحظة مجازفة منى ،

« يا الله ، يا قوى ، يا قادر ، يا جبار · انت الهى ، ويكفينى معرفتى بك · تباركت ربنا وتعالميت فانت تنصر من ينصرك وانت الرحمن الرحيم · ندعوك ان تهينا الأمان فى ترحالنا وحلنا ، وتوفقنا فى كلامنا واعمالنا (وغاياتنا) ، وتقينا شر الغواية والشك ، وتصلح سرائرنا ، زلل لنا هذا البحر ، كما زللته لموسى ، وكما زللت النار لابراهيم والنت الحديد لداود ، وسخرت الريح والشياطين والجن والانس لسليمان ، وشققت القمر ، ويسرت البراق لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فزلل لنا كل البحار نى الأرض والسماء فى عوالمك المرئية والخفية ـ بحر هذه الحياة ، وخضم الآخرة · يا من تملك كل شيء ، واليه يعود كل شيء · خياس kyyas الآخرة · يا من تملك كل شيء ، واليه يعود كل شيء · خياس وتدثرنا بالحفة (جمع لحاف) غليظة محشوة قطنا ، ونسينا متاعب اليوم وتدثرنا بالحفة (جمع لحاف) غليظة محشوة قطنا ، ونسينا متاعب اليوم الماضى ، وتهيأنا لاستقبال اليوم الآتى ·

وفى ساعة متأخرة من مساء الحادى عشر من يوليو مررنا على مراى من مضيق العقبة الذى يعد اجتيازه مسائلة مرعبة للبحارة فى هذه العروض • فكما فى خليج كمبى (٤) ، نجد العواصف تتجمع

⁽٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الخليخ وعواصفه ، راجع رحلة فارتيما (الحاج يونس المصرى) ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠ الهيئة العامة للكتاب ـ الااف كتاب الثانى ــ رقم ١٢٦ ٠

هنا دائما كما يقال ، حيث يرفع الناس ايديهم بالدعاء اثناء عبورها ولم تهب علينا عواصف هذا النهار من الخارج ، الا عاصفة واحدة كانت على وشك أن تقلب سفينتنا ، ان طبيعة النظام الشرقي تقوم على أساس الخوف الذي يشكل اساسا للاحترام الشخصي (الاحترام الشخصي قي النظم الشرقية يقوم في الأساس على الخوف) وعلى هذا فغالبا ما يحدث أن تكسر أوامر الضابط المسئول (الموظف المسئول) اذا كان رجلا طيبا كبير السن ، وبذا يصبح امتيازه الوحيد هو أن يجلس بمعزل. عمن هم أدنى منه رتبة ،

وكان ريس سفينتنا من هذا النوع · في المناسبة الحالية التي المعمها بالسخط والغضب رفض المغاربة الابتعاد عن طريق مسئول توجيه دفة السفينة؛ لأن ذلك يحرمهم من القاء نظرة على الساحل طوال اليوم، وقد هدد المسئول احد افراد هذه الجماعة يخفه (شبشبه) · وقد احتاج تهدئة الأمر ، واستيعاب الحادث الى جهدنا جميعا بما في ذلك استعراض. نبابيتنا المرعبة · وبعد عبور العقبة لم نر شيئا خلا البحر والسماء ، لقد كانت وجوه الركاب جميعا ـ تقريبا ـ شاحبة عند غروب الشمس في الثاني عشر من شهر يوليو عندما انحدرت سفينتنا فجاة في مياه خيطة ·

فقد كسان مرسى دمغة Damghah أو دميغة المعربة فقمة جزيرة (جزيرة حوف الأكثر صحة لا يرى من البحر الا بصعوبة فقمة جزيرة (جزيرة صعفيرة جدا) من الحجر الجيرى تعوق الدخول ولا تسمح بالوصول الى المرسى الا من خلال ممر ضيق ولم يكتشف البحار امتداد هذا الخليج الصغير ولا عمقه الا بعد الدخول فيه وكان هذا الخليج يمتد بشكل منبعج في البر، ويتيح مسافة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ قدما لمتكون مرسى جيدة واضحة لا تسمح بوصول الأمواج الطويلة اليه ويبدو من الداخل اقرب ما يكون الى البحيرة وفي الليل يبدو لونه ازرق رائعا كبحيرة جنيف ذاتها وبعد العشاء ولم استطع أن اتذكر هذه الأبيات الشعرية التي درسيناها في المدرسية:

« Est in Secesseu longo locus ; insula portum, Efficit objectu laterum, quibus Omnis ab alto

Frangitur, inqure sinus scihdit sese unda reducts ».

لم يكن ينقصنا شيء سوى « atrum nnemus » (١) • وعلى إية حال ، فأين سنجد مثل هذه الرفاهية في شبه جزيرة العرب القاحلة ؟ فالريس - كالمعادة - حاول أن يحول بيننا وبين النزول للبر بأن قص علينا قصصا خيالية عن البدو و Ascopards » مشبها اياهم بأنهم

a folke ryghte felonouse and foule and of Cursed kynde ».

وقد أجبنا على تهديداته هذه بأن حملنا نبابيتنا فوق أكتافنا وتزاحمنا في مركب صغيرة ذات مجاديف وعلى الساحل رأينا عددا قليلا المضلوقات البائسة من جهينة Juhaynah أو هتيم Hutaym وقد جلسوا على عكوام من أخشاب جافة يبيعونها للمساهرين ، تكما وجدنا حجاجا سوريين سبقونا في قوارب ثلاثة ، لقد كنا نغار منهم – وكان ذلك غالما بسبب قواربهم السريعة الرشيقة الصغيرة ، نوات الأشرعة المزدوجة على شكل أننى الأرنب البرى التي تبدو على البعد – عندما يحل السماء حكميور النورس البيضاء سابحة فوق موج أرجواني ، كما برروا غيرتنا منهم لوصولهم الى ينبع Yambu قبوة ما بعد العشماء ، وقد قابلونا على الساحل وانشغلوا في احتساء قهوة ما بعد العشماء ، وقد قابلونا مؤدين كل حقوق الضيافة ، فجلسنا ساعة معهم ، وأكلنا قليلا من الفاكهة وروينا ظمأنا ، ودخنا من شيشهم ويونا لهم بالبركة عند معادرتنا اياهم ، ولما عدنا لسفينتنا أكلنا ولم نضع وقتنا في النوم ،

لقد شهد فجر اليوم التالى اشرعتنا تخفق خفقا كسولا · ودخلنا الوجه البوجه البوجه النال » في فترة ما قبل الظهر ، ولم يخل الأمر من صعوبات ولا تبعد (الوجه) عن دميغة Dumayghah الا بأميال قليلة · «والوجه» مرسى طبيعية أيضا ، ولا تختلف عن المرسى التي قضينا الليل فيها سدوى انها اصغر منها وأكثر ضحالة وأقل أمنا ، والطريق آمن من الوجه الى القاهرة · والوجه مجموعة من الأكواخ المستديرة المشيدة بشكل بائس من أحجار مستديرة - تجمعت فوق صخرة مرتفعة في الجانب الشدمالي من غليجها الصغير · وتبعد حوالي ستة أميال عن القلعة الداخلية التي تحمل الاسم نفسه (قلعة الوجه) والتي تستقبل القافلة المصرية ، والتي تردهر - أي القلعة - مثلها في ذلك مثل الميناء (ميناء الوجه) بسبب بيع الماء والمؤن للحجاج · فالسوق الصغيرة التي تعمد في مثل هدنه بيع الماء والمؤن للحجاج · فالسوق الصغيرة التي تعمد في مثل هدنه باسعار معقولة · كما توجه بها أيضا مواد الرفاهية فقد باعني عطهار باسعار معقولة · كما توجه بها أيضا مواد الرفاهية فقد باعني عطهار

⁽١) لم استطع فهم المعنى القصود - (المترجم) .

ولقد رسونا في (الوجه) بأن سحبنا بحبل ملفوف على بكرة دوارة ، ووجدنا مقهى كبيرة في موقعمرتفع بالقرب من الساحل ، فجلسنا فيها ٠ لكن الفرس الذين سبقونا اليها ، كانوا قد شعفاوا الأماكن الظليلة خارجها وراحوا ينظفون اسنانهم بسكاكينهم ، فكنا مضطرين للمكوث داخل المقهى ٠ لقد كانت بناء خشنا يخلو من اللمسات الفنية ، ولا يزيد عن كونه ساقفا قائما على أعمدة من جذوع النخل لم يحسىن تهذيبها ، فوق أرض متربة يحيط بها مصاطب غير مستوية من طوب لبن ، تشكل ديوان القهى حيث الحصر والأبسطة التي ينام عليها الرواد • وتوجد في الموسط مصطبة مربعة ضخمة تستخدم لأغراض مشابهة · ويظهر هنا وهناك شدةوق في طول الجدران وعرضها ، ويبدو أن هذه الشقوق الزائدة عن الحد قد تركت لتسمح لضوء النهار بالدخول من خلال هذه الفرج الواسعة • وفي احد الأركان توجد عدة القهوجي على (نصبة) مرتفعة من الطين تضم حفرة لايقاد الفحم ، فوقها ثلاث دلات (جمع دلمة) سميئة الطلاء ، لعمل القهوة ٠ وقد صفت الشيش (جمع شيشة) بالمقرب من (النصبة) وهي شيش غير نظيفة بالمرة وقد اعتراها البلي بفعل القدم وكثرة الاستخدام · وثمة مجموعة من القلل (جمع قلة) ملأى بالمياه الباردة العذبة قد وضعت (ثبتت) في خروم (ثقوب) دائرية في قطعة خشب ، ويبلغ سعر القلة في الحجاز عادة خمس بارات • وكان ذاك هو اثاث المقهى ، فلم يكن هناك ما يبعث على الارتياح في مثل هذا الجو من القحالة والعقسم سوى جسو الاستمتاع الرخيم واللذيذ للدخان (المتصاعد من الشيش) والبخار (المتصاعد من نصبة القهوجي) والذباب والبعوض الصغير بنسب متساوية تقريبا • لقد اسبهيت في وصفى للمقهى لأنها نموذج لأمثالها يقابلها المسافر من الاسكندرية الى عدن •

ان سعادتنا بهذا الفردوس ـ وهو كذلك فعلا بالنسبة لنا بعد المعاناة التى قضيناها فى سفينتنا (السلك الذهبى) ـ كادت تنتهى بسبب سعد العملاق ، فطبعه الحاد ادى به للدخول فى معــركة مع صحاحب المقهى الذى كان بشع المنظر احول العين ، غبيا ، عريض الكتفين لم يبد اطلاقا أية رغبة فى الالتقاء مع خصمه سعيد العملاق فى منتصف الطريق وبعد أن تقانفا بالشتائم ، اطبــق كل منهما على رقبــة الآخـر بقسوة ليعطيا فرصة لملآخرين الذين لديهم الوقت والشــجاعة للتدخل ، الا ان الأصدقاء والمعارف عندما امسكوا بالمتصارعين بشدة لم يستطيعوا تحريك قبضة أحدهما أو ذراعه ، بل لقد ادى ذلك الى زيادة حذق المتصارعين كما هى العادة ـ حتى لقد وصل لدرجة مرعبة يصعب على العين احتماله ، كما هى العادة ـ حتى لقد وصل لدرجة مرعبة يصعب على العين احتماله .

(هراوته) في يده ، وخلال المعركة التي حمى وطيسها ، انطلقت رصاصة من المسدس الذي كان عمر أفندى يحمله في يده ، ومر المقنوف بالقرب القريب من صفائح تحوى بنا مخاويا (٥) اسود داكنا ، مما لفت انتباه كل مدرساء ، فهدات المعركة والما كان ذلك بفعل عصا سحريه و وأقسم أحد اصدقاء سعيد العملاق أنه لم يكن عبدا أسود وانما جندى في المدينة المفورة ، وأنه ليس نادلا (جرسونا أو خادما) ، وانما فارس همام وقد جعل هذا القول سعيد العملاق ينظر من عل باعتباره رجلا مهما ، ويس على كرم محتده باصراره على أن يتناول من كان عدوه الطعام معه ، ولما تردد غريمه بوقار ، سحبه الآخرون لتناول الغداء وسط صخب عال ٠

لقد خضع اسمى المستعار في هذا الدوم الختبار قاس ، فبالاضافة للحجاج الفرس وهم مجموعة من الأشخاص ذوى الطباع الغريبة التي يصعب وصفها ، والذين قدموا في السفينة ذاتها ، وكاذوا متجمعين حول المقهى ، مستلقين يدخنون ويشربون الماء وينظفون أسنانهم ويسلكونها بذناجرهم ، كان ثمة رجل فضولى كان دائما الى جوارى • وكان يدعى انه من الباتان (الأفغان المستقرين في الهند) وكان يستطيع الحديث بخمس لخات او ست ، ويعرف عددا من الناس في كل مكان وقد سافر في منطقة وسط أسيا طولا وعرضا • فهؤلاء الرفاق يعتبرون دائما مكتشيفين للأسيماء المستعارة أو للشخصيات الحقيقية للمسافرين (الرحالة) • لقد تجنبت الاجابة عن استئلته عن موطنى ، وباعتبارى درويشا فقــد طلبت منه ـ عندما اصر على معرفة موطنى ـ أن يخمن هو • فأعلن انذى اخ لمه من الباتان - وكان ذلك باعثا لسعادتي ، وأثناء الحوار ذكر أنه ابن لأخ تاجر افغاني عجوز ونبيل كان لطيفا معى عندما كنت في القاهرة ٠ ويعد ذلك جلسنا ندخن معا باللفة ، ولأن العلاقة بيننا أصبحت شخصية ، فقد شكا لى أنه كسنى فقد تعرض لعاملة سيئة من رفاقه الحجاج الفرس الشيعة (الهراطقة) الذين ضربوه · وكان من الطبيعي أن أعرض عليه أن أسلح جماعتي وأن نحمل نبابيتنا لأثار لابن بلدي (بلدياتي) • فهـــده الطريقة السليمانية الأكيدة التي عرضتها تجعله يتأكد أنني فعلا ابن بلده (بلدياته) • وعلى أية حال فقد تراجع وتذكر بحكمة أنه لن يكون مجبرا على صحبة جماعة الفرس اكثر من اسبوعين تقريبا • لكنه منى نفسه باشباع رغبته ، بأن يغرس خنجره الأفغاني المرعب (الشاراى) في من اعتدى عليه بمجرد وصوله الى مكة (المكرمة) ٠

وفى الساعة الثامنة صباح الرابع عشر من شهر يوليو غادرنا مرسى (الوجه) بعد أن قضينا الليل في راحة نسبية في المقهى • وأخذنا

⁽٥) من المخا باليمن - (المترجم) .

معنا المؤن المضرورية رغم أن الريس وعدنا بالمرسو عند جبل حسانى في هذا المساء ، الا أن أحدا لم يصدقه · لقد أبحرنا بين Hassani سلاسل صخرية تحت الماء ورمال ذهبية وأعشاب مائية خضراء ، وهي يعض المواضع كذا نبحر خلال خطوط صدفر لما بدا لمي على البعد بحرا بعد عاصفة · وطوال النهار كان البحار يجلس أعلى الدقل (الصارى) ينظر للماء الذي غدا شفافا كالمزجاج الأزرق ، ويعلن عن الاتجاه الصحيح يصوت عال ١ الا أن هذا الاحتياط كان غير مجد على نحو ما بسبب الأصوات العالية للحجاج وكاثها زئير والتي كانت تشوشر عملي نداءات التحذير ، الا أننا كنا نرفع العلم كل نصف ساعة ، ولم تجنح سفينتنا أو ترتطم بالصخر ٠ وفي منتصف النهار تقريبا مررنا بمقام الشيخ حسن المرابط • وهو مبنى عليه القبة المالموفة ، ومطلى باللون الأبيض ، ويحيط يه أكواخ يقيم بها حراس المقام ، ويقع المقام (القبر) على جازيرة منخفضة مسطحة تتكون من صندور صفراء وقد ذكرني هذا المنظر بمناظر شبيهة رايتها في بلاد السند · لقد لفت موقعه الموحش انتباه المسافرين العابرين • ولمهذا الشيخ المرابط دعاء خاص يقرؤه المسافرون بالاضافة الى الفاتحة على روحه ، ويتبع الخطاه الذين هم على قيد الحياة طريقته في التعبد المبنية على الاحياء الديني (أو التعبد غير التقليدي المعتمد على religious refreshment السيمو الروحي ــ

ولما قرب ميعاد غروب الشمس وهبت النسائم منعشة رسونا نحن والمجاج الايرانيون عند صخرة تعد احدى الشعاب المرجانية المشهورة في البحر الأحمر ، ويؤكد هذا المنظر صدق الوصف الرائع الذي قدمه فورسكال (forskal) ، باعتباره هذه الصخرة احدى فلتات الطبيعة الرائعة · Luxus lususque naturae · لقد كانت هذه الصخرة رصيفا هائلا لا يرتفع الا قليلا فوق مستوى العمق ، وكان جانب الماء عموديا كحدران القلعة ، وبينما السفينة الشراعية تطفو على بعد ياردة منه تجد كل موجة تتحطم فوق هذا الحيد البحرى (الصخرة أو الشعب) ، تعيد ملء الاحواض الصغيرة والتجاويف الموجودة على السلطيح • وكان لون الأمواج بالقرب منه بنفسجيا أو ارجوانيا مفعما بالحدوية · وعلى البعد، ترتاح عين الرائى فوق ما يبدو مروجا لمزهور رائعة تماثل زهور البرية ، وان كانت تبدو اكثر اشراقا واعمق فتنة وبهاء ٠ وما كانت هذه الأرض البحرية معزولة تماما ، فالنوارس (جمع نورس) وطيور الخرشنة تسبح منا وتحط على الشعاب المرجانية وتلتهم فرائسها . وفي الجو ، نجد أسراب المطيور تتنافر محدثة صخبا هائلا ، في اصطياد الجراد ، وتطارد في المياه العميقة أفواج الأسماك التي راحت تسرع برعب هائل للهروب من هذه المطاردة مما أدى الى حجب سطح البحر بالرذاذ والزبد وكلمسا اقترب الليل ، تغير المنظر رويدا رويدا ، وبدت للعيان فنون أخرى من الجمال فقد ارتدت خلفية المنظر ثوبا من ظلال ، وعتمة موحية ، مطلقة العنان للخيال وفى الجانب الأمامي لهذه الصورة يقبع البحر متلألئا ببريق معدني تحت ضوء القمر ، بينما حواف الصورة تتمثل في مويجات ببريق معدني أمواج) تتحطم على الشعاب (الحيود) كانت تلمع بفعل ما يسميه العرب جواهر الأعماق وهي ومضات الامعة من ضوء فوسفوري يقدم لذا فكرة عن البهاء والسناء ، قد يعجز الفن عن تقليدها فهذه الصورة تشكل في وقت واحد وطعانة من أرض الجن ، ومسرحا للحوريات والمهة البحر تلهو جميعا عليها ، فقد تكون قد سمعت دون لمشمة عن بروتيس القديم المورية على المدوريات والمهة البحر عليها عليها ، فقد تكون قد سمعت دون مصارته المجدولة ، وافروديت جالسة في قوقعتها (خدرها) في أوج محارته المجدولة ، وافروديت جالسة في قوقعتها (خدرها) في أوج

« لكل بياض خلفية سوداء ولكل حلو حموضته » (٦) ·

كما دات على ذلك الملاحظة الفلسفية التى آبداها السير كولين Cauline ، فهذه الشعاب المرجانية الرائعة كادت تكون مسرحا لحادثة بشعة ، فالنسائم الباردة الآتية من البحر تدفعنا دفعا رفيقا للخيشكل مستمر للصوب الشعب المرجانية (الحيود البحرية) وهي حقيقة سرعان ما أصبحنا على وعي بها ، ولم يكن لمدينا حبل يبلغ طوله طولا كافيا لملوصول الى القاع ، وعبثا حاولنا الحصول على مزيد من الحبال والحق أن سفينتنا (السلك الذهبي) كان يعوزها بشكل مخجل كل وسائل الأمان كأية سفينة تجارية انجليزية في القرن التاسع عشر ، فالظروف التي تؤدى الى ارتطام السفن ، وفقدان الحياة بشكل مرعب ، تحدث بشكل دائم في موسم الحج في هذه البحار ، فاذا حدث أن ارتطمت السلمينة بحواف الشعب المرجانية التي تشبه شفرة حادة ، فانها سرعان ما تختني في البحر ، وكأنها ذابت كقطعة الحلوي في الماء ، لأن المد كان مرتفعا في ذلك الوقت ، وبدأنا نحدث جلبة وضوضاء بقدر استطاعتنا ، ما دمنا لا نماك فعل شيء أفضل من ذلك ، ولحسن حظنا ، فان الريس طلب

⁽٦) المعنى يمثله الشاعر العربي :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغرن بطيب العيش انسسان ـ (المترجم) •

قاربا يملكه فارسى ، فاذا بربانه عربى من جده ، كنا فد تعاملنا معسه أكثر من مرة بأريحية كبيرة ، وقد استنتج سبب الخطر الذى نعانى منه ، فارسل اثنين من بحارته بحبل من فوق جانب مركبه الى البحر ، فسحيحا بمهارة الينا ، وفى غضون دقائق قليلة كنا قد ربطنا سفينتنا بامان فى مؤخرة سفينة جارنا المفيد ، وقد وطنا أنفسنا للقيام بعمل معبر عن الشكر والامتنان يتمثل فى ضرب ريسنا (ريس سفينتنا) وقد كان يستحق ذلك عن جدارة ، وقبل الظهر عندما تغيرت الرياح لم يسبب لنفسه الازعاج برفع العلم ولما خمدت الرياح ، فضل انتهاز فرصة ما تبقى من ريح مواتية ، وبشق الأنفس ، استطعنا أن نرسو بسفينتنا براحة عند جانب جزيرة حسانى Hassani ، بدلا من أن نبحر فى بحر غير هادىء بالقرب من شاطىء تهب الرياح فى اتجاهه ، وهو ـ أى الشاطىء .

وبدانا الابحار في فجر اليوم التالي (الموافق ١٥ يوليو) . واجتزنا جبل حسانى عند الظهر تقريبا ، وقبل غروب الشمس بساعة او نحوها انزاقنا الى مرسى مهال Mahar • وكانت مرسانا هذه شبيهة بمارسي الدميغة Dumayghah غير البعيدة عنها • وكانت جوانب هــده اارسي (الخليج الصحفير) - على أية حال ، اشد تحدرا من جوانب مدرسي الدميغة • وتتخذ الصخور الجيرية مظهرا مميزا في هذا المكان ، ففي بعض الأجزاء نجد القاعدة والجدران قد تفتت مخلفة تجويفا يشبه الظلة ، وفي مواضع أخرى نجد الرياح والأمطار قد تسببت في حفر عميقة ، واخترقت المواد البهشة فصنعت كهوفا كبارا تبدو وكانها عمل فني وكان ثمة فتحة كبيرة في مكان قصى من قاع المرسى (الخليج الصغير) • والنخيل التي أحاطت بها نرقة السماء ، تشكل على البعد منظرا يبعث على البهجة والمسرة ، فطالما تاقت أعيننا لرؤية بعض من الخضرة • وشرع الريس -كالعادة _ يبث الرعب ءينا بوصفه قبيلة متيم Hutaym التي تقطن هذه الأنحاء ، مع أننى أعلم من قسراءة ولسستد Welsted ومورسبي انها قبيلة قليلة القيمة ، الا أن بقاءنا متشنجين طوال ثمان وأربعين ساعة على ظهر السفينة قد يجعل المرء لا يتوقع - الا قليلا _ خطرا اعظم مما كان فيه ٠

وقد جرحت الصخور اقدامنا وندن نخوض الى الساحل ، واتذكر ائى شعرت بالم مبرح من جراء شيء غرس في أصبع قدمى ، لكن بعد النظر في موضع الألم استخرجت ما بدا قطعة من الشوك ، وبعد أن تسلقنا الجانب الصخرى بهذا الخليج الصغير (المرسى) من جهة البر ،

وجدنا بعض البدو نصف العراة يتمددون في الظل وكانوا غير مسلحين وليس من شيء أقوله عنهم سوى أن محياهم ينم عن هدوء ذليل لا يخيف الا أكثر الناس جبنا ولازال هؤلاء الناس يعيشون في كهوف حجرية كما كانت تعيش قبيلة ثمود وفقا لما تقوله المرويات وهم من أكلة الأسماك فليس لديهم ما يتعيشون منه سوى ما يجود به البحر عليهم ، فلم يكونوا قادرين على أن يقدموا لنا البلح الطازج أو اللحوم أو الحليب ، لكنهم باعوا لنا نوعا من الأسماك يسمى في الهند « بوى Bui

وبعد أن أكلنا وشربنا ودخنا ، بدأنا نمرح ، وكان العجم (الفرس) النين – بسبب خوفهم من القدوم للساحل – قد بقوا مع منقولاتهم ، وبدوا أضحوكة (مجالا للسخرية) لبعض الظرفاء من مجموعتنا ، فوقف أحدنا وراح يؤذن ، وبعد ذلك راح الباقون يرتلون ترتيلات جدلية (يفندون فيها أقوال الشيعة) ويعدون مناقب أبى بكر وعمر وعثمان (رضى الله عنهم) ، وبعدئذ – وكما يحدث عموما في مثل هذه المناسبات – تحول الأمر الى خلاف شخصى ، اذ قال صبية مشردون من مسكة (المكرمة) لمهؤلاء العجم بما يشبه الغناء انهم – أى العجم به تابة أحذية (شباشب) لعلى (رضى الله عنه) وأنهم مجرد كلاب لعمر (رضى الله عنه) ، وعقد الرعب السنة العجم فلم يردوا ، فجمع رفاقى (٧) أدوات الطبخ الخاصة بهم وعادوا الى السفينة (السلك الذهبي) منكسرى الخاطر ، كالمرشح الذي فقد أمله في القوز (٨) ،

وكان يومنا التالى صامتا مخيفا ، نلك لأننا كنا جميعا مكفهرين وقلوبنا متوجسة خوفا من ركوب السفينة مرة أخرى ، لقد كان يجب أن نصل الى ينبع فى المساء ، اذ تخلى (ريسنا) عن كسله ، ولأننا ضربناه كما ينبغى أن يكون الضرب فقد رساا بنا فى ساحل مفتوح لا تحميه الحيود البحرية بشكل كاف - وغالبا على مرأى من الجهة التى نقصدها ، فعلى مسافة يشمخ المامنا جبل رضوى Radhawah or Radhwo وهو احد.

⁽٧) يقصد المعجم - (المترجم) .

⁽٨) النص :

واكتفينا بما ورد بالمتن الدائه بغرض ترضيح المعنى .. (المترجم) •

[&]quot;Like disappointed condidates for the honours of Donnybrok".

جبال الفردوس · وهو جبل مشهور في الشعر العربي ، كما أنه مشهور بجماله

وهو - آی جبل رضوی - یمد المدینة (المنورة) باحجار السن (احجار صلبة تشحد عليها السكاكين والشفرات) • وقد سمعت كثيرا عن وديانه وفاكهته وعيونه الفوارة ، لكننى بعد ذلك علمت أن هذه مجرد حكايات ترتبط بالتراث الغيبي المرتبط به • وقد لاحظ أحد رفاقنا ملاحظة فظة ، بعد أن حملق في مرتفعاته العارية الشاحبة ، بأن هذه الكومة الحجرية القبيحة تستحق ان تلفظها السماء ، ولابد ان حاجة رفيقي هذا للخبز الطازج ، هي التي خمرت لديه هذه الفكرة ، لقد خضانا الي الساحل · وطهينا طعامنا هناك ، وقضينا الليل، وكان يعوزنا الماء القراح. بالاضافة الى أمور آخرى مما جعلها مكفهرين متوترين كالدببة القد كان سعد العمالة - بالذات ، مكفهرا متوترا اكثر من غيره ، فقدد كأنت عيناه تحملقان في الأرض بثبات ، وكانت شفتاه متدليتين حتى انه يمكنك أن تسحب وجهه منهما ، وكان فمه مزخرفا بتجاعيد قبيحة (كان مشقق الشفتين) ، ولم يفتح فمه الاليقذف منه سيلا من الكلمات القبيحة . لقد سبلى نفسمه هذا المساء بالمزحف ببطء على اطرافه الأربعة فوق الولد محمد ، ووضع بعناية فائقة ركبته فوق الوجه النائم · واستيقظ الولد محمد محنقا غاضبا ، فأغرقنا جميعا في الضحك ، اما الزنجي العابس - فبعد أن ذاق طعم نجاح مقلبه (دعابته الثقيلة أو نكايته) ، لف نفسه وهو نصف راخ - كالمقنفذ وراح في شخير مزعج طوال الليل ٠

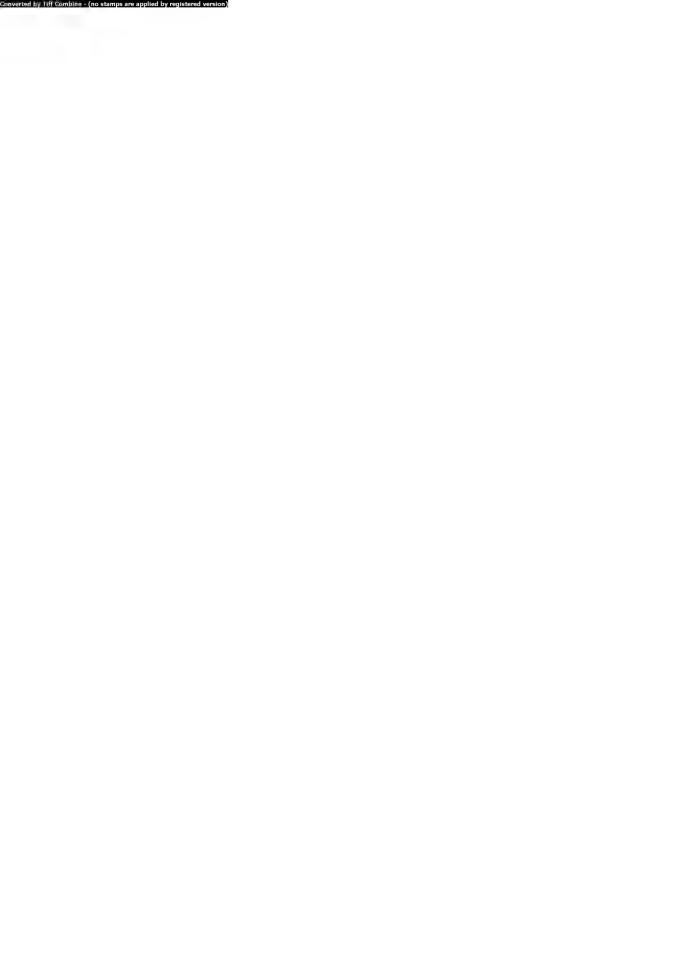
لقد نمنا فوق الرمال واستيقظنا قبل فجر اليوم السابع عشر من شهر يوليو ، وعقدنا العزم على اجبار الريس على الابحار في الوقت المحدد هذا اليوم ، وكان علينا أن ندور دورة شبه كاملة لتجنب منزلق من الأرض يفصل بيننا وبين مرفئنا بالاضافة الى أن الريح لم تكن مواتية ، ولكثرة الصخور والأماكن الضحلة ،

وفى حوالى الظهر من اليوم الثانى عشر من مغادرتنا للسدويس خاصت بنا سفينتنا ببطء فى خليج ضيق يؤدى الى ميناء ينبع ، ثم ركبنا احد قوارب الساحل وانطلق بنا الى الميناء (ينبع) وشعرنا كأن الله أعطانا حياة جديدة عندما ودعنا الى الأبد سلفينتنا الحقيرة (السلك المنهي) .

وكان يمكننى أن أتحاشى هذه المشاق والمعاناة بأن أستأجر مركبا من مراكب الساحل لنفسى فيكون لى (كابينة) ألوذ اليها في الليل ، ومكان

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظليل اتقى به وهج الشمس ، وأكثر من هذا فانها ستختصر الوقت فتجعل الرحلة خمسة أيام بدلا من اثنى عشر يوما · لكننى ازوررت عن كل هدذه المزايا لرغبتى في مشاهدة مناظر سفن الحج ، تلك المناظر التى طالما تحدث عنها الحجاج العائدون لديارهم ، بالاضافة الى أن الايجار كان يكلف مبلغا باهظا يتراوح بين أربعين وخمسين جنيها استرلينيا وما يستتبع ذلك من مصاريف اضافية · ففى هذه البلاد يتحتم عليك أن تستمر كما بدأت ، فمن غير الممكن أن تنفق بتقشف بعد أن كنت تنفق بسحاء · لقد غادرنا الآن أرض مصر ·



القصسل التساني عشر

التوقف في ينبع

تجارة البحر الأحمر ـ حاكم ينبع ـ وصف ينبع ـ عين البركة ـ عين على ـ السلاح ـ الثياب ـ الحازمي ـ وصف شيخ عربي ـ الحمايل ـ محمد شقلبها ـ الغناء في ضوء القمر •

لقد حاق الضرر بقدمى بسبب حرارة الشمس والرطوية العالمية وابتلالها تباعا بمياه البحر ، لدرجة أننى عندما وصلت الى ينبع لم اكن بمستطيع الا بالكاد ان أضعها على الأرض الاأن واجب الرحالة هو أن يتجول ويرى ، ولذا فقد اتكأت على كتف عبدى • وشرعت ذات مرة فى رؤية ينبع بينما اتخذ الشيخ حامد واخرون من رفاقنا سبيلهم الى الجمارك •

وينبع البحر (ينبع تعنى ينبوعا أو نافورة) التى عرفها بروس Bruce Bruce في رحلتها الحبشية بأنها قوية يمبيا البطلمية Bruce of Ptolemy موقع عنو أله الحبيرة ، وتشعرك معلم مواقع أخرى في أنها بوابة للديار المقدسة وتقع ينبع البحر عند ثلاثة أرباع المسافة من القاهرة الى مكة المكرمة بطريق القوافل وفي ينبع علما في بدر عيرك الحجاج بضائعهم وحاجاتهم الثقيلة جدا التي يصعب نقلها في عجلة في مضان يستأجرونها ، كما يتركون أيضا عاجياتهم الثمينة التي يصعب المخاطرة بنقلها معهم في الفترات التي ينعدم فيها الأمن ولكون ينبع ميناء المدينة (المنورة) حكجدة التي هي ميناء المدينة (المنورة) حكجدة التي هي ميناء مواني غرب البحر الأحمر ، تزود مدن الحجاز الرئيسية بالمغلال والتمور والحناء وهذا (في ينبم) يفترض أن تبدأ هيمنة (سيادة) السلطان ،

وتنتهى سلطة باشا مصر · ولا يوجد جيش نظامى (١) على أية حال فى ينبع ، فالمحاكم هو الشريف أو أحد الشيوخ العرب · وقد قابلته (الشيخ العربى أو الشريف فى السوق الكبيرة · وهو شاب وسيم خفيف الظل ذو لباس جميل وعمامة كشميرية ، ومسلح بسيف وخنجر ، ويتبعه عبدان زنجيان ذوا بذيتين ضخمتين ، ولهما نظرات نارية قاسية ويحمل كل واحد منهما نبوتا رهيبا ·

وينبع ذاتها ليست ملفتة للنظر · فهى مبنية على حافة سهل سفعته الشمس يمتد بين الجبال والبحر · وتواجه الحطرف الشمالي لخليج ضيق ومتمعج (ملتو) · وتبدو ينبع من الميناء خطا طويلا من المباذى ظهر بياضها الشاحب مقارنة بلون السماء الفضى كالكوبالمت · وزرقة البحر الشديدة كلون النيلة ، وخلفها مسطح من الأرض ذو لمون اسمر داكن او بنى ، وجانب من هذا المسطح ذو لمون اسمر مصفر مفعم بالحيوية ، اما خلفية الصورة فيمثلها جبل رضوى ذو المنظر الكثيب انه حقا :

« قاحل عار قبيح خال من الجمال »

« Barren, and bare, unsightly, unadorned »

وخارج أسوار ينبع ، توجد قباب قليلة وقبور ، تلفت النظر ١٠ اما داخل المدينة (ينبع) فالمشوارع عريضة والمساكن متباعدة (٢) الا بالقرب من الميناء والأسواق حيث يزداد سعر الأرض ٠ وقد شيدت المساكن بشكل بدائي من المحجر المجيري والأحجار ذوات اللون المرجاني ، وأسوارها مليئة بالأحافير ومثقبة كفطيرة اللوز ٠ ولهذه البيوت نوافذ ضخمة مرتفعة الا تقل سقما عن نوافذ أحياء المسلمين في القاهرة ٠ رفي ينبع شسارع السوق حيث يتخذ شكله المعتاد فهو عبارة عن شمارع ضيق مسقوف بسعف النخيل ، وبضعة دكاكين قليلة على جانبي الطريق ، وهذه الدكاكين تمثل جزءا من بيوت أصحابها ٠ وقد وصفت في المفصل الأخير مقاه شبيهة بما هو موجود هنا ٠ فقد تحولت هذه المقاهي الى كذل من القذارة بفعل

⁽۱) Nizam اى النظام والمقصود هنا جيش اظامى حيث كان والمعللة « نظام » في هذا العصر يعنى الجيش النظامي ـ (المترجم) •

يقول بيرتون : ان «النظام» كما يفهمه الأوربيون الآن يعنى جيش المناه التركى · وفي المحجاز لا تتمركز الفرق النظامية في المدن الصغيرة مثل ينبع · ففي هذه المدن الصغيرة يبدو الخيالة · فير النظاميين كافين لحفظ أمن المسافرين · ويبدو أن شرطة ينبع تتكون من عبيد الشريف للقوياء · وأيام على بك كانت ينبع تابعة الشريف مكة ·

⁽۲) استخدم بيرتون تعبير Unsociable distance وهو يعنى أن المدافات بين المساكن متباعدة مما يدل على قلة التواصل الاجتماعي ، او غلبة الروح البدوية .. -- (المترجم)

المسافرين المترددين عليها ، ومن المصال أن تجلس في احداها دون أن يكون معك مروحة أو مذبة لتذب الذباب بعيدا عنك و وواجه مصلحة (مركز) الجمارك موضع رسو السفن في الميناء ، ويديرها مسئولون أتراك يضعون المطرابيش على رءوسهم يقضون نهارهم كاملا متكئين على الأرائك الى جوار النوافن وبالمنسبة لنا نحن المسافرين فان مسئولي الجمسارك الترك ، الآنف ذكرهم ، لم يبدلوا الا جهدا يسيرا ان فرضوا على كل صحنوق كبير ، والم يعفوا أنفسسهم من العبث في محتوياته (٣) .

وتفخر ينبع أيضا بحمامها ، وهو مجسرد ظلة من سعف النخيل يستأجره تركى عجوز ، يتعيش هو ومساعده الألبانى الفظ من غسل السجاج والمسافرين وتنظيفهم • أما بقية المبانى العامة فتتمثل فى بعض المساجد ذات المعمار البسيط مطلية باللون الأبيض ، ووكالة أو وكالمتين الاستقبال التجار ، وقبر أحد الأولياء •

ولينبع أن تتباهى على معظهم مدن شمال الحجاز فى أمر واحد الذي يمكن لأهل ينبع أن يقدموا ماء المطر العذب الفاخر الذى يجمعونه من بين التلال حيث يتجمع فى خزانات ويحملونه على ظهور الابل الى البلدة ، وتحظى مياه عين البركة وعين على (٤) بثناء الناس هنا ، ومياههما تكفيان كل أهل ينبع الما مياه الآبار التى تعتريها الملوحة فتستخدم لأغراض الخصورى غير الشرب المرب الم

وبعض المعجائز هنا حكما فى السويس · يقال انهم يفضلون الشرب من مياه الآبار المالحة بحكم تعودهم عليها ، حتى انه ليقال على سهبيل الفكاهة انهم اذا ذهبوا للقاهرة ، لأضافوا لماء النيال ملحا ليجعلوه مستساغا ·

وسدكان ينبع يفاجئون عيون المسافر القادم من مصر ، لأنهم يمثلون ظاهرة جديدة بالنسبة له بالتأكيد ، فهم أحد أكثر أجناس شمال الحجاز

⁽٣) هذه ... فيما أعلم الضريبة الوحيدة التي يحصلها السلطان من سكان شعال الصجاز ويقول الناس انها ضريبة مناسبة للمناطق كثيفة السكان ، وهو أمر متوقع من سكان المناطق البعيدين عن عاصمة الدولة (العثمانية) • ولما استولى الوهايبون (السلفيون) على ينبع فرضوا ضرائب كالتي فرضوها على غيرها (يقصد جمع الزكوات) لذا فقد كرههم أهل ينبع • (بيرتون) •

⁽٤) رغم استخدام كلمة « عين » هنا Ayn Ali Ayn al-Birkat الا أن المعنى كما هو واضح من السياق أنها أماكن أو مواضع أو خزانات لتجميع مياه الأمطار ــ (المترجم) •

تعصبا ورغبة في المشاكسة والعراك • فالشيخ (الوجيه) منهم مسللح تسليحا زائدا عن الحد ، وملتحف بثياب كثيرة وفقا للعادات المتبعة ، أما شيخ العرب (طاغية الصحراء) فيملى أوامره على أى شخص تابع. له · والمسافر المتمدين من المدينة (المنورة) يغرز في حزام وسلطه مسدسنا معمرا مزينا بشريط قرمزى وان كان يخفى الطرف الغليظ لمسدسته تحت عباءته (أو معطفه) • والجندى غير النظامي يسير مختالا غي الشارع وهو مدجج بالسلاح • فنظرة واحدة لهيئة الرجل تنبثك من هو • وهنا وهناك تجد البدو يمشون باختيال متجهمين ، على وجوههم سيماء التوجس كسائر أهل الصحراء ، تنطق هيأتهم بالفخر وادعاء العظمــة والسفالة · وهم أيضا مدججون بالمسلاح ، ولا يستطيعون الابقاء على سبيوفهم في أغمادها (جمع غمد) حتى في حضور الشرطة المدججسة بالنبابيت (٥) ، وحتى السالون من أهل ينبع لا يخرج الواحد منهم من. بيته الا وقد حمل نبوته على كتفه اليمنى ، فالنبوت هو اثقل الأسلحة وأطولها وأسمكها ، وأهل ينبع متمرسون في استخدام النبابيت باتقان . وقد أصبحوا خبراء في تلقى ضربات الرأس العنيفة ، ، وهم يحسمون عراكهم العادى دائما بهذه النبابيت ٠ ولا يختلف لباس نساء ينبع عن. لباس نساء مصر الا قليلا اللهم الا في الحجاب ، فحجاب الينبعيات أبيض بشكل عام • وثمة ملمح يميز رجال ينبع عن سواهم وهو ملمح غريب عن أهل الشرق ، فهم فخورون بأنفسهم دون تبجح أو ادعاء . ويبدون شجعان شرقاء دون غرور وفي مشيتهم شيء من الاختيال ربما يشبه الاعتزاز بالذات الذي يتحلى به المقاتلون ، دون عدوانية • واكثر من هذا ، فسكان ينبع يبدون في صحة جيدة ، ولأننى قادم من مصر لتوي لم استطع أن أتبين عدم اصابتهم بأمراض العيون · واطفال ينبع يبدون كذلك نشبيطين

وقد وجدنى رفاقى فى أحد المقاهى حيث كنت جالسا لاستحم مما الم بى من ارهاق اثر تجوالى فى ينبع بقدمى الجريحة لقد كان رفاقى قد مروا بصناديقهم على الجمارك وبعد ذلك راحوا يسالون عنى فى كل مكان، قائلين «أين الأفندى ؟» وبعد الجلوس لمدة نصف الساعة نهضنا لنرحل ، عندما دخل تاجر عربى عجوز كنت قد قابلته فى السويس موأصر هذا التاجر بأدب على دفع ثمن قهوتى ، دلالة على اهتمامه بى ، وكانت هذه العادة تحمل الدلالة نفسها فى فرنسا فى الأيام الخوالى وكانت هذه الله للوكالة بالقرب من السوق حيث كان رفاقنا قد هياوا:

⁽٥) اشرنا للنبوت في حاشية سابقة ـ (المترجم) ٠

لمنا غرفة علوية منعشة الهواء لها شرفة في مواجهة البحر وخالية ـ على نحو مقبول ـ من الذباب الذي يعد بمثابة طاعون في ينبع • وكانت هذه الغرفة قد استأجرتها جماعة من المسافرين قدموا أنفسهم لى باعتبارهم أخوة عمر افندى كانوا قد قابلوه صدفة في الشسارع قبل بدلية رحلتهم الاسطنبول (القسطنطنينية) بيوم واحد ، حيث كانوا يزمعون السفر اليها (اسطنبول) لاستلام الاكرامية الهتم ، وكانت الأسرة كما سبق أن شکرت ، من داغستان (جرکسی او شرکسی (Circassia ولازال (٦) رجال هذه الأسرة يبدو في ملامحهم بوضوح ما يدل على أصلهم الشمالي ، هْجِلُودهم صفراء خفيفة ، وشفاههم حمراء ولحاهم هزيلة (خفيفة) ٠ لقد كانت اكتافهم عريضة ، وأطرافهم ضخمة ، ويتميزون برزانة فظة وريما كان تعبيرهم هذا (الرزانة الفظة) نتيجة تشككهم في ، لأنني لاحظتهم وهم يتفحصون - عن قرب - كل حركة من حركاتي اثناء الوضوء والداء الصالوات • وكان ذلك فرصة طيبة لى ، لاظهار الالتزام الكامل بأداء. هذه القرائض كما يؤديها المؤمن صادق الايمان • وقد نجمت جهودي ـ كما اعتقد سه في أن يعاملوني كمجرد مسافر غريب لا يتوقعدون منه شرا . يلا يستحق اهتمامهم الاقليلا ٠

وبعد ظهيرة يوم وصولنا ، ارسلنا نطلب المخرج (وهو مرّجر الدواب) وبدانا نهيىء الجمال • فعم جمل كان رجلا محترما من اهل المدينة (المنورة) جعل من نفسه متحدثا رسميا ، وبعد جدال طويل تمت الصفقة (بالنسبة لشيخ الجمال ومرافقه البدوى فقد كانا من نوع الرجال الذين يثيرون المتاعب من أجل مبلغ تافه ، لقد كانا على استعداد للحرب من أجل ربع بنس «فارزنج» ولم نكن أقل منهم حرصا وقد وافقنا أن ندفع ثلاثة دولارات لقاء استئجار الدابة الواحدة ، على أن قدقع دولارا ونصف الدولار مقدما والنصف الآخر بعد الوصول الى هدفنا ، وعلى أن نبدأ السفر في مساء اليوم المتالي مع قافلة الغلال التي يحرسها حرس من خيالة غير نظاميين • لقد استأجرت دابتين ، دابة لمتاعي وخادمي وأخرى لأركبها ومعى الولد محمد ، واشه ترطت أن تكون الدابة التي لأركبها أنا والولد محمد ، أحسن الدواب ، وأنه اذا خرت الدابة في الطريق اعطوني بديلا عنها • ولم يستطع اصدقائي اخفاء اضطرابهم ، عندما

⁽٦) لفظ عامى مازال مستخدما - وينطق بتشديد الراء وكسرها - (المترجم) .

الخبرهم المخسرج the Mukharrij ان قبيلة الحازمي كانت خارج مضاربها وانه - لذلك) يتحتم على المسافرين أن يحاربوا ، كل يوم (دفاعا عن أنفسهم) واشترك الداغستانيس ن أيضًا في تحذيرهم · فقد قالوا : « لقد قابلنا ما بين مائتي شرير وثلاثمائة Razzia بالقرب من المدينة (المنورة) ، والقينا عليهم السلام فلم يردوا علينا رغم أننا جميعا كنا نركب الجمال ، وقد سالونا ان كنا من أهل المدينة (المنورة) فأجبناهم قائلين « نعم » واخيرا فقد « Bir Abbas أرادوا أن يعرفوا الجهة التى نقصدها فقلنا لهم بير عباس وقد كان البدو الذين صحبوا الداغستانيين ينتمون لبعض القبائل غير المرتبطة بقبيلة المحازمي • وأدار المتحدث باسمهم رأسه ، ولم يزد الا ان قال: « الله يحفظنا » • وثمة شاب هندى من المجموعة - كنت أشك بشدة أنه سسرق ذات ليسلة مطواتي (سسكين الجيب) my pen-knife الم قد اظهر جبنا بترديده الكلمة الهندوستانية « ميان Miyan » » وتعني « سيدى » وذلك بالنظر مذعــورا عندما تخيل المخـاطرة المهلكة التي يوشك أن يخرضها · وقال لى الشيخ نور : « يجب أن ننتظر حتى ينتهى كل هذا » وقد أخبرته أن يصمت ، ونهرت الولد محمدا بشدة لطبيعته التي تجعل تصرفه سبيئا عندما يجد نفسه في بلاد أو مناطق جديدة بالنسبة له · القد قلت « الماذا النتم سباع في القاهرة ، وقطط ودجاج في ينبع » · وعلى اية حال لم يمض وقت طويل قبل ان تعود صفاقة الشاب ووقاحته عليه بمزيد من الضرر ٠

لقد جلسنا في فترة ما بعد الظهيرة في غرفة صعيرة تطل على الشرفة كان ما تعكسه علينا من حرارة بالاضافة للرياح الملتهبة التي تهب علينا من المناطق المقفرة المحيطة بنا تشكل أمرا مزعجا حتى بالنسبية لرفاقي وبعد غروب الشيمس تناولنا عشاءنا في الهيواء الطاق وكنا جماعة تبلغ العشرين من سيادة وخدم وأطفال وغرباء وتم تجميع ما أتيح من وسيائد وحواش في دائرة لتشكيل مجلس (ديوان) وتحلق الجميع حول قدرا كبيرة مليئة بالأرز المسلوق الذي يحوى قطعا كبيرة من لحم المضأن وقد غطى (الارز واللحم) بالزبد المقدوح وكان سعد العملاق يبدو الأن في قمة عظمته وأبهته فليست هناك مناسبة أفضل من هذه تمده بالنوادر ، فلسانه يبدو متحركا بذرابة لاحد لها ، فهو يحيى كل الرجال بصخب مرح ويتدخل في خصوصيات الآخرين واستمر السمر بعد ذلك ، اثناء تدخين الشييشة واحتساء القهوة حتى العاشرة مساء وهو وقت متأخر في هذه الأنحاء ،

ثم صلينا العشاء (٧) ثم فرشنا الحصير في الشرفة ونمنا في الهواء.

وقضينا صدر نهار اليوم التالى فى شراء اشياء مختلفة وتزودنا بما يكفيذا سبعة أيام تحسبا لرحلتنا المقبلة وأعدنا حزم أمتعتنا . وصقانا أسلحتنا ، وأعدنا حشوها ، وارتدينا ملابس تلائم الطريق الذى سنسلكه ، فقد لبست لباسا عربيا بناء على نصيحة عم چمل لأتجنب دفع الجزية أو ضريبة الرأس التى تفرضها القبائل المستقرة على جانبى الطريق على المسافرين الغرباء ، وحذر عم جمل من الحديث بأية لغة غير العربية حتى مع خادمى عندما نكون قريبين من احدى القرى ، وقد اشتريت شقوفا a shughduf بدولارين لأحقق الراحة لمنفسى ، والشحوف والشجدوف) وسيلة مناسبة للنساء والأطفال وكبار السن والفرسان أو الرجال المتأنقين والأشخاص ذوى البنية الرقيقة التى تجعل ركوب الدواب أمرا شالقا بالنسبة لهم ، ويرجع سبب استثجارى شقدوفا الى أن تسجيل الملاحظات وأنا داخله أيسر من تسجيلها وأنا على ظهر الجمل مباشرة بلا شقدوف

لقد تناولت جماعتنا غداءها مبكرا في ذلك اليوم ، بسبب ايقاف الجمال عند البوابة منذ الظهيرة ، وعانينا كالمعتاد في تحميلها ، فأصحاب الجمال راحوا يصيحون ويصخبون بسبب الأحمال الزائدة عن الحد ، بينما يصيح أصحاب البضائح مقسمين أن طفلا صغيرا يمكنه تحمل مثل هذه الأحمال ، في حين أن الجمال قد انحازت لرأى أصحابها فراحت تئن أنينا يبعث على الشسفقة ، وراحت ترغى وتزبد ، باذلة محاولات عنيفة لعض محمليها ، منتهزة الفرص بلماحيه وذكاء لاسسقاط نصيف عمولتها من صناديق وغرائر على الأرض ، وفي حوالي السناعة الثالثة بعد الظهر كنا جميعا جاهزين – فالجمال صفت في طابور ، كل جمسل خلف الآخر ، ووقفت مستعدة في الطرقات ، لكن كما هي العادة مع المسافرين الشرقيين فقد انتشر كل الرجال حول المدينة (ينبع) لذا فلم المستطع امتطاء دوابنا للرحيل الا في وقت وتأخر بعد الظهر .

ويتحتم على الآن أن أعطى لنفسى الحرية لأقدم للقارى، صورة شيخ عربى مجهز تماما للسفر • فلا شيء يمكن أن يكون منظرا جديرا بالتصوير

⁽٧) ربما كان اسم تدليل ... (المترجم) ٠

من لباسه ، فمما يؤسف له أن نرى هذا الزى يتغير في المدن والمناطق الأكثر تحضرا • فرأس الشبيخ العربى ذات الشعر الطويل أو الحليقة قد علتها طاقية بيضاء من قطن ، يعلوها (أي الطاقية) كوفية Kufiyah من حرير وقطن مختلطين ، لونها _ عموما _ أحمر باهمت ، وحوافها صفراء صفرة خفيفة ، محاطة بفتائل حريرية مجدولة يتدلى منها شراريب (جمع شرابة) تصل الى خصر المقاتل • ويثبت الكوفية على الرأس عقال يعقد من الخلف ، والعقال عبارة عن ثلاثة حبال مجدولة من الصوف تعقد من الخلف ، وتتدلى الكوفية لتظلل على العينين ، وتعطى بهيئتها التي وصفتها آنفا منظرا مرعبا للابسها • وفي مناسبات معينة يغطى لابسها نصف وجهه السفلي جاعلا طرفها خلف رأسه • وفي هذه الحال يكون لابسه ا ملثما أي أنه جعل غترته (كوفيته) لثاما Lisam • ويقاتل المشايخ أو الزعماء عادة وهم ملثمون ، واللثام هو وسيلة التنكر المعتادة عندما بكون ارلجل خائفا من أن يثأر منه أحد ، كما تتلثم المرأة عندما تشرع في الأخذ بثارها (her sar (thar ، كما يستخدم اللثام عندما يكون الجو حارا لاتقاء الحرارة أو عندما يكون الجو باردا لاتقاء نزلات البرد (الالنهاب في القناة التنفسية) •

أما لباس الجسم فهو ببساطة قميص قطنى بأكمام محكمة ، مفتوح من الأمام ، ومزين حول الخصر والرقبة (الياقة) وأسسفل الصدر ، بتطريز مشبك ، ويغطى هذا الثوب البدن كله من الرقبة الى القدمين ، ويلبس بعض العرب سراويل واسعة الا أن البدو يعتبرون ذلك نوعا من التخنث (٨) .

بل ان البدو لا يلبسون حتى العباءات كما لا يلبسون الجوارب . وفوق القميص الآنف ذكره ، يلبس الشيخ العربي عباءة من شعر الجمل ، قصيرة أكمامها . والعباءات على أنواع مختلفة ، فمنها ما هو من حرير

⁽A) اختلف الوضع بعد ظهور الحركة السلفية في شبه الجزيرة العربية (حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب) اذ أصر السلفيون على تقصير الثوب باعتبار أن وصول الثوب الى القدمين (حرام) تبعا لمظاهر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (ما تحت الكعبين في النار) ، لكنهم عادوا عندما أذى البرد أأله الحر هذا الجزء غير المغطى بلبس سروال طويل تحت الثوب القصير لتغطية ما لم يغطه الثوب ، باعتبار أن الحديث الشريف وفقا لتفكيرهم نص على (الثوب) ولم ينص على (السروال) ، وهكذا راحت تجارة السراويل الطويلة التي تصل الى الكعبين في المناطق التي يسعودها السلفيون الذين يؤخذون بهذا النوع من التفكير ، وحقيقة الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما توعد من (جر ازاره كبرا) كان ينهى في الأساس عن الكبر والبتر ح (المترجم) ،

خالص ، ومنها ما هو من صوف خشن ، وبعض الناس يفضلها بنية اللون ، وآخرون يفضلونها بيضاء ، وطائفة أخرى تفضلها مخططة وفى الحجاز يفضلونها بيضاء مطرزة بالذهب وبخيوط مختلفة الألوان أو صفراء على شكل مثلثين كبيرين تعلوهما أشرطة عريضة وأشكال أخرى تحت الكتفين وعلى جانبى الظهر ، ويحدد داخل الكتفين (فوق الكتفين) والصدر بنسيج بديع من خليط من حرير وقطن ويربط من الأمام بخيوط قابلة للمط (أستك أو مغيط) وشراريب من حرير وذهب ، ويلتف الحزام حول القميص عند منطقة الخصر حيث توضع الجنبية (الخنجر المعقوف) وأخيرا يأتى الخف (الصندل) لتتم ملامح الزى العربى ، وأخيرا فان أسلحة الشيخ هى السيف ، وبندقية تعمل باشعال الفتيل معلقة خلف ظهره ، ويحمل في يده اليمنى مزراقا (رمحا) قصيرا ، وعصا معقوفة قليلا ، يبلغ طولها قدمين ونصف القدم وتسمى

أما العشائر العربية الفقيرة ، فيلف الواحد منها حول جلد خصره مباشرة قطعة طويلة من جلد خشين وذلك لتقوية الظهر ، ويطوقون القميص عنه الخصر بحبل أو حزام خشس ، ويعلق حزام عريض توضع فيه طلقات الرصاص على الكتفين وقوارير البارود ، والفتائل الموضوعة في قرون مجوفة (قرون الفتائل) وقطع من أحجار الصوان (تستخدم في القدم أو اشعال الفتائل) وغير ذلك من الضروريات • ويعتبر الخصر بالنسبة للمسافر مجالا لاستخدامات شتى • فعلى جلد الخصر مباشرة يضع المسافر كيس النقود ويغطيه القميص الذي يطوق بشال يعلوه حزام جلدي ٠ يجب أن يكون دائما حسن الزينة مزودا من الجانبين بمسدسين فضيين من المسدسات التي تعمل بقدح الصوان علىخنجر كبير وآخر صغير ، ومدك قضيب لتنظيف المسمس أو البندقية) من حديد له كلاب من الداخل ويثبت كيس جلدى صغير في حزام الخصر على الجانب الأيمن ، ويحوى هذا الكيس خراطيش ومواد للحشو وقوارير لحفظ بارود الفتائل ٠ أما السيف فيعلق على الكتف بحبال من حرير قرمزي وشراريب ضخمة ٠ ويزين الرجال الذين يتأنقون في ملبسهم مسدساتهم على هذا النحو آنف الذكر · وفي اليد ، ربما حمل بندقية قصيرة blunderbuss أو بندقية طويلة وحيدة الاسمطوانة (ربما يقصد الماسورة) فتحتها (ثقبهما) ضيقة • وكل هذه الأسلحة لابه أن تلمع كالفضة اذا رغبت أن تكون محترماً ، فالعناية بالسلاح علامة من علامات الرجولة والفروسية في هذه الأنحاء

ويحمل الحجاج ، خاصة الأتراك منهم ما يسمى الحمايل Hamail لتقوم بأداء مهمة مقدسة ، والحمايل عبارة عن كيس لحفظ المصحف . وهذا الكيس مصنوع من مخمل قرمزي مطرز بالذهب تطريزا جميلا وقد تكون الحمايل صندوقا مغربيا (مراكشيا) أحمر معلقا بخيوط حريرية حمراء فوق الكتف اليسرى . وان كان يجب أن يتدلى في الجانب الأيمن . كما يجب الايتدلى تحت حزام الخصر · وقد استعضت عن هذا الاستخدام للحمايل ، باستخدام آخر ذي فائدة جمة • فالحمايل - من الداخل مقسمة الى ثلاثة أقسام ، جعلت قسما منها لساعتى وبوصلتى ، والقسم الثاني للنقود التي أحتاج اليها سريعا ، والقسسم الثالث لسكينتي وأقلامي وقصاصات من ورق كان في امكاني أن أحتفظ بها مطوية في يدى الا أن الاحتفاظ بأوراق الكتابة والرسم التي تشكل نسخة واضحة من اليوميات من الأمور التي لا تليق بالرحالة الحذر، وعلى أية حال ينبغي على المسافر أن يحدر رسم المخططات وغيرها أمام البدو ، فمن المؤكد أنهم سيتخذون ازاءه اجراء متطرفا ، لأنهم سيشكون في كونه جاسوسا أو ساحرا (٩) ٠ فلا شيء أكثر اثارة وارباكا للبدو من العادة الأوربية المتمثلة في تسجيل كل شيء على الورق ، اذ سرعان ما يشتغل خيالهم مما يجعل المرء يتوقع أسوأ الشرور منهم • والطريقة الآمنة الوحيدة للكتابة في حضور البدو هي كتابة خريطة البروج لكشف الطالع أو كتابة الأحجبة ، كما أن البدوي لا يعترض على الكتابة اذا استطعت اثارة حماسته فيما يتعلق بالانسان كان تبدأ معه قائلا : « وأنتم يا رجال حرب ، لأى عرق (أصل) يرجم فخركم ؟ » ، وبينما المستمعون منشىغلين بفيض حديثه عن قبيلته ، يمكنك أن تكتب ما تشماء من ملاحظات في هامش أوراقك • أما أهل المدن فأكثر تحررا ، فمنذ سنوات خلت قام الرسامون الشرقيون برسم الأضرحة المقدسة ، ومسحها ، بل وحتى طباعة رسومها على الحجر • والى الآن ، فانك ان أردت ألا تكون موضع ريبة ، فتجنب أن ترى وفي يدك قلم حبر آو قلم رصاص ، الا لماما •

وفى الساعة السادسة مساء ، وجدنا اثناء نزولنا من فوق درج الوكالة ، الجمال واقفة ومحملة فى السارع ، وراحت تتبادل أماكنها فى ملل • وقد وضع الشجدوف (الشقدوف) الخاص بى فوق جمل مرتفع وقوى ، ومع هذا فقد كان الشقدوف يميل ويكاد يجثم فى كل حركة مما أعطانى انطباعا أنه سيقذف (أى الشجدوف) مع أول خطوة صوب كتفى الجمل أو صوب مؤجرته • وقد أخبرنى الجمال أنه يتعين على أن أتسلق رقبة الجمل ثم ازحف عليها الى الشقدوف ، ولكن قدمى لم تساعدنى على

⁽٩) لا يزال التحرز من الكتابة والتدوين شيئا مالوها لدى البدو - (المترجم) •

ذلك لفرط الاجهاد فأصررت على أن يجثم الجمل ، ففعلوا مستائين ٠ واستأذنت اخوة عمر أفندي وجماعتهم الذين أصروا على توقيرنا باصطحابنا الى البواية • وهكذا بدأت الرحلة ، وكان هذا ايذانا بتفرق جماعتنا مرة أخرى فالذين سمعوا ما يفيد أن سفينة وصلت من السويس تحمل محمد Shiklibha وأصلقاء آخرين للميناء للتوديع • وصرح آخسرون بأنهم نسوا بعض الضروريات اللازمة للرحلة فجروا لقضاء آخر ساعة في المقهى في القيل والقال · ثم غربت الشمس وحان ميعاد صلاة المغرب ٠ وتلاشي الشيفق الأحمر في غالبه قبل أن يمتطى الجمع الجميع دوابهم • وشققنا طريقنا في طرقات طويلة ومتربة وضيقة يحيط بجوانبها مساكن متباعدة ومطلية بالطلاء الأبيض ، وأكوام هائلة من القمامة ، بعضها أعلى من المساكن ، بينما تتعالى الصبيحات : « سر في الوسيط يا هوه ٠٠! Ya hu وجنب يا جمال _ أي سر الى الجنب يا جمال » · وأوقفونا عند البوابة للتأكد مما اذا كنا غرباء فاذا ثبت هذا فان الحارس سيبذل قصارى جهده للحصول على قروش قليلة قبل السماح لأمتعتنا بالمرور لكنه تيقن من رفاقي أنهم من أبناء الديار المقدسة ، فخاب أمله في المحصول على القروش ، وأثناء وقوفنا هنا تبجح الشيخ حامد قائلا ان أسوار ينبع المنبعة وأبراجها تفوق أسوار جدة وأبراجها منعة وقوة فقد منعت (أسوار ينبع وأبراجها) سعودا السلفي (الوهابي) وجعلته في وضع حرج سنة ١٨٠٢ ، وكان على أن أرد بأن هذه الأسوار والأبراج لم تصمه الا قليلا لبطارية الميدان سنة ١٨٥٣ . وتوسط القمر كبد السماء واضمحا متلألثا وغمرنا بنوره بعد خروجنا من الشوارع المظلمة ، ولما دخلنا الصحراء هبت علينا نسائم عليلة ، لا تقارن رقتها بالجو الخانق داخل ينبع • وشرع رفاقي في الغناء كما يفعل العرب في مثل هذه المناسبات •



الفصل الثالث عشر

من ينبع الى بير عباس

عبور بوابة ينبع - المصرى يعنى الفلاح - بيرتون يوقع بين الجنسيات المختلفة - الشبرية - الشبق - الخوف من اللصوص - الطعام - البدو لا يبيعون اللبن - بنو حرب يطلبون البقشيش - الحمرا - حرس القافلة - اللصوص يهاجمون القافلة - وادى الورد بلا ورد - اهل الحمرا يمنعون القافلة من الاناخة على الارض المستوية - قلعة الحمرا - شريف مكة ومقاومة اللصوص - السياسة التركية اللينة لا تصلح مع البدو - خط كلفانة والإصلاحات التركية لا تغنى في الحجاز - قبضة محمد على هي المجدية - سعد الجبلى - اللقاء بقافلة مكية - البدو يطلبون مالا - قربة المجدية - شبخة تاريخية عن هزيمة طوسون باشا على يد السلفيين .

وفى حوالى الساعة السابعة من مساء اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عبرنا بوابة ينبع ، واتخذنا اتجاها شرقيا مباشرا · وكان طريقنا يمتد على سهل بين جبل رضوى عن شمائلنا والبحر عن أيامننا · وكانت الأرض صحراوية تناثرت فوقها كتل الجرانيت وكتل الشست الخضراء ، كما تناثرت هنا وهناك أشاجار أكاسيا متقزمة ، وبعض الأعشاب النامية التى تتناولها الجمال ، وكان فى امكانى أن أرى المنطقة على نحو مقبول فى ضموا القمر الرائع ، اذ كان فى تمامه تقريبا (يكاد يكون بدرا) ·

لقد كانت قافلتنا تتكون من اثنى عشر بعيرا تسير فى صف واحد رأس كل جمل منها فى دبر الجمل الذى مأامه (وقد ربط رأس الجمل فى ذيل الجمل الذى أمامه) ولم يخرج عن الصف الا واحسد هو عمر أفندى ، اذ حتمت عليه رتبته (مكانته) أن يركب جملا عليه جل مزركش رائع ، وكان أمامى مبساشرة فى صسف الجمسال عم جمسل

Amm Jamal الذي كيان على أن أوبخيه لسيواله الولد محمدا «أين تعرفت بذلك الهندى ؟ » أنكون نحن الأفغان هنودا ؟ أنكون هنودا ونحن الأفغان – قاتلو الهنود ؟! • لقد صبحت ناقما حانقا وضربت له مثلا من دياره لاستفزاز مشاعره بأن سألته : « أيحب العربي (البدوى) أن يوصف بأنه مصرى – فلاح ؟ » • وكان بقية أفراد القافلة اما جلوسا أو مستلقين بين اليقطة والنوم فوق منبسطات خشنة هيأوها من أغطية صندوقين كبرين علقوها على جوانب ابلهم •

ولم يكن هناك من سمح لنفسه برفاهية تكلف نصف دولاد ، سوى امرأة عجوز هي السيدة مريم (الست مريم) التي كانت عائدة للمدينة المنورة ، وطنها المختار ، بعسد زيارة اختها في القاهرة ، اذ اتخذت شميرية Shibriyah أو سريرا خفيفا (له ظلة غالبـــا) ثبت بالعرض فوق أحمسال جمل • وأكثر من هذا ، فان كل أفسراد القافلة _ باستثناء عمر أفندى _ كانت عليهم علامات الفق_ر يرتدون أقذر الأسمال وأخشمنها ، وقد كان اللباس الشمائع بينهم يتكون من قميص ممزق في مواضم مختلفة ، وخرقة بالية ملفوفة حول الراس ٠ و يحملون شبقات Chibuks قصيرات (١) دون فوهات ، وأكياس تبغ من جلد غير مدبوع (زلق) · ومع أن المنطقة في هذه الأنحساء آمنة تماما ، الا أن الجمع الجميع قد جعلوا أسلحتهم على أهبة الاستعداد ، وساد صمت غير مالوف بعد توقف الغناء _ فحتى سيعد العملاق قد قبض لسانه ـ وهذا يعطى اشارة كافيـة تدل على مدى خوفهـم على ممتلكاتهم • وبعد مسيرة يعتريها بطء مدة ساعتين ، كنا خلالهما نواجه القمر ، اتجهنا شبيئا ما نحو الشمال الشرقى ، وبدأنا نمر فوق أرض متموجة تأخذ في الارتفاع باستمرار على نحو ملحوظ • ووصلنا إلى محطة التوقف (الاستراحة) في الساعة الثالثة صباحا بعد مسليرة قصسيرة لا تزيد عن سنة عشر ميلا قطعناها في ثماني ساعات . وأنخنا الجمال وكومنا الصناديق حذرا من الذين يسرقون خلسه ، ونصبت خيمتي الصغيرة وهي الخيمة الوحيدة في القافلة ، وفرشنا بسطنا على الأرض واستلقينا لننام •

واستيقظنا حوالي الساعة التاسعة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر يوليو ، وبعد أن تبادلنا التحية ، لأننا التقينا مرة أخسرى في

⁽۱) الشبق: بيبة تدخين تركية يبلغ طولها ٤ ال ٥ اقدام ، وتكتب احيانا . Chibouke ال Chibouque عن معجم المورد ... (المترجم) ،

هذه « الصحراء العزيزة » ، شرعنا نعدل أمزجتنا باشعال النار اللازمه للتدخين والافطار ، وسرعان ما أنهينا تناول افطارنا المكون من البسكويت وقليل من الأرز وكوب من الشماي بدون حليب ، وبعد ذلك شرعت في تبين موقعنا ، فعلى بعد حوالي ميسل الى الغرب تقع قرية المسسسهل Musahhal الصـــغيرة وهي مجمــوعة من المســـاكن (الأكـــواخ) الطينية البائسة • والى الجنوب كان شريط من بحر أزرق بهيج ، وكل ما تراه العين ، سهل من حديد لاينبت شيئا خلا أحجسار وجنادب (جراد صغير يعرف بالقبوط) ويحيط بالسهل من ناحية الشـــمال سمور رهیب متجهم من حجارة سود ، وتتناثر هنا وهناك شمحرات ـ لاتصلح الا كوقود _ أو بعض الأعشاب التي جعلتها الحرارة هشـــة ﴿ هشيماً ﴾ ، فقد سفعتها الشمس • فالحرارة المتهبة الساقطة من أعلى قد جففت نسمغ (٢) النبات ، وما يتخلل الأرض من ماء ، كلما أصحب المناخ ملتهبا عاصفا ، وأكثر من هذا ، فإن الندى الكثيف الذي يسقط بقطرات كبيرة على النباتات والأحجار في هذه المنطقة يجمع أشعة الصباح الساقطة عليها ليقوم بدور العدسة الحارقة (المحرقة) • وبعد أن جمعت هذه الملاحظات القليلة حذوت حذو رفاقي وعدت للنوم ٠

وفي الساعة الثانية بعد الظهر نهضنا لتنساول الغداء الذي كان يسبيطا بساطة طعام الافطار ، فقد كانت القائمة لاتشتمل الا على الارز المسلوق الذي سكبوا عليه كمية كبيرة من الزبد المقدوح الذي يحبسه الشرقيون كثيرا ، وبعض الكعك ، وخبز قديم غير جيد المذاق وقبضة من العجوة ، أما عن شرابنا ، فقد بدأنا قبل تناول الغداء نحتسى شرابا غير مستساغ وان كان مفيدا للصحة ، يسمونه اقط (*) ، وهو عبارة عن حليب حامض مجفف مذاب في الماء ، وعند تناول الوجبسة شرينا ماء له رائحة الجلد (القرب) ، وأنهينا وجبتنا بملء فنجان كبير من شاى ساخن ، لقد استهلكنا كميات كبيرة من السوائل فقسد بدا أن شاى ساخن ، لقد استهلكنا كميات كبيرة من السوائل فقسد بدا أن تعرضنا لوابل من المطر ، وبينما كنا نأكل مرت المسرأة بدوية بجوار الخيمة وكانت تقود قطيعا من الخراف والماعز ، ورأت تعبيراتي التي تنم عن رغبتي في أن أشرب حليبا ، وأرسل رفاقي لها قطعة خبز عن طريق أحد الجمالة طالبين منها كوب لبن مقابلها ، ولم أعرف الا الآن أن العرب

^(★) الاقط بفتح الهمزة وسكون القاف ، أو كسرها • (٢) السائل الذي يجرى في أوعية النبات حاملا الماء والغذاء... (المترجم)

حتى فى هذه المنطقة الفاسدة (التى تقبل الرشوة) Corrupt (٣) لازالوا يتمسكون بعدادة أجدادهم السقيمة (التى لامعنى لها) التى ترى فى اللبان أو يائع اللبن كل معانى الخسة والوضاعة ، وربما كان أصل هذا الرأى المنطوى على الظلم والاجحاف ، هو الاعتراف بحق المسافر فى الضيافة بأن يدعى لشرب الحليب مجانا (٤) ، وعلى أية حال فان بيع اللبن أمر معيب حتى فى مكة المتحضرة (غير البدوية) ولا يستثنى من ذلك الا المصريون .

وبشكل عام فالحليب يكش بالحجاز في الربيع ، ويعز بقية العام ، وعلى أية حال ، فان المرأة البدوية قد أعادت لى الكوب مليمًا باللبن ·

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كنا مستعدين للرحيل ، ورأيتسا جميعا ـ دون أن نعبر عن سعادتنا بالكلمات ـ سحابة سسوداء مشبعة ترتفع من كتف جبل رضوى ، وتتحرك لتعيد تشكيل نفسها ، وكأنها روح حارسة تحمينا من عدونا المفزع ، وأعنى به الشمس ، وأملنا أن تكون ممطرة ، الا أنه سرعان ما عصفت بالسسهل ربح سساخنة كأنها زفير البراكين وأصبح الهواء مشبعا بذرات الرمال ، انها عجاج شسبه الجزيرة العربية dry storm (٥) و بدت لى هذه الرياح ، وكأنها تعتمد على ظاهرة كهربية (تدخل الكهرباء في تحريكهسا) ، وقد يكون أمرا مرغوبا اخضاع هذه الظاهرة للبحث والدراسة ، وعندما حملنسا جمالنا وركبنا ، أتى الى اثنان من الجمالة وأنا في الشقدوف وطلبسا البقشيش ، ويبدو الآن أنها عادة اعتادوا عليها كلما شرعت القافلة في المستعبر عن هذا التصرف (طلب البقشيش) ، لكن بعد مكوثي في المجنمع المندي أياما قلائل تناقص عجبي ، لقد كان هؤلاء الرجسال (طالبو

⁽٣) العرب الآن - وحتى البدو - فيما اعلم أصبحوا يبيعون كل شيء بما في ذلك الحليب ولا يجدون حرجا في ذلك • وتأسست شركات يديرها بدو وغير بدو لبيع الحليب ومنتجات الألبان - (المترجم) •

⁽٤) يقصد بيرتون أن المصريين لا يجدون حرجا في بيع اللبن ، لذلك فالبدو لا يحترمون فيهم هذه العادة والحقيقة أن اطلاق لمقظ « المصريين » على عواهنه هكذا فيه تجاوز ، فالبدو المصريون لهم العادات نفسها المتى أشار لها بيرتون ، وأن كانت قد تعدلت بمرور الزمن ساواء في مصر أو غيرها (انظر الحاشية السابقة) وقد أورد بيرتون في هذا السياق جملة فضلنا حذفها من المتن هي :

Except Egyptians, a people Supposed to be utterly without honour.

^(°) وتسمى في الخليج العربي باسم (الطور) ، ولمي وسط البوزيرة العربيسة (المعجاج) وهي (كالخماسين) في مصر - (المترجم) •

البقشيش) من بني حرب احدى قبائل الحجاز الكبرة التي احتفظت بنقاء دمها خلال الثلاثة عشر قرنا الأخيرة _ يالكثرة الأمور التي لا نعرفها ! فهذه القبيلة العريقة قد أفسدها التعامل مع الحجاج ، فلم يعودوا يحتفظون بشيء من تراث أجدادهم الا الجشيع في جمع الأموال ، والحقد ، وحب المشاكسة والاقتتال ، ونوع من الشجاعة الفائقة التي تتجلى في مناسبات تادرة • وعلى أية حال فان نبلهم (شرف محتدهم) لا يمنعني من ايراد حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « أسوأ أسماء العرب : بنو كلب ، وبنو حرب » (٦) · ورحت أوبخهم بشدة (رجال بني حرب الذين طلبوا البقشيش)مشبها اياهم بفلاحي مصر ، لكنهم لم يمتعضوا بشدة من جراء ذلك لأن هذه العادة (طلب البقشيش) نابعة من قبيلتهم (شعبهم) ، الا أن الحاج التركى ـ وهي الشيخصية التي ظنوا أنني أتقمصها رغم لباسي العربي - تعد شخصية مميزة ٠ وكان الرجل الواقف بعيدا شيئا ما من أولاد حرب (بني حرب) هؤلاء ، وضيعا ، فقد كان. مخلوقا ضئيل الحجم ذا سحنة بنية كالشبكولاتة ، قزما ، تحيلا ، له خصلة شمعر كثيفة سفعتها الشمس فجعلتها بنية اللون ، له صوت صارخ ، وله شفاه أحسن الله خلقها ، لكنها رقيقة (نحيلة) • وكان رجلا حرب يضم الواحد منهما على رأسه (كوفية) ويرتدى قميصما ممزقا مصبوغًا بالنيلة ، عليه حزام عبارة عن قطعة من حبل عادي • وكانا يحميان اخمصي قدميهما من الأحجار بنعلين من جلد سميك يخرج منهما سيور (جمع : سير) يلفانها حول كواحل أقدامهما • وكانكلا الرجلين مسسلحا أحدهما ببندقية فتيل ، وشسنتيان Shintiyan (٧) في غمد جلدى معلق على كتفه ، أما الثاني فكان مسلحا بنبوت ، وكلا الرجلين كان يضع في وسنطه جنبية (خنجرا) ، فالجنبية رفيق العربي • وعلى أية حال فقد كانا معتزين بنفسيهما رغم لباسسهما الزرى • لقد كانا يأكلان معي ، ولم يكونا يأنفان من طلب المزيد ــ كما يفعل بعض السادة (أو الفرسان) الأسبان ــ لكنهما اذا حان وقت العمل ، لا يفعلان شيئا • فلا الوعد بدفع البقشيش سيحثهما على مساعدتي في نصب خيمتي ،

⁽۱) ليس المتصود دم هذه القبائل ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم حث على استخدام الاسماء الطيبة التي تدعو للتفاؤل والعبودية لله سبحانه كعبد الرحمن وعبد الله والحسن والحسين ٠٠٠ المن – (المترجم) •

 ⁽۲) اسم محلى لنوع من السيوف يبلغ ثمنه من سبعة جنيهات استرلينية الى ثمانية ،
 والانوع التي منعت حديثا منه يبلغ سعرها حوالى عشرة جنيهات استرلينية - (ملخص تعليق بيرتون) .

لقد كانا يتوقعان أن يعد لهما حتى طعامهما (يطبخ لهما) • وكان على و في معظم الأحوال - أن أستخدم الشدة ، فحتى عذرى المتجلى فى قدمى المعطوبة ، كان غير كاف لأن يدبروا أمر وضع الشقدوف الخاص بى على ظهر جملى وهو مناخ • ويقولون انها عادة قديمة منذ زمن سحيق فى هذه المنطقة أن يستخدموا السلم اذا كانت أقدام الراكب يلم بها الألم • ووافقتهم على قولهم ، لكننى ذكرت لهم أنه ليس لدى سلم • وأخيرا وقد تعبت من عنادهم - نزعت (خطفت لجام الجمل وأجبرته - بالقوة نفسها - على الاناخة (أن يبرك) •

لقد كانت جماعة القافلة الآن على درجة كافية من القوة • لقد كان قى القافلة حوالى مائتى دابة تحمل الغلال التى جلبها أصحابها دوو النظرة القاسية المريعة وكأنهم مهربون (٨) • وكان حرس القافلة بتكون من سبعة فرسان ترك غير نظامين مزودين بمستودع أسلحة مصغر (المقصود أنهم يحملون مختلف الأسلحة) ، وكانوا هم بالذات محل سخرية جماعتنا الذين ـ لكونهم عربا ـ يكنون اعزازا خفيا للبدو ، وعلى أية حال ، فربما كان نفور جماعتنا لهؤلاء الفرسان الترك راجعا لوجاودهم بين الصناديق (٩) •

لقد ظللنا مسافرين في اتجاه الجنوب الشرقي طوال ثلاث ساعات في سهل قاس ومسطح رملي ، وفي هذا السهل وجدت بعض المياه الهابطة من لمرتفعات طريقها الى البحر غربا عبر مجار حفرتها و بالتدريج كنا نقترب نحو الجبال وعندما غربت الشمس لاحظت أننا قد اقتربنا منها بشكل ملحوظ و ترجلنا لاستراحة قصيرة ، ولوجود غرباء ، فان رفاقي أدوا صلاة المغرب دلالة التقوى قبل أن يجلسوا للتدخين ، تلك الصلاة التي لم يؤدوها طوال ثلاثة أيام بعد ذلك عندما التقوا ببعض معارفهم في قرية الحدورا 'Al-Hamra ، وعندما أوغل المساء (بعد المغرب) انطلقنا من لدن مجموعة أشجار أكاسيا Acacia (١١)

A: the contrabandistas of the pyrences. : النص : (٨)

⁽المترجم) •

⁽٩) النص : "to see them amongst the boxes". وربما يقصد خوف جماعة القافلة من عبث هؤلاء الفرسان بالصمناديق أو ممتلكات القافلة ٠٠ الخ ــ (المترجم) ٠

⁽١٠) اشجار السلم ، والمقرد سلمه ، ويطلق عليه في مصر المستط ، عن معجم الشهابي لصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

⁽۱۱) الاسم الشائع هو الاثل بفتح الألف وتسكين الثاء · ومنه انواع عديدة واجع معجم الشهابي آنف الذكر ـ (المترجم) ·

واتخذنا سبيلنا في الاتجاه الشرقى مباشرة وعبرنا منطقة مكشوفة ونحن تسير صعدا (ترتفع بنا الأرض تدريجيا) بشكل ملحوظ ، وبعد أن أظلمت الدنيا بالكاد انطلقت صرخة مدوية من مؤخرة القافلة ، « حرامي » فتسبب ذلك في احداث فوضى ، كتلك الفوضى التي يمكن أن تحدث في قارب بخليج نابلي Naples عندالاقتراب فجأة من دوامة ماء (اعصار ماثى) فكل الجمالة لوحوا بهراواتهم الغليظة ، وانطلقوا راجعين صوب اللصوص وهم يصيحون مهددين متوعدين • وتبعهم الفرسان (الخيالة) • والحقيقة أنه كان لدى اللصوص من الحدة والشدة والمكر وغيرها من الصفات التي يتصف بها من يتخذ من اللصوصية مهنة • فربما يكونون قد ساقوا جمال جناح قافلتنا بعيدا بأمان واطمئنان • لكن هؤلاء التافهين الجديرين بالازدراء كانوا سيتة أشخاص فقط ، وقد أطلقوا قذيفة أو قديفتين من بنادقهم ذوات الفتائل في اتجاههم • ومن ثم فقد ولوا الادبار • وأثارت هذه الحادثة دهشة غير قليلة فقد بدت تذيرا بأمور أكثر سوءا على وشك أن نواجهها ، عندما وقعنا في شرك بين التلال ، أما وجوء رفاقي التي أصبحت بمثابة بارومترات دقيقة تقيس الخير وأنباء السوء ، فقد هبطت الى درجة الصفر ، فلمدة تسع ساعات ظللنا نشق طريقنا في ضوم القمر المتالق ، وحالما ظهر خط رمادي في أفق السماء الشرقي ، حتى دخلنا مسيلا. Misyal (١٢) ضيقا مكسوا بالحصى والأحجار المكورة ، يبلغ عرضه (أى المسيل) زهاء نصف ميل وتحيط به تلال متعامدة تقريبًا ذات تكوينات بدائية ، وقد بدأت بالسؤال عن أسماء القمم وغيرها من المعالم البارزة ، الا أنني وجدت مجلدا من الورق ذي القطع الكبير أن يتحمل تسمجيل ملاحظات يسستفرق جمعها ثلاثة أشهر ، فكلّ تل ، وكل واد عريض ، وكل منبسط من الأرض ، وكل مجرى ماثى له اسم حاص به أو أكثر ، في هذه الأنحاء • والبراعة التي يبديها البدو في التميين بين المواضع المتشابهة شبها شديدا ، ترجع الى سمو مداركهم أو ملكاتهم الطبيعية التي صقلتها الممارسة بملاحظة التكرار (أو التشابه) في ملامح صفحة الأرض ، تلك الملامح التي لاتختلف فيما بينها الا قليلا . وبعد أن سرنا ساعتين في قاع هذا المسيل (السيل) في اتجاه الشرق ، وعبسور بعض الحرات Harrah (الحيسود الصسخرية) والعقبسات (المنحدرات الحادة) Ria وأراض صخرية مستوية وقطع من سهيل Sahil ، وجدنا أنفسنا في حوالي الساعة الثانية صباحاً بعد مسيرة حوالي أربعة وثلاثين ميلا عند بيرسعيد ، وهو المحطة التي نبغي الوصول اليها

⁽۱۲) مجرى مائيا جالما ب (المترجم)

لقد كان هناك من جعلني أتوقع أن أرى عند البئر منظرا ريفيا أو رعويا ، ووردا بريا ومياها منسابة ، لذا فقد نظرت مشمئزا لحفرة عميقة مليئة بالمياه الخفيفة التي تعتريها ملوحة ، ومحفورة في تجويف يشبه الوعاء المثقوب ولها جدران جرائيتية ، وعند سطحه الكالح نمت. شبجيرات شوك لآبد أنها ذات شبجاعة فائقة لتحديها الشمس الحسارقة • ولم أر مسكنا على مدى رؤيتى • لقد كانت منطقة البثر قاحلة ومنعزلة فالشمس تبدو هنا في ذروة مجدها • وعلى أية حال فهذا ما يجب أن يتوقعه الرحالة في شبه الجزيرة العربية فعليه أن يقاوم - على سبيل المثال الفكرة التي تنعثق في عقله عن وادى الورد • انه سيطلق العنان لخياله في تصور مجموعة من البحيرات الهندية الجميلة التي تحفها أزمار اللوتس ، والسهول الفارسية الملأى بالأزهار التي يعد النرجس أقلها جمالا ٠ ان الواقع سيرده لحقيقة الأمر اذ يرى سهلا فيه هضاب مدورة معزولة من جرانيت وبين كل خمسين ياردة وأخرى يرى برعما بالسا سيىء الطالع يموت لوجوده بين الصخور حيث لاحياة • لقد أحرقت الشمس أقدامنا ونحن ننصب الخيمة ، وبعد تناول الافطار أمضينا يوما عاديا في مسم العرق ، والنعاس • وعندما يكون المرء مرهقا من الطبيعي أن يأمل في التغيير حتى لو كان تغييرا لما هو أسوأ • وعندما بدأ عدونا يميل نحو الغرب (يقصه الشمس) شعرنا بأن لدينا الاستعداد الكافي للاستمرار في رحلتنا ، فبعد الساعة لثالثة من اليوم العشرين من شهر يوليو حملنا الجمال بسرعة وبدأنا ــ وقلل (جرار) الماء في أيدينا ـــ الرحلة خلال عواصف السموم (١٣)

لقد سافرنا طوال خمس ساعات فى اتجاه الشمال الشرقى عبر واد مائل (١٤) يمثل منطقة متفردة فى انعزالها ... كتل من تلال ضبخام ، وسهول جرداء ، وأودية صحراوية • فحتى أشبجار السنط شديدة التحمل قد سقطت هنا ، وفى بعض المواضع لم يجد الشوك الذى تأكله الجمال تربة كافية ليمد جذوره فيها • وكان الطريق الذى نسلكه متعرجا بين الجبال والصخور وتلال الجرانيت ، وفوق أرض متكسرة تحيطها كتل ضخمة وجلاميد (١٥) مكومة وكأنما تدخل فن بشرى فساعد الطبيعة على تشويه ذاتها • وتبدو صدوع (شقوق) واسعة وكأنها ندب (جمع ندبة) على وجه الأرض تعطى سطحها منظرا بشعا وقد السعت هذه الشقوق عنا لتصبح كهوفا مظلمة ، وهناك كانت هسدودة برمال تتلألا ، جرفتها

⁽۱۲) في الأصل : Samun وهو خطأ مطبعي غالباً ... (المترجم) ٠

diagonal (\E)

⁽١٥) جمع جلمود ، والجلمود هو السجر المكور ... (المترجم) ٠

(الرياح أو السيول)، ولا يرى المرء هنا منظر طير أو حيوان، ولا يسمع لهما صوتا، فوجودهما يدل على قرب الماء ورغم أن رفاقي يعتقدون أن البدو كانوا يختبئون بين الصخور، الا أنني قررت أن هؤلاء البدو الذين يتصورون وجودهم ما هم الا مخلوقات خلقها الرعب الكامن في قلوبهم (قلوب رفاقه)، واذا نظرنا الى الأعلى، وجدنا سماء كأنما هي قطعة صلب مصقولة ومدهونة باللون الأزرق، ذات وهج أصفر مبهر من شدة الضياء، يسطع علينا دون أدنى حائل من غلالة سحاب واذا نظرنا الى أسفل منا وجدنا دائرة بلون النحاس تشبوى وجوهنا وتعمى أيصارنا لفرط توهجها، وتقدم لنا سرابا من ماء بينما هو هواء وكانت المناظر البعيدة أكثر تشويقا من المناظر القريبة لأنها تقتبس لونا لازورديا خفيفا من الخلاف الجوى الا أن القيم المثلمة وخطوط الظلال العمودية تحت خفيفا من الخلفيات الجبلية — كل ذلك يجعلنا لا نتوقع جوا أفضل و

وبين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة ليلا ، وصلنا الى مجموعة مساكن ، وهو ما لم نره منذ غادرنا قرية المسيهل Al-Musahhal وكانت هــذه المســاكن تتخذ شكل قرية تنتشر مبانيها بغير نظام ، واسمها الحمرا Al-Hamra نظرا لحمرة الرمال القريبة منها ، كما تسمى الوسيطة Al-Wasitah (١٦) والأنها في منتصف المسافة من ينبع الى المدينة (المنورة) • وعلى هذا فقد عين بوركهارت موضعها على خريطته تعيينا خاطئا بشكل ملحوظ ٠ كما أن الذين نقلوا عنه جعلوها أكثر قربا من البحر مما هي عليه بالفعل · لقد جلنا قرابة الساعة بحثا عن مكان تعسكر فيه ، لأن أهل هذه القرية كانوا غلاظا فشوشوا علينا طالبين منا عدم الاقامة في أية قطعة أرض مستوية ، دون أن يتكرموا بدلنا عن موضع ننيخ فيه دوابنا المرهقة • وأخيرا وجدنا بقعة مناسبة ، بعد مشاحنات كثيرة • فأنزلنا أحمال الابل ونشرنا الصناديق وبقية الأمتعة على شكل دائرة لمزيد من الأمان اتقاء لشر اللصوص الذين يغص بهم هذا البجزء من الطريق ، وافترش رفاقي سبجاجيدهم وناموا فوق أمتعتهم ذات القيمة ، وحذوت حذوهم ، لكن الازعاج أصابني ــ بكل ما في كلمة الازعاج من معنى ــ بسبب قربي من غطيطهم وشخيرهم ، فابتعدت عنهم • واعترت الدهشة بعضهم بسبب عناد هذا الحاج الأفغاني وطيشه (١٧) ، لكن مقاومة هؤلاء الناس (رفاقه) أحيانا تكون من الأمور المطلوبة ، كما أن رجلًا من كابول (١٨) له أن يقوال ما يشناء ، وأن يأتي بأمور غريبة ٠

⁽١٦) تنطق عادة (الواسطة) ، وقد سمعت ذلك من بعض الحجازيين - (المترجم) ·

⁽١٧) يقصد نفسه ... (المترجم)

٠ (المترجم) ... نفسه ... (١٨)

وكرد على تحذيراتهم من مخاطر الليل ، وضعت سيفى المعقوف بجانبى وحشوت مسدسى ووضعته تحت وسادتى ، أعنى خرج جملى ، وبسطت السحادة فوق الرمال الباردة المتحركة لأجعل منها سريرا غير مريح بلا شك ، ومع هذا فقد تمتعت بنوم عميق حتى طلع النهار .

لقد استيقظت فجر اليوم الواحد والعشرين من شهر يوليو ، وبدأت بريارة القرية التى بنيت فوق رف صخرى ضيق عند قمة تل شهديد الانحدار ، صوب الشمال ، أما الى الجنوب فيجرى من قمة التل مسيل رملى يبلغ عرضه نصف الميل ، وفي كل الجوانب توجد الصخور والجبال الحجرية الصلدة ، ولذا فأنت تجد نفسك ازاء تجويفات محفورة يعتبرها العرب مواقع مختارة لاقامة المستقرات ، والمسيل في هذا الجوار متعرج جدا ، ويشهق الأرض المرتفعة هابطا من هضبة المدينة (المنورة) سيلا عارما ويحمل من صوب الغرب الى البحر الأحمر صرف مياه مئات التلال ، ويمكن الحصول على مياه جيدة في هذا المسيل ، بالحفر بضعة الدالم تحت السطح عند الزوايا حيث يشكل ماء السيل ، بالحفر بضعة أقدام تحت السطح عند الزوايا حيث يشكل ماء السيل اعمق الفجوات ، وفي بعض الأحيان تؤدى الجوانب الصخرية لهذه الفجوات الى احداث ينابيم لها بقبقة (صوت الماء) ،

والحمراء نفسها مجموعة من المنازل الصغيرة المنعزلة _ وان كان الأقرب للصحة أنها مجموعة من العرائش المسقوفة ، وهي مشيدة من الطوب اللبن والطين ، ومسقوفة بجريد النخل ، وبها طاقات (جمع طاقة) لادخال الهواء ، لبعضها ميزة وجود قطعة من الخشب تغلق وتفتح وتبدو الحمراء كثيفة السكان في المناطق التي توجد بها أسوار ، لكنها _ كسائر القرى والمستقرات _ في الحجاز تسودها الخرائب ، وتزود الحمراء تزويدا جيدا بالمؤن وهي أرخص منها في المدينة (المنورة) وهذا مما دفع سعد العملاق أن يحمل جمله البائس تحميلا زائدا بأجولة القمح ، وفي الحمراء دكاكين قليلة يمكن للمرء أن يشتري منها الغلال ، ونبات للسان الحمل (١٩) أو موز الهند بحجمه الكبير ، والخبز ، والأرز ، والسمن ، وغير ذلك مما هو صالح للآكل ، وتمد بساتين النخيل الواسعة والسمن ، وغير ذلك مما هو صالح للآكل ، وتمد بساتين النخيل الواسعة القرية بالتمور ، والسوق هنا _ كما هو الحال في مثل هذه الأماكن في قرى شرق شبه الجزيرة العربية _ عبارة عن طريق طويل مغطي بالحصير هنا ، ومكشوف للشمس هناك ، والشوارع الضيقة (ان جاز لنا تسميتها هنا ، ومكشوف للشمس هناك ، والشوارع الضيقة (ان جاز لنا تسميتها

⁽١٩) عن معجم الشهابى للعلوم الزراعية : Plantain لسان المحمل أو آذان الجدى نبات من الفصيلة الحملية ، كما تعنى موز الهند ، ولا ندرى أيهما المقصور - (المترجم) •

شوارع) مليئة بالتراب ، ومعرضة لوهج الشمس ، وبالقرب من مكان. عسكرة (تخييم) القافلة توجد قلعة للقائد العسكرى الذي يرأس فرقة من الخيالة الألبان الذين يقع على عاتقهم الدفاع عن القرية وضبط النظام في المنطقة وحراسة التنجار المسافرين • ويتكون المبنى من سور خارجي من حجارة منحوتة به كوات (جمع كوة) لاطلاق البنادق قديمة الطراز (المسكيت) ، ويتم الصعود اليه بشراريف Shara (بالمسكيت) وفائدته لصد المدفعية كفائدة ممر السكر حدول كعمكة twelfth-Cake (۲۰) • ولا شيء يهكن أن يــكون أســـهل من عيد الغطاس مهاجمة المكان فالهجوم الكاذب (في مناورة تدريبية) قد يلفت نظر المدافعين الذين لا يعرفون في هذه العروض (المناطق) شبيمًا عن أصول الحراسة ، بينما قد يتيح استخدام المرقاة (سلم لتسلق أسوار المدن المحصنة) أو حقيبة مملوءة بالبارود ـ مدخلا جاهزا في الجانب الآخر . وحول قلعة (الحمسرا) توجه مجموعة من العرائلس من جريد النخهل يستجم فيها العسكر ويدخنون ، وبالقرب منها مقهى معتادة وهي ظاة يحتفظ بها الألبان • وهذه العرائش ، وهذه المقهى يرتادهما العسكر بشكل متتابع نظرا لحرارة الجو داخل القلعة ٠

لقد أمضينا يوما لا راحة فيه في قرية الحمرا ٠ وكان الرعاة يرعون قطعانا كبيرة من الخراف والماعز ، داخلين القرية ، وخارجين منها ، الا أن هؤلاء الرعاة كانوا غلاظ الأكباد فلم يعطونا لبنا ولا حتى مقابل الخبز واللحم ٠ وأمضينا النهار في ملاحظة البدو الذين يحملون البنادق ذوات الفتائل وهم يتسلقون التلال اثر مجملوعات الكركي (الكراكي) Cranes ، ولم يسلقط طائر واحد ، رغم الطلقات الكثيرة التي أطلقت عليه وهو ما يتناقض مع القول المعاد عن براعتهم في الرماية ٠ وقبل الافطار اشتريت خزوفا متوسط الحجم بدولار ٠ وحلله (ذبحه وفقا للشريعة الاسلامية) الشيخ حامد ، وسرعان ما أعد رفاقي افطارا من لحم ضأن مسلوق ، الا أن هذا الخروف كان سببا للنزاع ، فالولد محمد باع ضأن مسلوق ، الا أن هذا الخروف كان سببا للنزاع ، فالولد محمد باع الصفقة (٢١) وانهالوا بزعامة سعد العملاق ذي اللسلاميات الذرب الوقح بسيل من السخرية والتهكم على هذا التاجر التافه (تاجر الكروش) (٢٢)

⁽٢٠) السخرية واضمة .. (المترجم)

⁽٢١) استخدم بيرتون كلمة Haggis وهو طعام اسكتلندى من قلب الخروف وكبده ساى ضبياع نصيبهم من (الوجبة) أو من الأكلة • كقولنا فاته الثريد أو (الفتة) أو ضاعت منه الشورية (الحساء) • • وهكذا سا (المترجم) •

الذي استثاره تهكمهم فغدا هو الآخر هائجا غاضبا و وجدت بعض الصعوبة في احلال السلام بينهم فلم يكن من مصلحتي أن يتعاركوا الا أنه لتطبيق العدالة وفقا لعادات العرب ، فلا أيسر على من يعرفهم من العزف على مشاعرهم الطيبة فقولك لهم « انه غريب في بلادكم ، انه ضيف » عبارة تفعل مفعول التعويذة ، فاستمعوا بصبر لشتائم محمد الفاحشة ، ووعدوا بألا يردوا عليه الا في بلده التي يقال انها بالقرب من مكة (لمكرمة) ، غير أن ما عكر علينا بومنا على نحو خاص ، هو ما قيل من أن سعدا شيخ المنسر (رئيس المصوص الكبير) وأخاه كانا في حالة نشاط ، وعلى هذا فان مسيرتنا ستتأخر لبعض الوقت ، وكان يعض القيل والقال يأتينا كل نصف ساعة من المخيم أو المقهى ، فيضيف وقودا الى نار صبرنا النافد ،

ان القليل من التفاصيل عن ظاهرة شيوخ المنسر (٢٣) ، (أو شيوخ اللصسوص) في الحجاز قد يكون مقبولا ١٠ انه زعيم (شبيخ) صميدة Sumaydah ، وكلاهما فرعان قرويان من بطن حميدة Hamidah الفرع الرئيسي من قبيلة حرب البدوية · لذا فقد كان يطمع في حكم (مشيخة) بطن حميدة كلها ومن خلالهم يحكم بني حرب، وفي هذه الحالة فانه يكون قد اعتلى عرش الديار المقدسة (الحجاز) بحكم الأمر الواقع ١ الا أن شريف مكة ، وأحمد باشا ، الحاكم التركي للمدينة الرئيسية (غالبا مكة) قد عزله ، ورضع من شأن منافسه الشيخ فهد وهو وغد آخر على الشاكلة نفسها ، نهى يطلق على نفسه لقب الشيخ Sub-famity of وهم الفرع الثالث لبطن حميدة Amr · Hamidah family · ومن ثم فقد نشأ كل أنواع النزاع والفوضي · فقبيلة (شعب) سعد الذين يقال ان عددهم ٥٠٠٠ امتعضوا ، بحدة العرب وقوتهم ، للاهانة التي لحقت بزعيمهم (شبيخهم) ، فضربوا جماعة (عشيرة) فهد التي لا تزيد على ٥٠٠ الا أنه الشيخ فهد ــ الذي تؤيده الحكومة _ منع الامدادات عن عشيرة سعد • وكلا الرجلين (سعد وفهد) على درجة واحدة من القسوة والطيش ، فأنت لا تجد في أي مكان آخر « الطيبة » المجيدة « والحرية » تظهران وجها نحاسيا صفيقا كما هو لدى الشرقي:

⁽۲۲) استخدم بیرترن تعبیر Triple seller و تاجر الکروش آو بائع الکروش تعبیر یفید آن الشیء المباع تافه لا یستحق کل هذا ـ (المترجم) •

⁽۲۳) استخدم بيرتون كلمة Schinderhans (المترجم) •

⁽٢٤) استخدم بيرتون "Liber:y" ووضعها بين قوسين والمتصود هنا القمة وتجاوز الحدود ـ (المترجم) •

« أرض الشجعان والأحرار التي لا تنتهك حرمتها »

« Inviolate land of the brave and free » (٢٥)

فقد انتهز الطرفان الفرصــة فأطلقوا النــار على الجنــود ، وسيسلبوا المسسافرين وقطعسوا الطريق واستستمرت هذه الفوضي حتى غادرت الحجاز ، إلى أن اقترح شريف مكة - كما يقال -أن يمسك زمام الأمر بنفسه ضد الزعيم اللص (شبيخ اللصوص) • وكما ستنقرأ بعد ذلك في هذه الصفحات ، فان سعدا كان لديه من الجرأة والوقاحة ما جعلته يعيد محمل السلطان رمز السلطة الامبراطورية (العثمانية) ، ويغلق الطريق في وجه رجال السلطان ، لان قافلتي بإشـــاوات المدينة ، وباشوات قافلة دمشق ، رفضوا التعهد باعادته الى مكانته السابقة (الى رتبته الأولى) ووجود مثل هؤلاء الأشخاص التافهين (الهدوام) يعطى الفرصة للبرهنة على بلاهة الحكومة التركية · فالسلطان يدفع الأعطيات من قمح وملابس لكل الشبيوخ القبليين الذين يقومسون بدورهم بتسليح أوغادهم (رجالهم) ليعملوا ضده (أى ضد السلطان) ، كما أن الباشاوات ـ بعد أن يكونوا قد سرقوا كل ما يستطيعون ـ يقدمون لأعدائهم وسائل التمرد • أنه أمر لا يحتمل ألا يسمع السلطان عبد المجيد كلمة صدق واحدة عن الحجاز فحاله يته البغيضة تصور له أن أهل الحجاز يرتعدون من ذكر اسمه • وعلى أية حال ، فان حكومة السلطان عبه المجيد راغبة ان كانت التقارير التي تصلها صادقة في جعل الحجاز على عاتق الحكومة المصرية التي ستدفيع عن طواغية ورغبة مبلغها كبيرا لتجنب مثل هذه الكوارث • فالأرض المقدسة تستنزف الذهب التركي والدماء التركيــة بشدة ومثمايخ العرب يقومون بدور وضيع ، فهم حتى أذا قبضوا على لص فانهم لا يجسرون على شنقه ٠

فالترك يدعون التفوق على العرب ، ويكرهونهم ، والعرب بدورهم يحتقرونهم • وفي الحجاز قد تكون تأثيرات خط كلخانة (٢٦) the Charter of Gulkhanah تتأثير دواء لجميع الأمراض ــ مثل دواء

هولواى Holloway's pill ماواجهة كل الشرور التي ورثها الترك والعرب والسموريون واليونانيون والصريون والغرس والأرمن والمسكرد

⁽٢٥) من الواضع أن بيراون يسوق هذا البيت من الشعر على سبيل الشبخرية ... (المترجم) *

⁽٢٦) صدر خط كلخانة المشهور سنة ١٨٣٩ (٢٦ شعبان ١٢٥٥) ، وهو مجموعة قوانين اصلاحية على النسق الأوربي مع مراعاة الشريعة الاسلامية ، وصدر في عهد السلطان عبد المجيد ـ ويريد بيرتون أن يقول أن الشرق لا يصلح له الا تنظيمات مستقاة من تراثه .

راجع : محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية • ص ٧٠٢ (نشر دار النفائس) •

والألبان و ونتائج التنظيمات هذه Tanzimat (۲۷) تعد أغبى تفليد للغباء الاوروبي ـ البيروقراطية والمركزية ـ ان تركيا لا تكف عن ممارسة « التجريب » في حكم البلاد التابعة لها وفي ظل الحكم المطلق قوى اليد والقلب ، كحكم محمد على ، فان الحجاز في خلاله جيل واحد قد يتخلص من هذا الطاعون (۲۸) فتلك الآلاف القليسلة من اللصوص وقطاع الطرق انصاف العراه الذين يجعلون البلاد ديار حرب سيختفون حالا ويطويهم النسيان ، اذا طبق بحزم مبدأ الاخد بالثأر ، وإذا قدمت المساعدات الفعالة للطبقات الضعيفة ضد الطبقات الاوى ، وإذا أوقفنا كل بدوى عند حده ، فالبدى يعتبر البداوة فخرا له ، وفوق كل هذا ، اذا طبقنا العدالة بشكل فالبدى يعتبر البداوة فخرا له ، وفوق كل هذا ، اذا طبقنا العدالة بشكل فالبدى ألفيانة والتشريعات الجديدة ، أن الامر يتطلب ما دعاه ملتون :

« الحكم القاسي الحكومة متمدنسة »

« The Solid rule of Civil government »

فهذا المبدأ قد فعل الأعاجيب بالنسبة للجنس الذى رعى فكرة التلقائية في منظماته ووصل بها الى درجة الكمال ولا زال على العالم أن يعلم أن القواعد الدخيلة (المجلوبة) سهوف تزدهر بين نبها الحجاز الزائفين (٢٩) • فلسنا في حاجة الى عيون تتنبأ لنتوقع اليوم الذى يحرر الوهابيون أو البدو البلاد من الفاتحين الضعفاء (٣٠) •

لقد وصف ئى سعد الجبلى العجوز بانه بدوى أسمر صغير الحجم، تزدريه العين لكنه ذو شبجاعة ملحوظة ، كما أنه حاضر البديهة • ويحمل أثرا حادا من جراء غدر حاق به ، فثاره عند عبد المطلب شريف مكة الحالى، الذى قتل ابن أخيه ، وعداؤه لبعض السلاطين ــ كل ذلك قد جعل حياته خطرة حافلة بالأحداث • لقد فقد أسنانه بسبب سم كان من المكن أن يقضى عليه ، لكن ذلك لم يحدث بعد أن شرب مقدار وعاء كبير من السمن ، فقضت هذه الجرعة من السمن على أثر السم • ومنذ ذلك الحين وهو يعيش فقضت هذه الجرعة من السمن يجمعها بنفسه ، والقهوة التي يعدها بيديه •

⁽٢٧) المقصود تنظيمات خط كلخانة - (المترجم) ٠

⁽٢٨) المقمسود الفوضى وانعدام الأمن ٥٠٠ اليخ (المترجم) ٠

⁽٢٩) كتبت هذه الملاحظة ١٨٥٣ ولا أجد داعيا لتغييرها سنة ١٨٧٨ (بيرتون) ٠

⁽٣٠) لقد انتصر السلفيون فعلا ووجدوا جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية بعد ذلك ، واسسوا مملكة شاسعة هي المملكة العربية السعودية ... (المترجم) •

وفى فترة حكم السلطان محمود تلقى من اسطنبول (القسطنطينية) كيسما جميلا ، وطلب منه أن يفتحه لأن به أشبياء تخصه بالذات ، ولانه كان يتوقع الغدر ، فقد قدم الكيس لأحد عبيده كي يفتحه بعيدا عنه بمسافة كَافْية ، فلما شرع في فتحه انطلقت رصاصة أصابت العبد من مسدس كان مثبتا بشمكل خداعي في طيات الكيس وسبواء أكانت هذه القصة المعروفة جيدا ، حقيقية أم مجرد نسبج محبوك ، فالذي لا شك فيه أن الشبيخ سعدا يِخَافُ الآن من الترك حتى لو قدموا له الهدايا • فالسلطان يرسل له _ أو من المفترض ذلك _ هدايا من خيول جميلة ، وخلع تشريفية ، وكميات كبيرة من الغلال ، الا أن السبيخ يثق في تلاله أكثر من ثقته بالخيول ، فيبيعها ، ويتخلص من الثياب بتقديمها لعبيده ، ويوزع الغلال على عشيرته • وعن شخصيته ، فسان الرجال يتخذون منها موقفين : بعضهم يمتدح كرمه ويسمونه صديق الفقراء لأنه _ وهذا مؤكد _ عدو للأغنياء • وآخرون على العكس من ذلك ـ ينعتونه بالقسوة وبرود الدم ، ويذكرون أنه معروف حتى بين العرب بجشعه وحقده • وربما كانت حقيقة شخصية الرجل وسطا بين هذين الرأيين المتطرفين ، لكنني لاحظت أن رفاقي الذين يتحدثون باستعلاء عن زعيم اللصوص هذا وهم بعيدون يبدون في حالة رعب وهم تحت ظلال تلاله ٠

و (الحمرا) هي المعطسة الثالثة من المدينة (المنورة) في الدرب السلطاني the Darb-Sultani أو الطريق العسالي والخط الغربي يؤدى الى مكة (المكرمة) على طول ساحل البحر واذا أذن اللصوص فان العجاج يفضلون هذا الطريق لا عتدال مناحه وتيسر الماء به وقربه من البحر ولمروره ببدر التي شهدت أولى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية للهجرة وبعد منتصف النهار في اليوم الواحد والعشرين من شهر يوليو بعد أن رتبنا أمورنا على أن القسدر شاء أن نتوقف في الحدر أ)، وصلت من مكة (المكرمة) قافلة، وكان هؤلاء المسافرون الجدد حريصين على اصطحاب حرس معهم وأن يتخذوا طريقهم بسرعة ودون تأخير للمدينة (المنورة) وقد ملاتنا هذه الأخبار الطيبة بالسرور وبعد الساعة الرابعة مساء يقليل حثنا جمالنا اللاهثة على المسير فوق الرمال الملتهبة للحاق بالمكيين الذين كانوا متأهبين للمسير في الجانب الآخر من الملتهبة للحاق بالمكيين الذين كانوا متأهبين للمسير في الجانب الآخر من الملتهبة للحاق بالمكيين الذين كانوا متأهبين للمسير في الجانب الآخر من بطن السيل (المسيل) وبعد ذلك بساعة اتخذنا اتجاها شرقيا و

وقد وجد رفاقی فی قافلة المكين أصدقاء وأقارب ، فأخو الولد محمد الأكبر الذى سأتحدث عنه فی موضع آخر كان فی عداد هؤلاء الذين كانت

جعبهم (جمع جعبة) ملأى بالأخبار والعجائب . ولما غربت الشمس أدوا صلاة المغرب باستمتاع وحماسة حتى سعد وحامد لم ينيخوا جمالهم أنناء التوقف عندما كان كل من حولهما يتوضأ ، فقد تيمما Sanding themselve وأديا الصــة ، ثم تناولنا عشـاءنا وامتطينا خيولنا . وبدأنا السفر كرة أخرى • وبعد أن هبط الليل بقليل كان علينا أن تتوقف فجأة اذ سمعنا اثنى عشر تقريرا (رواية) في هذه الظروف ذلك أن جماعة من البدو تحصنوا في ممر ضيق وارسلوا لنا وفدا « برلمانيا » (٣١) ليأمرنا بالتوقف ، لقد طلبوا في البداية مالا ليسمحوا لنا بالمرود ، لكن أخيرا سمعوا أننا من أبناء المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) فسمحوا لنا بالمرور فردا فردا حتى يُعود المسلمون منهم من حيث أتوا ، فهم يكرهون ويخافون كفلاحي أيرلندا • وفوق هذا فان حرسنا أداروا خيولهم وعادوا لثكناتهم • وعلى أية حال ، فقد تقدمنا دون أن نقابل أي لصوص ، وقد أشار قائد جملي (جمالي) وأراني طائرا صغيرا يحوم حول اللكان حيث توقع وجود ماء يسميل من الصخر ٠ وكان أحد الرفاق قد حاول أن يهزأ بي عندما كانت المعركة على وشك الحدوث (يقصد عند ظهور اللصوص الآنف ذكرهم) فصاح قائلا : « لم لا تحشو مسدسك يا أفنسدى ، وتخرج من شنقدوفك وترينا كيف يكون القتال ؟ » فأجبت بصوت عال : « لأنب في بلادي ، عندما تلاحقنا الكلاب ، فاننا نضربها بالعصي » · وهكذا أغلق منصور فمه لفترة ، لكننا (أنا وهو) لم نكن أبدا أصدقاء • فقد كان منصور هذا في حاجة أن يعامله المرء معاملة سيئة ـ مثله في ذلك مثل أفراد الطبقة الدنيا في الشرق ، فهو يرى في الكياسة والمتنازل دلالة على الجبن والبلاهة • لقد بدأت التعامل معه برقة ، لكنه سرعان ما أجبرني على أن القمة الفاظا قاسية ، وبعد ذلك اضطررت لتهديده ، ورغم أنه كان يعبس ويتمتم بكلمات غير مفهومة ـ الا أن هذه الطريقـة في معاملته جعلتــه يتحسن ، فالشاعر الفرنسي القديم يقول:

" Oignez Vilain, il vous poindra! Poignez Vilain, il vous oidera! »

وهو قول يصدق في الشرق ربما أكثر من صدقه في الغرب •

وخلت رحلتنا الليلية من أحداث أخرى ، لقد كنا نسافس فوق أرض مرتفعة ، والقدر في حالة التمام يملا وجوعنا ، وفي حوالي منتصف الليل مرزنا خلال مجموعة قرى مبعشرة تسمى الجديدة

⁽٣١) السخرية بادية في هذا التعبير كما هو واضح _ (المترجم) .

آو التخيف Al-ûhayf يقسع البجزء الرئيسي منها الى شمال الطريق المؤدى للمدينة (المنورة) وبها قلعة تشبه قلعمة (الحمرا) ، وينابيع ذوات ماء مستساغ طعمه ، ويساتين نخيل ، ومقام أحد الأولياء المساهير وهو عبد الرحيم البرعي (؟) Burai ، ويقع الى الخلف منها بقليل بوغاز (شعب جبلى أو دحل) لقى فيه طوسون بك و ٨٠٠٠ تركى معه هزيمة ساحقة على يد ٢٥٠٠٠ من البدو والوهابيين (٣٢) وهذه نقطة هجوم شهيرة لبنى حرب ، وفيما مضى ارتبك الجزار باشا ، جزار سوريا المسهير ، وعبد الله باشا حاكم دمشق عند مضيق الجديدة ، لذلك فان قائد قافلة الحج الشامى هذا العام تحاشى المرور بهذا الطريق وفضل الوصول قافلة الحج الشامى هذا العام تحاشى المرور بهذا الطريق وفضل الوصول عند هذا المكان ذى الفال السيىء ، وفي السناعة الرابعة صباحا وصلنا الى عند هذا المكان ذى الفال السيىء ، وفي السناعة الرابعة صباحا وصلنا الى بير عباس ، بعد آن قطعنا أربعة وعشرين ميلا في اتجاه الشرق ،

⁽٣٢) السلفيون التباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويسمون أيضا بالسموديين لتحالف محمد بن سعود مع الشيخ ابن عبد الرهاب .. (المترجم) *



الفصل الرابع عشر

من بين عباس الى المدينة (المنورة)

وصف موقع بير عباس ـ مشايخ العرب يذهبون لاستلام رواتبهم التي بعثت بها الدولة العثمانية ـ التشكيلات العسكرية لملالبان ـ النظام في التدريب العسكرى يجب الا يقتل الروح الفردية ـ الخوف من الحوامد ـ قرية الشهدا ـ بير الهندى ـ السويقة ـ سد الدين عند الشرقيين ـ وادى العقيق ـ الحرتين ـ الدعاء ومنظر المدينة المنورة ·

كان اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو ، محنة كبيرة لقافلتنا الصغيرة ، فحوقع (بير عباس) يشبه تماما موقع (الحمرا) Al Hamra غير أن نتوء المسيل الذى يطوق التل ، فى هذا المكان يبلغ عرضه ميلين (١) · وتوجد هنا القلاع الحجرية المعتادة والعرائش المشيدة من جريد النخل للعسكر المقيمين هنا لحراسة المكان والمسافرين ، كما توجد مقهى فى ظلة وكوخ (عريش) أو كوخان ، يطلقون عليه اسم السوق ، ولا توجد قرية هنا · لقد كان الموضع الذى خيمنا فيه عبارة عن أرض ذات رمل هش ، عصفت به رياح السموم ، فعبات الهواء به · ولم تر العين شجرة أو حتى شجرة أو حتى شجيرة ، أما عن الحياة الحيوانية ، فلم يبق منها سوى أنواع من جراد شديد الاحتمال ، وأسراب من ذباب · لقد كان المشهد صورة مشوهة تشويها بالغا لما رأيته فى السند ·

⁽۱) المسيل الصغير ذاته Frumara لا يمكن أن يكون عرضه ميلين ، فالمسيل الصغير مجرى مأتى غير عريض يهبط من قعم التلال أو الجبال ومجراه قد لا يزيد عرضه عن بضعة أمتار ، وذلك بخلاف السيل torrent الذى قد يكون عريضا . فحديث بيرتون هنا ليس عن المسيل ، وإنما عن نتوء التل الذى يجرى منه المسيل وعلى أية حال ، فمن الأفضل إيراد نص عبارته :

[&]quot;except that the bulge of the hill-girt Fiumara is at this place about two miles Wide".

ويالحظ أن أهل الجزيرة العربية يطلقون لفظ (السيل) والمسيل على المجرى ذاته سواء أكان جالها أم ممتلئا بالمياه س (المترجم) .

ورغم اننا كنا الآن فوق سطح البحر ببضع مئات من الأقدام ــ مستدلين على ذلك بانحدار مقسمات المياه • الا أن شمس منتصف النهار كانت تحرقنا حتى ونحن داخل الخيمة ، التي سقطت أكثر من مرة . وكانت اعادة نصبها مؤلمة بسبب حرارة الرمال · وهرع زملائي مرة أخرى بعد تناول الافطار الى المقهى وعادوا واحدا اثر واحد بحكايات وتقارير تدعو للكآبة ، وانخرطوا بعد ذلك اما في عراك لا معنى له ، أو ألقوا بأنفسهم على أبسطتهم متظاهرين بالنوم ، وهم في جهامة وعبوس كاملين • ووبخت الست مريم ابنها العنيد بعنف لرفضه أن يملأ الشبيبوك (٢) (بيبة التدخين التركية) للمرة الثانية عشرة ذلك الصباح بقولها القول المعتناد ذا الطابع الديني « الله يهديك يابني » ومعنى هذا أنه يسير في طريق غير سوية ، وقولها : « يا مصيبتي ، أن أمك أمرأة وحيدة (٣) في القافلة ، يا الله » ومثل هذه العبارات تساوى تفجع الآباء والأمهات في أوروبا لأشتعال رءوسسهم شيبا وقرب حبوطهم الى مستقرهم الأخير (القبور) • وقبل الظهر وصلت قافلة صغيرة كانت تتبعنا ، وكانت تحدل جثتين ، احداهما لجندى حراسة أطلق البدو عليه الناد ، وثانيتهما لألباني مات بضربة الشمس ، أو بفعل الرياح الملتهبة .

وبعد منتصف النهار بوقت قليل غادرتنا هذه القافلة متجهة في اتجاه معاكس ، وكانت تتكون بشكل أسياسي من حجاج هنود برتدون ملابس الاحرام ، ويسرعون صوب مكة بشوق حار ، وقد سمح لهم بالمرور دون ازعاج ، وذلك لأنه قد لا يمكن جمع جنيه استرليني من جيوب مائة منهم ، كما أن لسعد قاطع الطريق ، بعض المآثر الهيئة في أحيان ، لكن جماعتنا (قافلتنا) بدت غير قادرة على استعادة رباطة جأشها بسبب هذه الحادثة رغم رغبتنا في الوصول سريعا للأماكن المقدسة ، وفي المساء ذهب جمعنا الجميع لنرى بعض الشيوخ العرب الذين كانوا ذاهبين الي (بير عباس) لاستلام رواتبهم (أعطياتهم) ، وبدون هذه الرشاوي (بير عباس) لاستلام رواتبهم (أعطياتهم) ، وبدون هذه الرشاوي بالمحجاز والدفاع عنه ضد هؤلاء الجبليين ، وهو قول شائع واعتقد أنه بالمحجاز والدفاع عنه ضد هؤلاء الجبليين ، وهو قول شائع واعتقد أنه صحيح ، وان لنا نظاما مثل عذا في أفغانستان (٤) وهو نظام أحمق . فهو يعلم الرعبة احتقار الحكام الذين يخضعون للابتزاز ، وبالإضافة لهذا ،

⁽٢) أو الشبق ، واشرنا له في حاشية سابقة ... (المترجم) ٠

⁽٢) بالعامية المصرية « امرأة وحدانية » إي لا معين لها ... (المترجم) ·

⁽٤) باعتبار بيرتون يتقمص في رحلته هذه شخصية الفنانستاني .. (المترجم) ٠

^(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

طيب . فعندما تنشب الحرب ، أو يقطع الطريق ، فانهم يدعون عجزهم عن كبح جماح عشائرهم • وهؤء الشيوخ أغنى من غيرهم ، وبالتالي فقد أصبحوا أكثر خطورة وقدرة على البطش • ونظرت قافلتنا جيدا ، فوجدت أن هؤلاء الشيوخ كانوا من قبيلة حرب ، وكانوا كبار السن عليهم سيماء الوقار ويلبسون الزى العربي التقليدي كأبهي ما يكون ، وكانوا منتصبين ، ذوى ملامح نحيلة وحادة ، ولحى بيضاء ، ومسلحين تسليحا جيدا ، ويهتطون جمالا أصيلة من الشرق (٥) ، مجهزة تجهيزا جميلا ، يتبعهم رجال من عشائرهم نصف عراة ، يحملون رماحا ، يبلغ طول الرمح منها اثنى عشر قدما أو ثلاثة عشر قدما ، ومزينين بريشة نعام قصيرة سوداء أو ريشىتين . ويحملون بنادق ثقيلة ذوات فتائل ، أطلقوها عند اقترابهم من القلعة ، ولم يكن تصرفهم يخلو من طابع الخيلاء المتبربر . وبعد استقبال الشبيوخ ، سرعان ما أقيم استعراض عسكرى قام به الفرسان الأرناؤوط (٦) غير النظاميين • وكان خمسمائة منهم قد ثبتوا لصوت الناقوس الذي كان صوته الواهي يتناقض تناقضا يثير الدهشة مع نظرة الحرب الحقيقية التي تقدح شررا من عيونهم . لقد كانوا حقيقة يركبون أفراسا عربية ومصرية ضعيفة . وعلهلة المنظر كتيابهم ، وكان كل فارس قد سلح نفسه بطريقته الخاصة ، رغم أنهم جميعا كانوا يحملون السييوف والبنادق القصيرة والبنادق ذوات الفتائل أو بعض البنادق القديمة من النوع ذي الزناد ٠ لكنهم يمتطون جيادهم بقوة وكأنهم فحول ونظر اليهم الجميع نظرة اهتمام واعجاب بشمجاعتهم وحفزني ذلك على الاعجاب بهم بشمدة • وكانت خيولهم _ أيضا _ جيدة التدريب رغم هزالها ، أما ثيابهم وأسلحتهم العسكرية فقد أعدت للحرب لا للاستعراض · لقد تابعت مناوراتهم باهتمام وفضول • وقد غادروا معسكرهم واحدا أثر الآخر ، وعند سماعهم الطبلة شكلوا بالتدريج طوابير منظمة ، ولا يمكن أن نقول إنهم يحتشدون باهمال دون خطة · وحالما غيرت « الطبلة » نغمتها حتى أحد العرض العسكرى تشكيلات ملائمة للنغمة ، فانتشروا وكأنهم مشاة خفاف ، وهم يواصاون _ الآن _ تقــدمهم ، ثم اســتداروا عائــدين (خلفـا در) ، ثم اندفه الله الله الله الله السرع) ، وفي اشكارة أخسري جعسلوا ـ كانوا خلالها يحشون بنادقهم كل على حدة أحيانا وبشكل جماعي غالبا ، خيولهم تتخذ أقصى سرعة لها ، بشكل مفاجى ، وطوقوا مركز العرض ، ومرة أخرى تقدموا في جماعة كثيفة · وبعد ثلاثة أرباع ساعة من العرض ـ كانوا خلالها يحشنون بناءتهم كل على حدة أحيانا وبشكل جماعي غالباً ، ويستديرون لليمين (لليمين در) وللشمال (للشمال در) ، ويسيرون

⁽٥) نجدية ، اى من نجد .. (المترجم) ،

⁽١) أي الألبان _ (المترجم) .

الأمام (اللامام سر) ويتوقفون عند الضرورة ، ويتراجعون وفقا للظروف وعاد الأرناؤوط بشكل جماعى الى خطوطهم (قواعدهم) بطريقة تحفر فى الذاكرة ولا تنسى ولما اقتربوا توقف الجميع فجأة ، ثم عدوا بأفراسهم وأطلقوا نيران بنادقهم باهمال كثير على أهداف يفترض أنها تمثل العسدو .

وأثناء حدوث هذا كله وفى اليوم التالى لاحظت أن الرصاص كان يطلق لمجرد اللعب والترفيه فهو رصاص صوت (لاحداث صوت ، لاللقتل) وقد يظهر مثل ذلك حتى فى مدرسة مارتينت مدرسة الفروسية العريقة ، بالاضافة الى أن شايئا من هذا القبيل سايكون من بين تكتيكات سلاح الفرسان ، وأعود مرة أخرى لأبدى رأيى المتواضع وهو أن سلاح الفرسان البطىء نسبيا سيتحول الى سالح مرعب بعد الاتفاق التام لاستخدام البنادق والمسدسات ومدفعية الميدان .

وأيضا اذا تبنينا الرأى الذكى للكاتب المعاصر (٧) ووضعنا فى اعتبارنا « الشجاعة الفردية والمهارة فى المعارك الفردية ، والفروسية البارعة والسيوف الحادة ، فان كل ذلك سيجعل سلاح الفرسان ، سلاحا خطيرا » فأنصلن البرابرة هؤلاء أكثر وعيا فى تنشلتهم من المتمدنين الذين لم يمارسوا أبدا التدرب على السلاح ، فتدريبهم على الركوب لا يخلق منهم فرسانا جيدين أبدا ، فخيولهم مثقلة وسيوفهم لا جدوى منها ولأنصاف البرارة هؤلاء مجال آخر للتفوق علينا فهم يزرعون الفردية فى الجندى ، بينما نعمل نحن بشدة على جعله مجرد آداة ،

وفى أيام الفروسية الأوربية كانت المعارك نظاماً من نظم المبارزة التى تتجلى فيها البراعة في القتال · وأعقب ذلك عصر « النظهام » حيث استخدمنا لغة الرابيلين Rabelia » والرابيليون هم رجال يبدون أكثر نظاما

وتوافقا فى تحريك أعضائهم وأسالحتهم على نحسو ما تتحرك عجسلات الساعة ، دقة وانضاباطا ، أكثر مما تتطلبه كتائب المساة والفرسان ، أو جيش من العساكر ، ان هدفنا يجب أن يكون الآهو المزاوجة بين مزايا النظامين انفى الذكر بمعنى أن تجعل الجند ممتازين كأفراد فى استخدام السلاح ، وأن نستمر فى تدريبهم ليصبح استخدمهم للسلاح طبيعيا ومعتادا مع الاتفاق والانسجام فى الأداء ، وقد قدمت فرنسا النموذج لأوروبا فى الشاسور دى فنسان يمكنها ومعتها تماما يمكنها

⁽V) هو الراحل الكابتن نولان Nolan (بيرتون) •

القتال بشكل جماعى متسق على نحو رائع ، وان كانت روعتها في القتال مجتمعة ليست أفضل من روعة مقاتليهم وهم يقاتلون فرادى » ونحن حما أقترح حسوف نحذو حذوهم في المستقبل القريب •

لقد شهد يومنا الكثيب الأول في بير عباس ، سماعنا لأصسوات الأسلحة النارية على البعد ، وكان هذا علامة على أن فرق الحرس ولصوص التلال يقتتلون ، كما قال رفاقي • وقاموا بدور الاستخبارات لمواجهة رغبتي الملحة في الاستمرار في السفر ، لقد افترضت أن البدو بعد أن حاربوا ليلا ، فانهم سيكونون أقل رغبة في القتال في اليوم التالي ، وقد اتفق معى في هذا الرأى آخرون اتفاقا كاملا • وعندما كنا في ينبع ، كان كل أفراد القافلة يتباهون بأن أهل المدينة استطاعوا اخضاع البدو للنظام وسنخروا من الولد محمد لتفوقهم في هذا المضمار على أهل بلده المكيين ٠ أما الآن فان ثمة تجربة مريرة على وشك الحدوث فلم أر واحدا يتحلى بشبجاعة واضبحة عندما لاحت نذر الخطر • وكان التغيير الذي حاق بهم هو التفضل باستحضار بعض قيمهم: فالصحارى ليس لها كبير _ انها كالضمير تحيلهم الى جبناء • لكن الشباب المكى الذى أرسل مع صندوقه من ينبع الى حدة قد أغرقته السعادة كمسافر خالى البال فلم يفوت الفرصة ليأخذ يثاره القديم ، فسخر من أهل المدينة حتى أهاجهم وأغضبهم غضبا شديدا • وأخيرا فقد طوقت عنقه وظهره (من فوق عجيزته) وسحبته من ثوبه الى داخل الخيمة خوفًا من حدوث اضطراب وحرصًا على سلامة الفتي ٠

وعندما خف الضجيج وجلس الجميع بعد العشاء يدخنون شيشة السلام في هواء الليل البارد ، جلست معهم ووجدتهم كالعادة يتحدثون عن الشيخ سعد العجوز • وكان المشهد يتناسب مع الموضوع الذي يتحدثون فيه • فعلى البعد بدت قمة زرقاء مرتفعة يقال انها وكره • وكان المكان يشمع بمعان مرعبة •

ولما كان الوكر مستعصيا على الغرباء ، فقد حول المتحدثون مسار العديث ليجعلوا منه جنة ارم Iran على أية حال ، فان نظرة خاطفة لموقعة وتكوينه تجعلنى اقنع ان اليتابيع الفوارة والغابات الكثيفة وبساتين التفاح والسفرجل والرمان التى تصورها رفاقى فى هذا المكان (الوكر) محرد خرافة ، اذ أن معرفة سطحية بجهل العرب بفن الدفاع قد جعلت فى نفسى شكوكا قوية عن وجود تحصينات منيعة فوق قمة التل • وعلى أية حال فان الجبال تبدو جميلة فى ضوء القمر وتبدو على البعد شبيهة بالينابيم السرية مما يتناسب مع الموضوعات التى يستوحونها •

وفى المك الليلة نمت داخل شقدوفى فمن الحمق أن أنام فى السهل المكشوف فى مكان مبتلى باللصوص وأن يتسلح المرء ، فأن ذلك مجرد حذر بائس أن كان قريبا من وكر اللصوص فأذا جرحت رجلا أثناء عملية سلبك فلابد أن تدفع مبلغا باهطا ثمنا لدمه وأذا قتلته حتى لو كان ذلك دفاعا عن النفس فقل وداعا لحياتك ولما استيقظت ثلاث مرات أو أربع ليلا بسبب حركة الكلاب وأبناء آوى التي كانت تتسكع حول معسكرنا الصغير ، لاحظت أن رفاقى الذين كانوا قد وافقوا أن يتناوبوا الحراسة ـ قد استغرقوا جميعا فى نوم عميق وعلى أية حال ، فعندما استيقظنا صباحا لم تسفر مراجعتنا للبضائع والممتلكات عن ضهياع

وفي اليوم التالي (٢٣ يوليو) توقفنا توقفا اجباريا ، فالألم يثير في المسافر حدة الطبع ، والشمس والرمل والغبار ، ورياح السموم البشيعة ونقص بعض المؤن القليلة ضاعف من غضبنا • وكانت قدمي المتقرحة قد زاد التهابها بسبب قشر البصل الذي وضعته عليها والتي أصرت السبت مريم أنه علاج لها • وقد دفعت عشرة دولارات للحصول على جمل جديد ليحملني الى المدينة لأني وجدت أن حل ما نحن فيه من مشاكل يكمن في التقدم مستمرين في السفر بأية وسيلة يمكن تدبيرها ــ للمدينة (المنورة). وقد اعلن الشبيخ حامد أيضاً أنه سيترك صندوقه امانية لدى صديق ليصحبني ٠ أما سعد العملاق فاتبع هواه وهدد الولد محمدا فيما بينه وبينه أنه سيقطع ارجل أي جمل يتجرأ (على الحركة) من المخيم • فهذا الولد _ كسَّائر الأولاد في العالم _ لا يترك فرصة لالحاق الأذى ، وقد اتصل بي فورا وراخ يجادلني بالفعال شرير • وقد اعتذرت بقية المجموعة (القافلة) لسعد ، واستنكرت ما نحن بصدده ، وسرعان ما هدأ هو نفسه لأنه كما أعتقد لم يكن هناك جمل للايجار في بير عباس . وقد طلب منا أحد أفراد الحامية الالبانية الذين حصللوا على اذن بالذهاب للمدينة (المنورة) ان كان في امكاننا حمله معنا ، والا فانه سيضطر لقطع الطريق اليها سبيرا على الأقدام وقد ناقشنا امكانية السفر بين التلال باتخاذ طريق فرغى (مدق) من الطرق الفرعية الكثيرة التي تتخلل هذه التلال ٠ وبعد مناقشات مستفيضة رفضنا الفكرة تماما ٠

وقد أمضينا اليوم كالمعتاد ، فقد ازدحم الجميع تحت الخيمة لتكون لهم وقاء ، وحتى مريم التحقت بجمعنا وقالت لابنها على بصوت عال أنها لم تعد امرأة ، وإنما رجل ، وبينما جماعتنا - بشكل عام - يختبئون من النظرات النارية للشمس ، كان آخرون اما يأكلون ، وأما يدخنون ،

أو كانوا مشغولين بشرب الماء والتبرد به • وعنه غروب الشمس تقريبا وصلنا خبر بأن علينا أن نبدأ السير هذه الليلة ، ولم يكن أحد ليتصور أن القدر قد ادخر لنا هذا النبأ الطيب ، وعلى أية حال فقبل النوم وضعنا حمولة كل جمل على حدة لنكون جاهزين لتحميله في اللحظة المناسبة ، واتخذنا حذرنا من أن يأخذ البدو المصاحبون لنا دوابنا بعيدا •

وأحيرا ، في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلا ، عندما بدأ القمر يظهر الجوانب الشرقية للصخور ، سمعنا الصوت البهيج للطبلة داعيا الفرقة الألبانية لامتطاء جيادها لبدء المسير · وفي أقصر وقت ممكن كان الجميع مستعدين ، وبسرعة عبرنا السهل الرملي ، وسرعان ما وجدنا انفسنا بصحبة ثلاث قوافل أو أربع ، فكونا قافلة كبيرة ، مما يهييء لنا فرصة أفضل لمواجهة الحوامد (٨) Hawamid المرعبين · وقد كنا نحن فرصة أفضل لمواجهة الحوامد (٨) Hawamid المرعبين · وقد كنا نحن مأاكن في منتصف الخط (خط القافلة) تقريبا ، بكثير من المناورة والدهاء، ونحن حاملون السلاح بأيدينا ، وقد اتخذ الشيخ حامد والعملاق أماكن بارزة · وفي مثل هذه الطروف يندفع الجميع للأمام بطيش ، كالغوغاء بارزة · وفي مثل هذه الطروف يندفع الجميع للأمام بطيش ، كالغوغاء مراسة _ كانت تعد هي المنطقة الموضحة المخطر · ولم يحاول أحد أن يحظي بشرف شغلها ·

لقد سافرنا هذا الليل فوق مسيل في اتجاه شرقى وعند الفجر تقريبا ، في اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو وجدنا انفسنا في شعب سيء السمعة يسمى شغب الحج وكلما اقتربنا منه خرست أصوات ذوى الحناجر القوية ، ونطقت وجوههم بالخوف والجبن الواضح في تكوينهم ومن منحدر صحرى شاهق عن يسارنا ، سرعان ما ظهر خيط دخان ازرق ملتف ، جذب اليه كل العيسون بشسسكل أو بآخر – لقد ارتفع هذا الخيط الدخاني في الهواء وسرعان ما دوت فرقعات حادة صادرة عن البنادق ذوات الفتائل لرجال التلال ، ورددت الصحور صداها عن أيماننا ،

وكان شقدوفي قد كسر بسبب تعشر جملى خلال الليل ، فناديت على منصور وطلبت منه أن نجدل الحبل الذي يطوق الشجدوف بقطعة جبل أخرى ، فرفع بصره ، وضحك لما رآنى ، وقذف من قمه ما يدل على الاشمئزاز واختفى و وبدا عدد من البدو يحتشدون كالدبابير على قمم التلال أولادا ورجالا يحملون أسلحة ضخمة ويتسلقون بخفة القطط ، واتخذوا لهم مواقع مريحة على رواب صغيرة ، وبدووا يطلقون النار علينا

 $^{^{\}wedge}$) انظر الفصل السابق $_{-}$ (المترجم)

بارتياح كامل ، لقد منعنى ارتفاع التلال ووهيم الشمس المرتفعة من رؤية الأشياء بوضوح ، الا أن رفاقى قد أشاروا لى الى المكان حيث كانت الصيخور تنحدر بشكل شبه عمودى ، وحيث كان يوجد متراس حجرى سميك (الصنجة Sangal كما تسمى فى أفغانستان) وقد أعدت لتكون وسيلة للدفاع ولتبرز من ورائها الماسورة الطويلة للبندقية ذات الفتيل ولا جدوى من هذا المتراس فى حالة هبوط البدو وشروعهم فى مقاتلتنا كما يتقاتل الرجال فى السهول ، انهم سيفعلون ذلك فى الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، لكن ذلك قلما يحدث فى الحجاز ، ولم يكن موائما لحرسنا أيضا أن يطلق النار على عدو كامن خلف الصخور ، وبالاضافة لهذا ، فانه اذا تم قتل لص ، فان المنطقة كلها ستقوم قومة رجل واحد لتنتقم منا ، بقوة قوامها ، ٢٠٠٠ أو ، ٤٠٠ ، وقد يكون لديهم من الشيجاعة ما يجعلهم يهزمون قافلة وفى هذه الحالة فلن ينجو من أفراها أحد ، وقد وجه البدو نبرانهم — بشكل رئيسى — نحو الألبان ،

وقد طلب هؤلاء مساعدة جماعة شيوخ العرب الذين اصطحبونا من بير عباس ، لكن الشيوخ الوقورين ترجلوا وجلسوا في حلقة حول شيشهم (جمع شيشة) وذكروا أنه ربما لا يصيخ اللصوص السمع لهم، لذا فمن الأفضل عدم تجشم عناء الكلام .

ولم يكن لدينا ما نفعله سوى أن نتلمط غضبا كلما اشتعل البارود، وأن نحجب أنفسنا كلما أمكننا ذلك ، ولقد كان نتيجة الأمر أن فقدنا اثنى عشر رجلا ، بالاضافة لجمال وغيرها من دواب التحميل ورغم أن اللصوص لم يبدوا علامات الشجاعة من موقعهم فوق قمة التل ، الا أن رفاقى رأوا أن يعتبروا هذا الأمر المشكوك فيه عملا فائق الجرأة .

وبعد سياعة أخرى أرهقنا فيها دوابنا من الجرى خلال وادى السيالة Sayyalah ظهرت لنا قرية الشهدا Shuhada التي اندفعنا اليهيا .

« كالسارى بليل في طريق لا ثاني له

تطبق عليه الجن من خلفه تكاد تطأه »

وقد اتخذت « الشبهدا » اسمها هذا لأن أربعين شبهيدا كانوا يحاربون مع الرسبول (صلى الله عليه وسلم) في احدى غزواته ، قد دفنوا هنا ، الا أن بعض المصادر تشير الى أنها مقبرة لأهل وادى السيالة ، وهذا

الوادى الذي كان آهلا بالسكان ، خرب الآن ، وقد يمر المرء بسهولة ببقعة موقوفة لغرض نبيل دون أن يلاحظ الجدران القليلة المخربة وسلسلة قبور البدو البدائية التي لا تتعدى أن تكون أحجارا بيضاوية بين الأشواك الى اليسار ولا تبعد عن الطريق الا قليلا • وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا الى معطة توقف أخرى ملائمة ٠ انها بير الهندى التي حملت اسمها نسبة لبعض الهنود الذين حفروا بئرا في هذا المكان • ولكننا تركنا البثر خلفنا رغبة في الابتعاد قدر الامكان عن وكر حميده Hamidah ومن ثم توقف المسيل واتجهنا صوب الشمال في طريق مطروق في أرض حجرية مرتفعة • لقد أصبحت الحرارة مسببة للمرض هنا ، فالشمس أكثر لهيبا وخطورة بعد الفترة من الثامنة الى التاسعة • ولازلنا نسرع ، ولم نصل الى مقصدنا الا في حوالي الساعة الحادية عشرة ، وكان سهلا مغطى بالأحجار والحصى الغليظ وكثيرا من أشبجار الشوك ومحاطا بصخور قاسيات على شکل بروج ، وأسفلها جرانيت ، وأعلاها حجر جيري جميل • وكانت البئر على بعد ميلين على الأقل ، ولم نو أي مسكن (عريش) • وكان بعض أطفال البدو الذين ينتمون الى قبيلة منبوذة يرعون الماعز الهزيلة فوق التلال وهذا المكان يسمى السويقة Suwaykah وهو _ كما قيل لى _ مكان مشهور في تاريخ العرب ، وليس لهذا السبب وحده كان رفاقي ينظرون لخرائبه بحب وتأثر ، فقسله كانت صناديقهسم آمنة ، وكانوا يستطيعون الآن أن يشاهدوا بعين النخيال مساكنهم • وكان علينا أن نقطع في ذلك اليوم حوالي اثنين وعشرين ميلاً ، وكان الطريق يتخذ اتجاها شرقيا مباشرا ، والملاحظة الوحيدة على مظاهر السطح أن الأرض كانت ترتفع بشبكل مستمر

⁽٩) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : جنس نبات وجنبات من المصيلة القرنية وازهارها بيضاء أو صفراء أو وردية ، ويستعمل حاليا اسم أكاسيا بدلا من ميموزا ، وهو على أنواع : سنط عربى ، عرفط للله من يقول المترجم : والمقصود غالما شجرة السنط أو السلم للله (المترجم) .

الدين) سيكرس جهده طوال عام لاسترداد ستة بنسات (المقصود مبلغ تافه) ، لذا فقد عزمت أن أفعل كما يفعل أهل البلاد ، فطالبته بالحاح وطلبت رهنا لا سترداد أموالي وعند الظهر تقريبا ، اندفع سعيد العملاق عارى الرأس – في الشمس المحرقة ، وقذف بالدولارين فوق بساطي ، وعلى أية حال ، فانه سرعان ما استعاد اعتمال مزاجه ، وكما أظهرت الاحداث اللاحقة ، فانني كنت على صواب ، فاذا لم يكن قد أجبر على دفع دينه ، فقد يستخف بي باعتبارى رجلا ساذجا (عبيطا) وقد يطمع في المزيد ، وأن جاز التعبير ، فأن الولد محمد يحمل بين جنبيه لهبا من شعور غير شسائع ، فحاجتي للتسمامح والسمخاء جعلته يلاحقني بضميره السييء وطبعه الخؤون ، وقد أعطى ما في ضميره من سوء ، بعدا فلسفيا ، فهو يحسب كل دولار أنفقه ، واضعا في اعتباره أن كل دولار أدخره (لا أنفقه) في المدينة المنورة ، سيتم انفاقه تحت اشرافه في مكة المكرمة لقاء تدبيره أمرى فيها ،

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر في الرابع والعشرين من شهر يوليو غادرنا (السويقة) . وتيادلنا جميعا الفكاهات المرحة ، واتخذنا اتجاها شماليا شرقيا • وقد تعكر مزاج رفاقي لأنه عند غروب الشمس كان عمر أفندي هو الوحيد من بين اللجموعة الذي أصر على تناول عشائه ، فجلس الباقون على الأرض مقطبين متذمرين ، فسمحت لهم باستهلاك ما لدى من اللاتاكيا Latakia وهي تبغ سورى · وقلما رأيت مثل هذه المباراة المعروفة بين الأطفال الأشقياء ، تمارس حتى بين الرجال الشرقيين • فالولد محمد لفت نظري بشكل خاص أن لحي الجمالة كانت الآن في قبضة يده ، بمعنى أنهم الآن بعيدون عن قبيلتهم • قبيلة حرب • وسرعان ما افتعل سببا ليتعارك معهم فلمجرد أنهم لم يردوا على أحد أسئلته بسرعة حتى انهال عليهم بالسبباب المقذع الذي جعلهم يمدون أيديهم في اتجساه سيوفهم . وعلى أية حال ، فرغم هذا المسلك المتهديدي ، فإن الفتي كان يعرف انه يستطيع أن يتمادي كما يشاء دون خطر يحيق به ، فاستمر في سبابه ، وكان وجه منصور ينم عن الغضب بشكل مضمحك للغاية ، لدرجة أنهى شعوت أن تدخلي سيكون أمرا مسلياً جدا . وأخيرا اختفى الجمالة ، وعاقبونا بسبب الموقف الذي تعرضوا له عقابا مؤثرا · فقد كان الطريق يمته على تل صخرى ويهبط في واد حجرى ، وكانت الجمال تصعد وتهبط بيحثا عن المرعى المعتماد ، فكانت تزل وتتعش ، ونتيجة هذا فقمه كنا

^(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

اما نترنح أو نهوى مرة كل ميل طوال الليل • وعبثا طلب الولد محمله - الذي أصبيح خائفا الآن - العون من الجمالة بملء حنجرته قائلا : « أين هؤلاء البوم ، أين الثيران أولاد الثيران ، أين المتسولون ؟ أين مقطوعو الجذور ؟ أين الغرباء (الأجانب) أين أولاد حرب ؟ ٠٠ حقا لأعذبنهم عذاب الزيت · · انهم مناجم العار ، انهم أغبياء » ونظر الذين يشاركون الجمالة في طابعهم البدوي الى الفتي بكراهية وإزدراء ، وتمتموا قائلين : « بالله · · بالله وبالله! ياولد، اننا سوف نجلدك ككلب الصيد، عندما نمسك يك في الصحراء » • وطلب كل رفاقنا من الولد محمد أن يكف ، لكن انفعالاته قد طغت تماما على حذره ، فعبر عن نفسه بتعبير عربي تقليدي ، وبلهجة حجازية ، حتى اننى لم أكن راغبا في اسكاته ، وبعد وصولنا للمدينة (المنورة) ببضعة أيام حذر الشبيخ حامد الولد محمد بجدية ألا يتمادى مرة أخرى هذا التمادي الخطير لأن بني حرب مشهورون بانهم يطلقون النار على من يتجرأ عليهم حتى ان وصفهم وصفا معتدلًا بقوله « يا حمير » أو يطعنونه بالخناجر ٠ وفي هدوء المدينة أصغى الولد محمد بقلق وندم لكلمات صديقه ، كالرجل المعتدل الذي يخاف عند الخطر ، ويجرأ عند السكر • لقد كانت النتيجة المباشرة لشتائمه أن شقدوفي المكسور ، قد تحطم تماما ، وأمضيت معه الساعات المظلمة نحط بشكل غير مريح . _ كطائرين ، على بقايا الشقدوف ٠

لقد أشرقت الشمس صبيحة الخامس والعشرين من شهز يوليو ، قبل أن أتخلص من ارهاق هذه الليلة ، تماما • وكان كل من حولي يحثون جمالهم على المسير رغم الأرض الصخرية ، ولم يكن أحد لينبس ببنت شفة مع جاره • وكان من الطبيعي أن أسأل : « أثمة لصوص ؟ » فأجاب الولد محمد : « لا ، انهم يسيرون بأعينهم ، فسوف يرون منازلهم حالا » ، وبسرعة اجتزنا وادى العقيق الها Al-Akik الذي وصفه الشعراء العرب وصفا جميلا •

⁽١٠) من الواضح أنه يسخر - (المترجم)

الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد ذكرها بخير · ولما وصلنا للقمة مررنا عبر مجاز (ممر ضيق) من الحمم البركانية (اللافا) الداكنة على جانبية منحدرات عميقة ، وبعد دقائق قليلة ظهرت لنا _ فجأة _ المدينة (المنورة) بكاملها ·

فأوقفنا دوابنا ، وكأنما صدر أمر حاكم بذلك ، وترجل جميعنا تأسيا بما كان يفعله الأتقياء من السلف ، وجلسنا منهكين جوعى كما كنا ، نمتع أعيننا بمنظر المدينة (المنورة) "

« با الله ، هذا حرم نبيك ، اجعله لنا درءا من نار جهنم ، و نجنا من عذابك يوم القيامة • يا الله افتح لنا أبواب رحمتك ، وأدخلنا جنتسك » « اللهم صل على خاتم النبيين ، عدد نجوم السماوات وأمواج البحار ، ورمال الصحراء • ياذا الجلال والاكرام صل عليه ما نبتت حقول القمح وما أثمرت النخيل » • ومرة أخرى يقولون : « عش للأبد ، ياسيد الأنبياء ، عش في فلل السعادة آناء الليل وأطراف النهار ، بينما ينوح الحمام كأم بلا ولد ، وبينما الرياح الغربية تهب كالنسائم على تلال نجد ، ويتألق الضوء في سماء الحجاز » •

بمثل هذا الوجد الشعرى الذى أحاطنى من كل جانب يتجلى مدى اصطباغ لغة العرب بالخيال العميق ، بسبب عاطفتهم الدينية الجياشة ولقد فهمت الآن المعنى الكامل للجملة التى يرددها المسلم : « وعندما تقع عينا الحاج على نخيل المدينة (المنورة) ، دعه يرفع صوته ويصلى ويسلم على النبي (صلى الله عليه وسلم) أفضل صلاة وأزكى تسليم » و وبشكل عام ، فانه باستثناء الحقول والبساتين حول المدينة المنورة ، لم يكن هناك ما يلفت النظر بعد المناطق المقفرة التي مررنا بها ، ولم يسكن ممكنا ألا أتغلغل في مشاعر رفاقي ، وفي حقيقة الأمر فانني اعتقد أن حماسي وتعاطفي مع مشهد المدينة المنورة قد ارتفع بقدر حماسهم وتعاطفهم لبضع دهائق ، الا اننا بعد أن ركينا دوابنا مرة أخرى ، استعدنا رباطة جأشنا ، ووضعت ورسمت مخططا مبدئيا للمدينة (المنورة) (صورة على البعد) ، ووضعت معلومات عن المبانى المهمة ، وخصصت الفصول التاليسة لما جمعته من معلومات عن المدينة (المنورة) .

لقد كانت المسافة التي قطعناها هذه الليلة حوالى اثنين وعشرين ميلا في اتجاهات تتراوح بين الشرق والشمال الشرقى • وقد وصلنا المدينة (المنورة) في الخامس والعشرين من شهر يوليو، وبذلك تكون رحلتنا قد استغرقت حوالى ثمانية أيام ، وأكثر قليلا من مائة وثلاثين ميلا • وهذه

الرحلة تنجز في أربعة أيام بالجمال ، ويمكن لجمل قوى أن يتمها بدون صعوبة في نصف هذا الوقت (١٢) •

⁽۱۲) باربوسا Barbosa قدر المسافة من ينبع الى المدينة (المنورة) بثلاثة

آيام ، وقدرها دربلوت D'Herbelot بثمانية وقدرها أوفنجتون Oving on بستة ، والزمن المعتاد هو ما بين أربعة أيام وخمسة ، والخطأ في تقدير المسافة بين الجغرافيين المحليين يرجع لاهمالهم الفرق ببين السفر بجمل بطيء والسفر راكبين على جمل سريع ، وفيما يلى مرجز للمحطأت التي توقفنا فيها :

١ _ من ينبع (١٨ يوليو) الى المسهل (شمال شرق) ١٦ ميلا ٠

٢ ـ من المسهل (١٩ يوليو) الى بير سعد (شمال وشرق) ٣٤ عيلا ٠

٣ ـ من بير سعد (٢٠ يوليو) الى المحمرا (شمال شرق) ١٤ ميلا ٠

٤ _ من الحمرا (٢١ يوليو) الى بير عباس (شرق) ٢٤ ميلا .

٥ ـ من بير عباس (٢٣ يوليو) الى السويقة (شرق) ٢٢ ميلا ٠

٢ ـ من السويقة (٢٤ يوليو) الى المدينة (المنورة) ، الى الشمال ، والى الشرق
 ٢٢ ميلا •

المجموع بالميل الانجليزي : ١٣٢



اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل ى • رادونسكايا الدس هكسيل ت و و فریمان زايمونت وليمامز ر ٠ ج ٠ فوريس لیستردیل رای والتسر المن لمويس فارجاس فرانسوا دوماس د ٠ قدري حفني وآخرون اولج فولكف هاشم النصاس ديفيد وليام ماكدونالس عزيز الشــوان د ٠ محسن جاسم الموسوى اشراف س ، بی ، کوکس جسون لويس بسول لويس د عبد المعطى شعراوي انسور المعسداوي بيل شهول وأدنبيت د ٠ صفاء خلوصي رالف ئى ماتلسو فيكتور برومبير

احلام الاعلام وقصص آخرى الالكترونيات والحياة الحديثة نقطة مقابل نقطة الجغرافيا في مائة عام الثقسافة والمجتمسم تاريخ العلم والتكثولوچيا (٢ چ) الأرض الغيامضة الرواية الانجليـــزية الأرشه الى فن المسرح آلهسة مصى الانسان المصرى على الشاشة القاهرة مدينة الف ليلة وليلة الهوية القومية في السيتما العريبة مجماوعات النقاسود الموسيقي - تعبير نغمى - ومنطق عصر الرواية ـ مقال في النوع الأدبي ديالان تومياس الانسان ذلك الكائن الفريد الرواية المسديثة المسرح المصرى المعاصر على محمسود طبه القوة النفسية للأهرام فسن الترجمسة تولستوي سيتندال

فيكتسور هسوجو ســـدني هوك ف • ع • أدنيكوف هادى نعمان الهيتي د • نغمة رحيم العزاوى د • فاضل أحمد الطائي فرنسيس فرجون هنسري باربوس السييد عليكه جاكوب براونوفسكي د ٠ روجر ستروجان کاتی ثیار ا • سىپىسى د ۱ ناعوم بیتروفیتان د ٠ لينوار تشاميرز رايت د ٠ جــون شــيدلر

الجزء والدن (محاورات في مضمحان فيرنز ميزنبرج الفيسنياء الذرية) التراث الغامض ماركس والماركسسيون فن الآدب الروائي عنسد تواسستوي أدب الأطفال أحمد حسن الزيات أعسلام العسرب في الكيميساء فكرة المسرح الجديسم صنع القسران السسياسي التطور الحضارى للانسان هل تستطيع تعليم الاخلاق للاطفال تربية الدواجسن الموتى وعالمهم في مصر القسديدة التعسل والطب سبيع معارك فاصلة في العصور الوسماي جوزيف داهموس سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ۱۸۳۰ ــ ۱۹۱۶

بييـــ البيــــ الدكتور غبريال وهبه

د ٠ رمسيس عـوخي د • محمد نعمان جسلال فرانكلين ل باومر

شدوكت الربيعى د محيى الدين احمد حسين

كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السطة الص___حافة

رسيائل وأحاديث من المنفي

أشر الكسوميديا الالهيسة لدانتي في الفسن التشب كيلي

الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية ويعسدها

حركة عدم الاتحيان في عسالم متفير الفكر الأروريي الحديث (٤ ج) الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي 1940 - 1440

التنشئة الاسرية والابناء الصنفان

تألیف: ج ۰ دادلی اندرو جوزیف کونراد
د ۰ جوهان دروشنن طائفة من العلماء الأمریکیین د ۰ السید علیوة من د ۰ مصطفی عنائی مجموعة من الکتاب الیابانیین القدماء والحدثین فرانکلین ل ۰ باومر جابرییال ۱ باومر انطونی دی کرسبنی دوایت سیوین دوایت سیوین ایراهیم القرضداوی

جـوزیف داهموس
س م بـورا
د عاصم محمد رزق
رونالد د م سمدسرون
و تورمان د اندرسون
و الت روستو
فرید میس
جـون یور کهارت
آلان کاســبر
سامی عبـد المعطی
فرید هــویل

الاید المستویل المستخ المسیخ حسین حلمی المهندس روی روبرتستون المشتم النحاس دورکاس ماکلیننوك

نظريات الفيلم الكيرى تاليف: ج • دادلى مختارات من الأدب القصصى جوزيف كونراد الحياة في الكون كيف نشات وأين توجد؟ د • جوهان دروشنن حسرب الفضاء الأحداث الدولية د • السيد عليوة الدارة الصراعات الدولية د • السيد عليوة الميكروكمييوتر د • مصطفى عنانى مختارات من الآدب البابائي مجوعة من الكتاب المحدوة من الكتاب المحدوة من الكتاب المحدوة من الكتاب المحدودة المحدودة الكتاب المحدودة الكتاب المحدودة المحدودة المحدودة المحدودة المحدودة المحدودة المحدودة الكتاب المحدودة المحدودة الكتاب المحدودة المح

الفكر الأوربى الحديث جـ٧ فرانكلين ل . تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة جابرييـــل ب اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة انطوني دي كتابة السيناريو للسينما دوايت ســـ الزمن وقيــاسه الزمن وقيــاسه المحدرة تكييف الهــواء ابراهيم القره الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي بيتــر زداي سيعة مؤرخين في العصور الوسطي جـوزيف داه التجــرية اليــوتانية س ، م بـور مراكز الصناعة في مصي الاسلامية د ، عاصم ما العلم والمحدارس ونالد د ، س

الشارع المصرى والفكر حوار حول التنمية الاقتصادية تبسيط الكيمياء العادات والتقاليد المصرية التخطيط السينمائي التخطيط السياحي البيدو الكونية البيدور الكونية

دراما الشاشة (۲ ج.) الهيرويين والايدن نجيب محفوظ على الشاشــــة صــور افريقيـة د محمود سری داسه بیتر لسوری وریس فیدروفیتش سیرجیف ویلیسام بیز دیفیسد الدرتون جمعها : جون ر ، بورر ومیلتون جولد بنجر ومیلتون جولد بنجر د مسالح رضا م ه ، کنج و آخدون م مه ، کنج و آخدون حورج جاموف د ، السید طه أبو سدیدة

چاليليـ چاليليـه اريك موريس ، آلات هــو ســـيريل الحدريد آرثر كيســـتلر توماس ا ۰ هاریس مجموعة من الباحدين روى ارمسن ناجاى متشديو بول هاريسون ميكائيل البي ، جيمس لفلوك فيكتور مورجان اعداد محمد كمال استماعيل الفردوسي الطسوسي بيرتون بورتر جاك كرابس جونيسور محمد فؤاد ، كوبريلي

الكمبيوتر في مجالات الحياة المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية وظائف الإعضاء من الألف الى الياء الهندسة الوراثية تربية استماك الزينة المنسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخي عند الاغريق قضايا وملامح القن التشكيلي التغدية في البلدان النامية بداية بلا نهاية الحرف والصناعات في مصر الاسلامية حوار حول النظامين الرئيسيين الكسون الارهساب اخنساتون القييلة الثالثة عشرة التــوافق النفسي الدليا البيليوجرافي لغة الصورة الثورة الاصلاحية في اليابان العسالم الثالث غدا الاتقسراض الكييس تاريخ النفسود التحليل والتوزيع الأوركسترالي الشامة (٢ ج) الحياة الكريمة (٢ ج) كتابة التاريخ في مصر ق ١٩٠ قيام الدولة العثمانية

ادوارد مري اختيار / د٠ فيليب عطية اعداد / مونى براج وأخرون آدامن فيليب نادين جوديمر ،

عن النقد السيدمائي الأمريكي ترانيم زرادشت السييتما العربيسة دليل تنظيم المتاحف سقوط المطر وقصيص أخسرى

جماليات فن الاخراج

الحملة الصاليبية الأولى

قيام الدولة العثمانية

العثماتيون في أوريا

اثهم يصتعون البشر

رحلات فارتيما

الحياة الكريمة

السلطة والفرد

سقر تامه

السيينما الخيالية

الأزهر في الف عام

مصر الرومانية

رواد القلسقة الحديثة

زيجموت هبنر التاريخ من شتى جوانبه (ثلاثة أجزاء) ستيفن أوزمنت جىناثان ريلى سىميث التمثيل للسيدما والتليفزيون تونى بار محمد فؤاد كوبريلى بول كولن الكنائس القبطية القديمة في مصر (جزان الفريد ج٠ بتلر الحاج يونس المصرى فائس يكارد اختيار / د٠ رفيق الصبان فى النقد السينمائي الفرنسي بىرتون بورتو بيتر نيكو للذر برتراند راصل تاليف / بيذارد دوج ريتشارد شاخت

نقتالى لويس كتابة التاديخ في مصر القرن التاسع عشر جاك كرابس جونيور

ناصر خسرو علوى

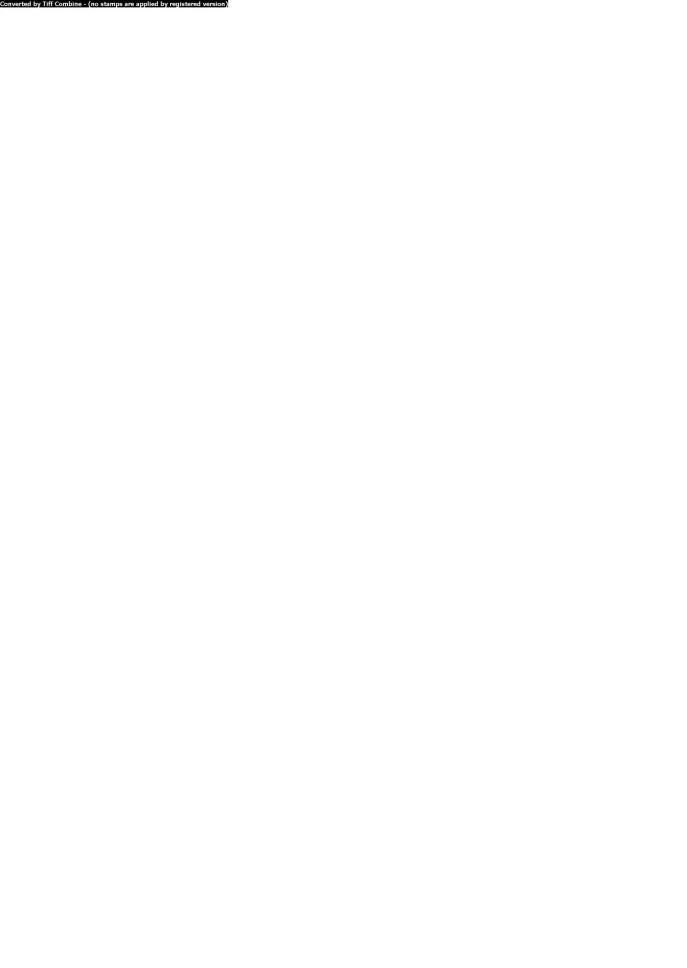
الاتصال والهيمنة الثقافية مختارات من الأداب الأسيوية

هريرت شيلر اختيار / صبرى الفضل

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

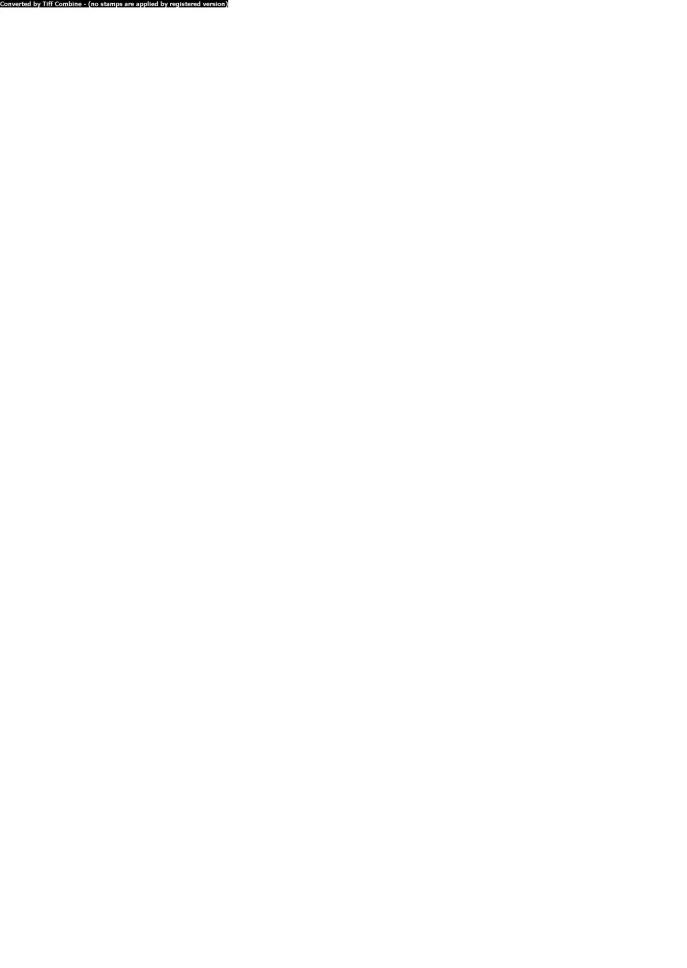
ج • س • فریزر اعداد/ أحمد محمد الشنوانی اسحق عظیموف لوتیو تود ترجمة / سوریال عبد الملك د • أبرار كریم الله اعداد / محمد جابر الجزار

الكاتب الحديث كتب غيرت الفكر الانسائي (٣ ج) الشموس المتفجرة مدخل الى علم اللغة حديث النهر من هم التتار



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٨٨٩٢ ISBN - 977 - 01 - 4121 - 6



هذه صفحة مفعمة بالحياة الحوال مصر الاجتماعية والاثقافية والاقتصادية بل والسياسية فم منتصف القرن التاسع عشر، يزيد من قيمتها أن كاتبها ليس بشخص عادم، وإنها رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الايرلندم ريتشارد بيرتون الذم زار مصر فم غضون سنة ١٨٥٣، أم فم أواذر عهد عباس باشا الاول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٥) وكانت مصر يومنذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة كان لها أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والاجتماعية

وفم الجند، الاول من الرحلة يصف بينرتون وصوله إلم منصر عن طريق الاسكندرية ثم إقامته فم القاهرة والاحتفال بشهر رمضان هناك ثم رحلته إلم السويس فم طريقت إلم زيارة الجزيرة العربية....